وداعاً يا غولساري!

ЧИНГИЗ АЙТМАТОВ

ПРОЩАЙ, ГУЛЬСАРЫ!

جنكيز أيتماتوف

وداعاً
يا غولساري!

ترجمة

د. ماجد علاء الدين

♦ **وداعاً يا غولساري!**

- تأليف: **جنكيز أيتماتوف.**
- ترجمة: **د. ماجد علاء الدين.**
- الطبعة الأولى: 2018.
- الترقيم الدولي: ISBN: 978-9933-18-832-0

يطلب الكتاب على العنوان التالي:

دار علاء الدين
للنشر والطباعة والتوزيع
سوريا ـ دمشق ـ جرمانا
هاتف: 00963 11 5617071
فاكس: 00963 11 5613241
ص. ب: 30598
daraladdinsyria@gmail.com

دار مؤسسة رسلان
للطباعة والنشر والتوزيع
سوريا ـ دمشق ـ جرمانا
هاتف: 00963 11 5627060
00963 11 5637060
فاكس: 00963 11 5632860
ص. ب: 259 جرمانا
darrislansyria@gmail.com

1

ثمة شخص كهل، جلس مسافراً على عربة عتيقة، يجرها الحصان الأشقر الرهوان غولساري، وكان أيضاً طاعناً في السن، بل مسناً للغاية...

أما الطريق، فقد امتد صاعداً عبر الهضبة، وكان الصعود طويلاً ومضنياً، بين التلال الرمادية الصحراوية والتي كانت ومنذ القدم موطناً غنياً للرياح الثلجية، وفي الصيف هنا، كان يشتعل الحر الشديد كما في جهنم.

أما تانباي فقد اعتبر هذا الطريق بمثابة العقوبة الصعبة، لأنه لم يكن يحب المشي البطيء، ولا يستطيع الصبر على تحمله، وفي أيام الشباب، عندما كان عليه أن يسافر مرات عدة إلى مركز المدينة، كان يطلق عنان حصانه، وفي كل مرة كان ينطلق نحو الجبل بالسرعة القصوى التي ينطلق فيها الرمح، ولم يشفق على حصانه، بل كان يلسعه لسعة إضافية بين تارة وأخرى بالسوط ليزيد من سرعته، وإذا كان لا بد له من السفر على عربة مع بعض الناس، ولاسيما إذا كانت تجرها الثيران، فإنه ينزل عن العربة بسرعة وهي تسير، ويأخذ ثيابه بصمت ويسبقهم مشياً على الأقدام بسرعة تزيد عن سرعة

العربة، كان يتصرف لحظتها كأنه في مهمة هجومية، ويتوقف عندما يجتاز الهضبة، وهناك يملأ صدره بالهواء الطلق، وينتظر القافلة الزاحفة إلى الأسفل، وبسبب المشي السريع، كانت تنتاب قلبه وخزات حادة، ثم يأخذ يدق بجنون، وعلى الرغم من كل ذلك، فإنه كان يفضل المشي مرات عدة عن الزحف البطيء.

أما المرحوم تشورا، فقد كان يحب أن يمازح صديقه تانباي، ويضحك من بعض تصرفاته، إذ كان يقول له:

- هل تريد يا تانباي أن تعرف لماذا لا يحالفك الحظ في حياتك؟ أقول لك، لأنك لا تصبر، وهذا بحق اللّه الحقيقة، فتريد أن يتم كل شيء بسرعة مذهلة، كما يجب أن تحدث الثورة العالمية! والثورة، حسب اعتقاد الكثيرين، مجرد حدث عادي، كالصعود عبر جبل ألكسندروفسك. وهنا تكمن المسألة في حياتك، ويقع عندك العجز، فالناس كلهم متشابهون، ويسافرون بهدوء، أما أنت، فتريد أن تعدو دائماً بسرعة خيالية، وتجتاز الجبال خبباً على حصانك الرهوان، وكأن الذئاب تطاردك، وهل تستفيد شيئاً من هذا؟ بالطبع لا شيء، وأخيراً ستصل، وتجلس هناك في الأعلى، وتنتظر حتى يلحق الآخرون بك، وحتى بالنسبة للثورة العالمية، لا تستطيع وحدك أن تحقق شيئاً، فعليك أن تتعاضد مع الآخرين.

أما هذا، فلقد كان في زمان أكل عليه الدهر وشرب!

في هذه المرة، لم يلحظ تانباي، كيف مر من جانب مرتفع ألكسندروفسك، إذ تعوّد أن يكون الأول في كل شيء، حتى في سنوات حياته الأخيرة، فكان يسافر ليس مسرعاً، وليس بطيئاً، إذ كان يمشي كما يطيب له، وأخذ يذهب إلى عمله وحيداً، ويسافر حسب رغبته. أما أولئك الذين كان يسير معهم في مجموعة واحدة، في زمن ما،

عبر ذلك الطريق الصاخب، لم يعد يجدهم الآن، فمنهم من استشهد في الحرب، وبعضهم قد مات، وآخرون يجلسون في بيوتهم متقاعدين، يعيشون بقية حياتهم، أما الشباب، فأصبحوا يسافرون في السيارات الحديثة، فلم يعد يرغب أحد منهم بالسفر على حصان هزيل ومسن.

أخذت عجلات العربة تدور في الطريق القديم، وما زال أمامها طريق طويل، عليها أن تقرع الطريق وتضج وتصخب حتى تصل إلى المكان المطلوب، وأمامها كانت تمتد السهول، وهناك وبعد القناة، كان من الضروري قطع مسافة وعرة حتى الجبل. لقد أخذ يلاحظ أن الحصان قد ضعف وقل جهده، ولكن تانباي المشغول الآن بأفكاره المعقدة لم يعر اهتماماً لوضع الحصان في الطريق؟ وهل هذه هي المصيبة الكبرى، حيث تعب الحصان في الطريق؟ فيحدث أحياناً أكثر من هذا، ولكنه سيتحمل ويوصلني إلى المكان الذي أقصده. نعم ولكن من أين كان له أن يعرف بأن حصانه الكهل الرهوان غولساري(*) الذي أطلقوا عليه هذا الاسم، لندرة لونه الأصفر الأشقر. وآخر مرة في حياته قد اجتاز مرتفع ألكسندروفسك، كان في هذه المرة، وها هو الآن ينقل صاحبه آخر فرستات(**) ومن أين كان لتانباي أن يعرف أن دوران رهيب يعصف في رأس الحصان ويؤلمه، وكأنه قد حقن بكمية من البنج المخدر، وأن نظراته الداكنة إلى الأرض، إذ أصبحت الأرض تسبح وتموج أمامه من جنب إلى جنب، وأن الطريق أمام غولساري كانت تتقطع أحياناً، وتتواصل، وتدور أحياناً أخرى، ويرى فيها الحصان فجوات وثقوباً سوداً لا قاع لها، وخاف الحصان من أن تكون أمامه جبال

(*) غولساري - زهرة صفراء - تسمى بزهرة الحب في كثير من الأماكن. - (المترجم).

(**) مفردها فرستا، وهي مقياس للأطوال - قدرها 1060 ألف وستون متراً. - (المترجم).

يُجبر على صعودها، وهناك تختلط الألوان عنده حتى تصبح بلون الضباب الأحمر أو الدخان الكثيف؟

أخذ قلب الحصان، منذ فترة ليست بالقصيرة، يدق بإعياء وضعف شديدين، وأخذ تنفسه يتصاعد، علماً أن حزام السرج لم يكن مشدود تحت صدره بقوة، ومن الجهة الأخرى تحت السرج كان ثمة شيء يؤلمه ويوخزه بصورة متتالية، تشبه الشوكة القاسية أو نهاية مسمار مدبب، برز من جهة العدة المشدودة إلى جسمه.

وقد أخذ الجرح ينزف مع كل خطوة يخطوها كأنه يسير في أرض محروثة بللها المطر.

كان الحصان يكابر على نفسه ويتحمل كل هذه الآلام ويصبر، ويتابع مسيره في الوقت الذي كان تانباي يستعجله ويهز مقوده وهو يتابع التفكير بما يدور في رأسه، زد على ذلك أنه كان لديه الكثير من القضايا والمشكلات، التي تشغل تفكيره.

كانت عجلات العربة تقرقع على الطريق القديم. بينما تابع غولساري المسير حسب مشيته المعهودة كحصان رهوان معروف في المنطقة، وبنفس الطريقة والإيقاع كما كان يسير خلال الفترة الماضية كلها، ومنذ تلك اللحظة التي وقف فيها على قوائمه لأول مرة وقد انتفض غير واثق بنفسه وسار عبر المرعى خلف أمه الفرس العالية ذات العرف الطويل.

لقد ولد غولساري كمهر رهوان منذ صغره وبسبب مشيته الرهوانية عند السير تعرض للكثير من الأمور الحلوة والمرة في حياته وفي الأزمان القديمة، لم يخطر على بال أحد أن يُجبر غولساري على جر العربة، واعتبر هذا إثماً كبيراً أن تسخر حصاناً أصيلاً للعمل في جر العربات والحراثة، وكما يقال: في حال وقعت المصيبة على حصان،

فإنه سيشرب الماء واللجام في فمه، وإذا حلت المصيبة على شجاع، فإن هذا الشجاع سيخوض في البركة في جزمته. كل هذا أصبح من الماضي، وبقي كل شيء بعيداً جداً، والآن أخذ الرهوان يقطع شوطه الأخير ويحاول أن يصل إلى النهاية بكل ما تبقى لديه من قوة. أما الآن، فلم أره ولا مرة في حياتي وهو يسير إلى نقطة النهاية بمثل هذا البطء، ولم يسبق له ولا مرة أن يُسرع هكذا للاقتراب من النهاية، والإشارة الأخيرة بالنسبة إليه كانت بمثابة وثبة واحدة للوصول إلى النصر، وهكذا تابعت العجلات قرقعتها عبر الطريق القديم.

كان الإحساس بتغير قساوة الأرض في الشتاء تحت حوافر الحصان يتصارع بضبابية خاصة في ذاكرته التي أخذت تنطفئ تدريجياً عن تلك الأيام الصيفية، وذلك المرج الرطب المتمايل، وذلك العالم العجيب الذي ليس له مثيل والذي كانت الشمس فيه تعلو وتسرع السباحة في الفضاء فوق الجبال، أما المهر الجامح فقد انطلق خلفها مطارداً إياها عبر المرج الفسيح وعبر النهر والشجيرات، وعندما لم يلحق بها أصبح شريراً غاضباً منتصب الأذنين، فهو لم يلحق بالشمس، ولم يعد إلى الخلف، وعند ذلك في تلك الأيام البعيدة، كانت قطعان الخيول تبدو في مياه البحيرة وكأنها تسير وأرجلها إلى الأعلى، أما أمه - الفرس العالية ذات العرف الطويل فقد تحولت إلى غيمة حليب دافئة، وكان يحب المهر الجميل تلك اللحظة، التي تتحول أمه فيها إلى غيمة ممطرة رائعة وسخية متفجرة، وتصبح حلمات أثدائها، أكثر انتصاباً وحلاوةً، ورغوة الحليب السخي الذي تعطيه بسخاء، تزداد دسماً، ويتدفق بقوة حتى يخرج بعضه على شفتي المهر الرائع، فيأخذ بامتصاصه برشاقة من كثرة الحليب وحلاوته. كان يحب الوقوف دائماً إلى جانب أمه وهو يضع رأسه إلى جانب بطنها،

وكم كـان هـذا الحليـب حلـو المذاق رائـع النكهـة ومسـكراً لعشـاقه! فالشـمس والأرض والأم قـد اتحـدوا في جرعـة حليـب لـيس لهـا مثيـل، وعنـدما كـان يصـل إلى درجـة الشـبع، كـان يحـب أن يأخـذ جرعـة أخرى، ثم واحدة، ثم يضيف ويضيف حتى يرتوي.

للأسف، أن هذه الحياة لم تـدم طويلاً، بـل كـانـت فـترة قصـيرة جـداً، وبعـد آونـة قريبـة، تغـير كـل شـيء، فالشـمس لم تعـد تقهقـه وتصهل في السماء، ولم تعد تعدو عبر الجبال، وأخذت تشرق دائماً مـن الشـرق ومـن نقطـة واحـدة لفـترة طويلـة، ومـن دون أي انحـراف. كانـت تسير إلى الغرب عبر السماء العالية، وقطعان الخيول لم تعد تسـير وهـي ترفـع أرجلـهـا إلى الأعلـى، أمـا الآن، فـأخـذت الخيـول تـرفض المسـير، وتحـت حوافرهـا كـان المـرج يمـتص الرطوبـة مـن التربـة، الـتي اسـودت لدرجة ما.

أمـا الحجـارة فكانـت تقرقـع، وتطلـق الشـرارات عنـد احتكـاك العجـلات الحديديـة بهـا، وتتكسـر بعـض أطرافهـا تحـت وقـع حـوافر الفرس العاليـة أم الرهـوان ذات العـرف الطويـل فقـد عقـدت العـزم في أن تكون أماً قاسية، وذات يوم عضـت ابنهـا بشـكل مـؤلم عنـد خاصـرته لأنه ألمها أثناء الرضاعة، وقد شح حليبها بعـد أشـهر مـن عمـره. زد علـى ذلـك أنهـا كانـت تضـجر منـه لكثـرة تحرشـه وإزعاجـه لهـا خـلال مسيرها، ولذلك كان عليه أن يبدأ بقضم الأعشاب، وهكذا ابتـدأت مرحلـة جديـدة في حياتـه، وامتـدت فـترة طويلـة، والـتي اقتربـت الآن مـن نهايتها.

خلال حياته الطويلة، لم يعـد الرهـوان نهائيـاً إلى ذلـك الصـيف، الـذي عاشـه في بدايـة عمـره، وغـادره إلى الأبـد. كـان يقطـع المسـافات تحت السرج، وهو يقذف بيديه ورجليه بشـكل فني رائع، تميز بهـا عـن

سـائر الخيـول في طـرق مختلفـة، وتحـت مختلـف الخيالـة، ولكـن لم تتحـدد نهايـة طريقـه بعـد، وفقـط الآن، عنـدما تحـركـت الشـمس مـن مخدعها من جديد، والأراضـي أخـذت تتـأرجح تحـت أطرافـه، وعنـدما أخذت عيناه تخونانه مع شـيء مـن الضـباب اللامرئـي وأخـذ يتصـور مـن جديـد ذلـك الصـيف الـذي لم يعـد إليـه حتـى في الـذاكرة منـذ فـترة طويلـة، وتلـك الجبـال وذلـك الـروض الرائـع روض الطفولـة وقطعـان الخيول المنتشرة في السهوب، وتلـك الفـرس العاليـة ذات العـرف الطويـل. كل هذا كـان يقف أمام عينيـه في حركـة سـرابية متشـابكة ومتقلبـة ومترنحة ومتزعزعة لدرجة كبيرة، ولقد ركـز كل قوته، وجمـع كـل أعصـابه حتـى يخـرج مـن هـذا الوضـع السـيئ الـذي يعـاني منـه، وحـرك أطرافه حتى يتحرر من قـوس العربـة ومـن العـدة، وهـذه العـودة السـريعة إلى الماضـي القـديم، مـا هـي إلا خيـال، وهـا هـو يتحسـس العـالم الـذي انفتح له من جديد، وكل هذه التخـيلات المخادعـة والسـرابية، كـانـت تتراجع في كل مرة، وكـان هذا يعذبه جداً، أما أمه ومن بين تموجـات السـراب كـانـت تناديـه بصـهيل خفيـف وهمهمـة حنونـة كمـا كـانـت تعامله في صغره، وانطلقت قطعان الخيول من حوله، كما كـانت أيـام زمـان، وهـو يفـتح عينيـه علـى العـالم في ربيعـه الأول وهـي تداعبـه مـن الجـانبين، ويتطـاير شـعر ذيـول الخيـول مـن فـوق رأسـه، وكـأنهـا تحثـه علـى النمـو بسـرعة واللحـاق بهـا، وحتـى ذلـك الوقـت لم تكـن القـدرة كـافيـة حتـى يتغلـب علـى الظلمـة الحـالكـة والعواصـف الثلجيـة الـتي أخـذت تهـب وتـدور وتلـف مـن حولـه وقـد لاحقتـه بهـذا الشـعر القـوي القاسي وهي تملأ عينيه وفتحتي أنفه بالثلج الناعم.

في الوقـت الـذي كـان العـرق يتصـبب منـه، أخـذ يرتجـف مـن موجة برد شـديدة، وأصـبح هـذا العـالم الخيـالي غـير المحسـوس يختفـى

بهدوء وبصمت قاتل حتى اختفى في فوهة العاصفة الثلجية. وهكذا اختفت الجبال والروض والنهر وابتعدت قطعان الخيول، وفقط كان يلحظ في مقدمة الخيول ظل أمه العالية العملاقة ذات العرف الطويل، كانت تعدو ولكنها تنظر بطرف عينها إلى الخلف، فلم ترغب أن تتركه، وكانت بهذه الحركة تناديه. فصهل مرة بكل ما أوتي من قوة كأنه يبكي، ولكنه لم يُسمع صوت صهيله واختفى كل شيء، وانتهت العاصفة الثلجية، وتوقفت العجلات عن القرقعة، والصرير، وتوقفت عدة العربة عن إصدار أي صوت كان ناجم عن حركة الحصان، وهذا يعني أن الحصان الرهوان قد توقف في مكانه، وأخذ يتأرجح من جهة لأخرى، وصعب عليه أن ينظر بعينيه من شدة الألم، وثمة دوي وصرير غريبان كانا يتصارعان في رأسه.

قذف تانباي بمقود الحصان على غاربه إلى الأمام، ونزل بصعوبة عن العربة، فتفحص الخدوش حول حوافر الحصان، واقترب عابساً منه، وحشرج ببعض الكلمات:

- إيه، عسى أن لا ينال السوء منك يا حصاني! إن وضعك سيئ جداً. - وأخذ ينظر إلى الرهوان بحزن وألم شديدين. وقف من مكانه وسحب رأس الحصان الضخم من العدة الموضوعة على رقبته الطويلة النحيفة، أما أضلاعه فقد برزت ضعيفة من تحت جلده، حتى كان من السهل عدها واحداً واحداً. لقد هزل وتدهورت صحته كلياً، ولقد تغير لونه الأصفر الذهبي إلى لون داكن من العرق المتصبب من قلة الجهد، وقد جُبل مع الأوساخ المتراكمة خلال سنين طويلة، وثمة خطوط داكنة من آثار العرق المتصبب اختلطت مع خطوط بيض صابونية فوق عظم ظهره، وتدرجت إلى البطن، وعلى طول قوائمه، فتمتم تانباي بصوت ملؤه الحسرة:

- أنا لم أضغط عليه عند المسير، وما لي أن أفعل معه الآن؟!

ارتبك تانباي، ثم حل الحزام من تحت بطن الحصان، كما فك حزام السمط، وخلع اللجام من فمه، أما الشكائم فقد كانت ساخنة من لعاب الحصان اللزج.

أخذ تانباي يمسح رقبة الحصان بكم فروته، ثم مسح اللعاب عن فمه، وتوجه إلى العربة **ليجمع** ما تبقى من الحشائش اليابسة عليها، فجمع كمية صغيرة، ووضعها أمام الحصان، ولكن الرهوان لم يلتفت نهائياً إلى الحشائش، إذ كان جسمه يرتجف بشدة. حمل تانباي خصلة حشيش، وقدمها من فم الحصان، فلم يعرها اهتمامه، فتمتم تانباي قائلاً:

- خذ، كل، ماذا حل بك!

حرك الحصان الرهوان شفتيه، ولكنه لم يتمكن من إمساك وقضم الحشيش. نظر تانباي في عينيه، ثم تجهم وجهه حزناً وكآبة. وفي أعماق العينين نصف المفتوحتين، بينما بدت تجعدات الجفون خالية من الشعر، وبدا الأمر لتانباي كأن الحصان لا يبصر بعينيه اللتين أظلمتا كلياً، وأصبحتا خاليتين وفارغتين من عكس أية صورة كانت، مثل النوافذ في بيت مهجور.

ارتبك تانباي، وأخذ يتلفت من حوله بعيداً، فبدت الجبال، ومن بين بعض زواياها، بدت السهول المحيطة عارية من كل شيء، وعلى الأرض والطرقات لم يكن أحد ما سائر أو جالس، ففي هذه الفترة من السنة، نادراً ما يأتي أحد ما من خارج المنطقة إليها.

وهكذا وقف الحصان العجوز والرجل الكهل وحدهما في هذا الطريق البري الفارغ.

كانت الأيام الأخيرة من شهر شباط تلفظ أنفاسها. تساقط

الثلج كثيفاً ولكنه قد ذاب من فوق الهضاب، ولم يعد له أثر واضح إلا في الانكسارات والوهاد وفي مواقع القصب، وكذلك في بعض أوجار الذئاب المخيفة. كانت هناك بعض الكميات من الثلوج، وكان الهواء يحمل بعض النسيم الحامل رطوبة هذه الثلوج الراقدة، وكانت الأرض من تحتها جامدة داكنة اللون لا حياة فيها، ولا وجود للبشر فيها، حقاً إنها أرض كئيبة حجرية في نهاية الكون ومن هذا المنظر، الذي مثل أمام عيني تانباي، كان الصقيع القاسي قد اخترق جلده وعظمه إلى أحشائه. أزاح لحيته الشعثاء رمادية اللون وأخذ ينظر من تحت كم الفروة العتيقة نحو الغرب. كانت الشمس معلقة بين الغيوم على حافة الأرض، وقد التقى الشفق الأحمر الخفيف مع لون الغيوم الدخاني، أما الطقس فلم يُظهر أي تغيير، ولكنه كان يعد ببرد قارس في الليل، فقال تانباي حزيناً:

- لو عرفت، لما غادرت مكاني، أما الآن فلم أعرف إلى أين أتجه، إلى هناك، أو أبقى هنا، واقفاً في وسط هذه الأرض الخالية، وعلى أي حال إن الحصان سيموت قريباً.

نعم، كان من الضروري له أن يغادر في صباح الغد، وعند الظهيرة من الممكن أن يحصل في الطريق حادث سير مع إنسان غريب عن المنطقة، ولا يعرف شعابها، أما هو فقد غادر قبل قليل، وهذا لا يشبه ابن المنطقة، وهو يعرف أن المغادرة في مثل هذا الوقت غير صحيح.

صعد تانباي إلى مرتفع حتى يستطلع قدوم أية سيارة ذاهبة أو عائدة من الممكن أن تقدم له مساعدة، ولكنه لم يلحظ أية سيارة تتحرك على الطريق في كلا الاتجاهين، ولم يسمع أي ضجيج كان، فعاد أدراجه إلى العربة، وأخذ يفكر مرة أخرى، ويؤنب نفسه لطبيعة التسرع في ذاته التي بسببها كان يخطئ كثيراً، إذ قال:

- من الخطأ أنني أتيت. - ولام نفسه على هذه الواقعة التي ألمت به، ولام نفسه بالدرجة الأولى، ولام كل من كان سبباً في استعجاله لمغادرة البيت في الوقت المتأخر الذي يقطن فيه ابنه وكان عليه أن ينام ليلته هناك، ويعتني بالحصان، ويعطيه الغذاء حتى يلتقط أنفاسه، أما هو فماذا فعل؟!...

لوّح تانباي بيده غاضباً، ثم أخذ يهدئ من معاناته الذاتية، ولكنه كان يؤكد على صحة موقفة، «كلا لم يكن بإمكاني أن أبقى، حتى لو كان عليّ أن أغادر مشياً على الأقدام، ولماذا ألوم نفسي بهذا الشكل، فما فعلته كان صحيحاً».

- وهل يا ترى يجوز لها أن تتكلم هكذا مع والد زوجها؟ ومهما كنت وضيعاً، فأنا أبٌ، وعلى أي حال يجب احترامي. فتحتج عليّ أنني قد شاركت في الحرب، وهل لي كرجل أن أمضي حياتي في رعي الأغنام وسياسة الخيل! وعندما كبرت في السن، قاموا بطردي... أما ابني، يا له من شاب يلتزم الصمت دائماً، ويخاف أن يرفع عينيه، فتقول له زوجته مثلاً: تتنكر لوالدك، فينفذ على الفور! يا له من شخصية ضعيفة يحاول أن يتسلق لمنصب قيادي! إيه فماذا من الممكن القول! يا لهؤلاء البشر الذين يتغيرون بين عشية وضحاها!

أحسّ تانباي بالحرارة تحرق جلده، ففك أزرار قميصه، وأخذ يتنفس بصعوبة، ثم أخذ يدور حول العربة محاولاً أن ينسى الحصان والطريق والليل القادم، ولم يعد لهدوئه، هناك في بيت ابنه حافظ على اتزانه، بل أكثر من ذلك، كان من السيئ جداً، أن ينزلق إلى درجة دنيا، ويرفع صوته في خصام مع زوجة ابنه، أما الآن فقد غلى القدر، وخرج ما بداخله، وكان بإمكانه أن يقول لها بمرارة كل ما كان

يفكر به خلال الطريق: «لست من أدخلتيني في صفوف الحزب، ولا من قمت بفصلي منه، فمن أين لك أن تعلمي، يا كنتي ماذا كان آنذاك؟».

أما الآن فمن السهل أن تقولي أي شيء، فالآن أصبح كل واحد يتذاكى على طريقته، أما المحاسبة، فقد كانت تلاحقنا، وكيف تلاحقنا! كان علينا أن نجيب عن الأب والأم، وعن الصديق وغير الصديق، وعن الذات وعن كلب الجيران، كان علينا أن نكون مسؤولين عن الجميع في المجتمع، أما بخصوص فصلي من الحزب، فعليك أن لا تمسي هذا الأمر! فهذا جرحي الخاص، والحزن الذي يتفجر في داخلي يا كنتي، وعليك أن لا تمسي هذا، وتوقظي جراحي!، - وكرر ثانية بصوت مسموع، وهو يراوح ثانية في مكانه إلى جانب العربة:

- نعم، عليك أن لا تمسي هذا! لا تمسي هذا!- كان يؤكد ويؤكد، أكثر، وأكثر، وأكثر ما كان يزعجه ويهينه، كان ذلك أنه لا يمكنه أن يقول شيئاً آخر، عدا كلمة «لا تتدخلي!».

أخذ يمشي ويلف حول العربة، حتى يتذكر ما عليه أن يفعل اليوم - ويؤكد: «إنني لن أبق هنا طوال الليلة»، أما غولساري، فكان يقف مع عدته، من دون أي حراك، ويجمع جسمه النحيل على شكل قوس، واقفاً على قوائمه الرفيعة التي قربها من بعضها، حتى لا تنوء بحمل ما تبقى من جسمه. بدا كأنه قد تجمد وتخشب ومات، فاقترب تانباي على عجل منه وهو يرهف السمع لكل تنفس أو أنين أو دقة قلب لحصانه، وأخذ يخاطبه: هل راودك النوم، أو أنك تعاني أيها الكهل معاناة كبيرة من سوء وضعك؟

أخذ تانباي يتلمس أذني الحصان الباردتين، وأدخل يده تحت

شعر عرفه، وهناك كان الموضع بارداً ورطباً مما أقلقه وزاد من خوفه، أنه لم يشعر بثقل العرف الغزير المعروف لديه سابقاً، إذ كبر الرهوان، وجف عرفه، وأصبح خفيفاً كالوبر، وفكر تانباي في نفسه قائلاً: «كلنا نكبر، ولنا جميعاً نهاية واحدة».

أخذ تانباي يفكر بمرارة، ونهض في حالة ارتباك، وهو لا يعرف ماذا عليه أن يفعل، فلو ترك الحصان والعربة هنا وتابع طريقته سيراً على الأقدام، فإنه سيصل في منتصف الليل إلى بيته، إلى ذلك المكان بجانب كشك الحراسة عند المضيق حيث كان تانباي يعيش هناك في المحطة مع زوجته في جوار حارس مؤسسة المياه الذي يعيش على مسافة ألف وخمسمئة متر إلى أعلى النهر، أما في الصيف فكان تانباي يشرف على جمع الحشيش وتجفيفه، وفي الشتاء فقد كان يشرف على أماكن التخزين والتكديس حتى لا يسرق الرعاة الحشيش اليابس ويصرفونه قبل الوقت اللازم.

في الخريف الماضي، ذهب تانباي إلى الإدارة لحل بعض المسائل العالقة، وهناك وجد رئيساً جديداً للعمل. خبير زراعي، وشاب من الشبان القادمين، إذ قال له:

- اذهب أيها العم المحترم إلى إسطبل الخيل، لقد اخترنا لك حصاناً آخر، والحقيقة أنه كبير في العمر، ولكنه يفي بالغرض حسب عملكم.

- عن أي حصان تتكلم يا عم؟ - قال تانباي محتجاً. - هل ستعطوني حصاناً آخر على حافة الموت؟

- هناك سيعرفونك عليه، وهو كميت فاتح، فأنتم تعرفونه، وقد ركبته فترة ما.

ذهب تانباي إلى الإسطبل، وعندما رأى الرهوان في الساحة،

انكمش قلبه وضاق تنفسه. «هكذا كتب لنا أن نلتقي ثانية» - قال تانباي في نفسه مخاطباً حصانه العزيز الذي بدا عجوزاً في نهاية حياته، ولم يكن بإمكانه أن يرفض من الناحية المعنوية رفيق حياته القديم، وهكذا قاده من مقوده خلفه.

أما في البيت، بالكاد عرفت زوجته الحصان الرهوان، وسألت مستغربة:

- قل لي يا تانباي. هل هذا هو غولساري حقاً؟!

- هو، هو بالذات، ولماذا تستغربين الأمر... - قال تانباي من دون أن ينظر إلى عيني زوجته.

وهنا كان عليهما أن لا يتذكرا تلك القصة الطويلة المرتبطة بحصانهما الرهوان التي كانت بمثابة إثم كبير على روح تانباي في شبابه، وحتى يتجنب متابعة الحديث المؤلم، قال لها بخشونة:

- ماذا بك تقفين، ضعي على النار ما يمكن أكله، إنني جائع كالكلب المشرد. فأجابت الزوجة:

- هذه أنا، أنظر وأفكر، فيعني أن الكبر قد فعل به هذا، فلا تقل لي إن هذا هو حصاننا غولساري، حتى لم يكن بإمكاني أن أعرفه.

- وماذا في الأمر هنا من غرابة؟ وهل تفكرين أننا أنا وأنت في منظرنا ووضعنا هذا أحسن منه، فلكل كائن نهايته بعد شبابه.

- هذا ما أتكلم عنه. - هزت الزوجة رأسها موافقة على ما قال تانباي، ثم قالت بطيب خاطر وبشجاعة: - ربما ستعود إلى أيام شبابك، وسوف تمتطي في الليالي الرهوان؟ فأنا أسمح لك، فأجاب تانباي حائراً:

- أين لي من هذا، وأدار ظهره إلى زوجته مرتبكاً، وكان

بإمكانه أن يجيب على الطرفة بطرفة أخرى، ولكنه لم يتمكن تحت وقع شعور الخجل، فخرج على الفور ودخل إلى الملحق، حتى يُخرج شيئاً من الحشيش اليابس، وبقي هناك مدة طويلة، وكان قد فكر أن زوجته قد نسيت الأمور، وتبين أنها لم تنس شيئاً. خرج من القسطل دخان كثيف، حيث قامت الزوجة بتسخين ما بقي من الغداء، أما هو، فقد بقي إلى جانب حصانه طويلاً، حتى جاءه صراخها من الباب: تعال وتناول طعامك وإلا سيبرد ثانية.

لم تعد الزوجة للكلام مجدداً عما كان سابقاً، وما الفائدة من كل هذا؟...

اعتنى تانباي طوال الخريف والشتاء بحصانه الرهوان، وكان يقدم له الطعام المناسب، ولاسيما الشوندر المفروم، فلم تعد أسنان غولساري كما كانت، ولم يبق منها إلا بعض النتوءات المكسرة، وبدا الأمر كأن الحصان قد أخذ يتحسن، ولكن من غير المعقول أن يتركه الآن في منتصف الطريق، فما العمل؟ لم يتمكن تانباي، أن يأخذ قراراً بترك الحصان، فقال له: ماذا سنفعل يا غولساري، وهل سنبقى واقفين هنا إلى ما لا نهاية؟

دفع تانباي الحصان بيده بحنان، أما الرهوان فقد ترنح في مكانه، ونقل أطرافه من مكان إلى آخر، وتوقف ثانية.

أخذ تانباي الكيس، الذي كان فيه بعض الأغراض في أسفل العربة، حيث نقل فيه بعض البطاطس لكنته، وأخرج من هناك صرة كانت قد وضعت زوجته فيها الخبز، ولكنه لم يأكل منها أي شيء، ثم تناول الخبز، وأخذ منه نصفه، وقسمه إلى قطع صغيرة ووضعها في عليقة الحصان. شم غولساري رائحة الخبز بحرارة، ولكنه لم يكن قادراً على الأكل. عند ذلك قام تانباي بإطعامه

بكف يده، وهو يدفع قطع الخبز إلى فمه، وهنا بدأ الحصان بمضغ الخبز شيئاً فشيئاً، بينما تابع تانباي مخاطبته:

- كُل، كُل، عسى أن نصل إلى البيت اليوم؟ - تعال نسير بهدوء، ومن دون استعجال! وهناك سيكون الأمر أسهل، وسوف نعتني بك مع زوجتي العجوز، وهنا سال اللعاب من فم الحصان على يدي تانباي المرتجفتين، فأخذ يرتاح تانباي من شعوره بدفء لعاب الحصان على شفتيه، ثم قاده ومشى أمامه قائلاً: لنذهب يا غولساري! فماذا يفيدنا الوقوف هنا، لنذهب، وعسى أن نصل بخير!.

تحرك الرهوان من مكانه، وتحركت العربة، وأخذت العجلات تقرقع بالتدريج فوق الطريق، وهكذا سار الكهلان بهدوء، إنسان عجوز، وحصان كهل، فأخذ يفكر تانباي بحصانه، وهو يسير أمامه:

«لقد أنهك غولساري كلياً، إذ بلغ عمره عشرين عاماً، وربما أكثر، أعتقد أكثر من عشرين...».

2

إذ شاهدته للمرة الأولى بعد الحرب مباشرة، وأمر القائد العسكري أن يكون العريف تانباي باكاسوف في شتى الأماكن في الغرب وفي الشرق، وتسرح من الجيش بعد انهيار الجيوش المعادية للاتحاد السوفييتي، ولقد أمضى تانباي ما يقارب ستة أعوام، وهو ينتقل من موقع إلى آخر عبر طرقات الحرب العنيفة، وانتهت الحرب، وشمله الله بعنايته، رغم أنه أصيب إصابة بليغة في بطنه، ومرة أخرى أصيب بشظايا في صدره، وتعالج خلال شهرين في المستشفيات، وعاد ليلحق برفاقه في الجبهة بعد العلاج مباشرة، و بعد الحرب عاد إلى

البيت، وأخذ يعمل حيثما يتوفر العمل، وأطلق عليه تجار المحطات اسم الكهل، ولكن هذا كان أقرب إلى الدعابة، ولم ينزعج تانباي من هذا كثيراً، فلم يكن هو شاباً بالطبع، ولكنه ليس بالعجوز أيضاً. حقاً إن الحرب قد صبغته بوشمها، فكان يسير متثاقلاً كأنه كهل، كما ظهر الشيب على رأسه وشاربيه، ولكنه من حيث المزاج والطبيعة والقوة الفيزيولوجية كان قوياً ومعتداً بنفسه. بعد سنة من عودته، أنجبت له زوجته طفلة، وفيما بعد أنجبت الطفلة الثانية، وقد رباهما تربية جيدة مع زوجته، وتزوجتا وأنجبتا الأطفال، وغالباً ما يأتون لزيارة تانباي وزوجته في الجبال في أيام الصيف، كان تانباي وزوجته راضيين على تعامل ابنتيهما معهما، وكذلك بالنسبة لزوجيهما، ولكن لم يكن لديه ولد يعتد به ويستعين فيه وقت الحاجة، ولكن هذا الموضوع له وجه آخر...

في الطريق بعد تحقيق النصر وعودته إلى موطنه، بدا الأمر أن الحياة الحقيقية قد ابتدأت لتوها، وشعر كل إنسان سوفييتي آنذاك، بتلك الأريحية القلبية، رغم المآسي، التي عانى منها الشعب. في المحطات الكبيرة للقطارات، كانت الغرف الفنية تستقبل القطارات العسكرية وتودعها بموسيقا وأغان وطنية حماسية، أما في البيت فقد كانت الزوجة تنتظر، وكان الابن يكبر في غيابه، حتى أصبح له من العمر ثماني سنوات، ودخل المدرسة.

أخذ تانباي يفكر وهو متوجه إلى البيت، ويقول في نفسه إن الأمور قد مرت على خير، وها أنا قد وُلدت من جديد، ولم أعد أحسب أي حساب للمصاعب التي كانت تقف في طريقي والتي عانيت منها خلال الحرب، حتى رغبت أن أنسى كل شيء، وطمحت للتفكير في المستقبل فقط، وتصورت كل شيء بوضوح، وبدا الأمر

لـي لـيس معقـداً : يجـب أن نعـيش، ونربـي الأطفـال، ونـبني بيتـاً ونـؤمن كل مـا هـو ضـروري للعيش، ولم أعـد أرى أيـة معيقـات لتحقيـق هـذا، وخاصة أن كل ما مضى كان مقدمة ضرورية ومهمة من أجل أن نبدأ الآن حياة حقيقية. كنا نحلم بها خلال الفترة الماضية كلها، والتي من أجلها حققنا النصر، وقدمنا ملايين الأرواح في الحرب.

واتضـح الأمـر فيمـا بعـد، أن تانبـاي قـد أسـرع كـثيراً لبـدء حيـاة جديدة، وبان أنه يلزم لهذا البدء الحقيقي، أن يقدم سنوات طويلة.

أخذ تانباي يعمل في ورشة حدادة لتطريق الحديد وتصنيعه من الصباح وحتى المساء، وهو يضرب بالمطرقة بضربات قوية ومحكمة ثم يقطـع الحديـد الـذي أخرجـه الحـداد مـن الفـرن أحمـر لتـوه، وبالكـاد يـتمكن الحـداد مـن قلـب القطعـة، بـين ضـربة وأخـرى مـن تحـت وقـع ضـربات تانبـاي المحكمـة، ومـا زال حتـى الوقـت الحاضـر يسـتيقظ في الليالي على وقع صوت المطرقة في أذنيه، في ميلوديا صاخبة أخرست كل الهموم والمعانـاة في ذاتـه، ولم يكـن يكفـي الـدخل آنـذاك لتـأمين الخبز والثيـاب للأسـرة، زد علـى ذلـك أن بعـض النسـاء كـن يسـتخدمن القالوش، أو يمشين حافيـات الأقـدام، ولم يعـرف الأطفـال آنـذاك طعـم الحلويـات، وكـان الكولخـوز في وضـع سـيئ، وعليـه الكـثير مـن الديون، وتمت مصادرة كل الأرصدة التابعة له في البنـوك المحلية، أمـا هـو فكـان يقـاوم كـل هـذه المصـاعب بمطرقتـه الـتي كـان يحـاكي بضـرباتها، وتـرن فـوق قطـع الحديـد بقـوة، ومنهـا تتطـاير الشـرارات الزرقـاء في كـل الأنحـاء «أوغ - حـا، أوغ - حـا! كـان يشـهق، ويهـوي بمطرقته من جديد، وهـو يفكـر: - كـل شـيء سـيترتب قريبـاً، والمهـم أننا انتصرنا، المهم أننا انتصرنا!» وكانت المطرقة تكرر: «انتصـرنا، انتصرنا، صرنا...، صرنا... صرنا...!» وليس تانباي وحده قد عاش هـذه

الحياة الصعبة في تلك الآونة بعد الحرب(*)، بل كان كغيره من أبناء الشعب، يتغذى بنشوة النصر وهوائه، كما يتغذى بالخبز.

ثم ذهب تانباي يعمل في ترويض الخيول وتربيتها في منطقة الجبال. لقد أقنعه صديقه تشورا بهذا الذي كان صديقاً وفياً له، ويعمل آنذاك مديراً للكولخوز، وخلال الحرب كلها، كان يقوم بهذه المهام، ولم يذهب إلى الجبهة، إذ كان يعاني من مرض في القلب حتى في البيت كان يلتزم الفراش مدة طويلة، ولقد لاحظ تانباي مباشرة، عندما عاد من الحرب، أنه من الصعب أن يقنع صديقه، أو غيره بهذا، كما استطاع تشورا أن يغير له عمله من الحدادة إلى سايس للخيل، فلقد كان تشورا صديقاً قديماً له، إذ باشرا العمل في منظمة الكومسومول(**)، وباشرا معاً بالتحريض لتأسيس الكولخوز، وناضلا معاً من أجل القضاء على الإقطاع، وخاصة أن تانباي قد اجتهد جداً آنذاك، ولم يرحم نهائياً كل من جاء اسمه في قوائم الإقطاعيين أو أنصارهم... ولقد أقنعه تشورا بالعمل في الكولخوز، والإشراف على أعمال الحدادة، وكما يبدو أن تانباي قد رضي عن ذلك، وقال له مبتسماً:

- كنت أخاف أنك قد التحمت بالمطرقة، ومن الصعب فصلك عنها!

كان تشورا يعاني من شدة المرض، فنحف جسمه، وامتدت رقبته وأصبحت رفيعة، وتراكمت التجاعيد على وجنتيه الهزيلتين.

(*) الكلام يجري هنا عن الحرب العالمية الثانية، التي ابتدأت فعلياً عام 1939، واستمرت حتى تحقيق النصر على الفاشية والنازية في 9 أيار 1945. واستمرت الأوضاع الصعبة بعد الحرب لسنوات عدة، حتى تمت عملية إعادة ترميم الوضع الاقتصادي والاجتماعي. - (المترجم).

(**) اتحاد الشباب الشيوعي اللينيني في فترة الاتحاد السوفييتي.

كان الجو دافئاً، ولكن تشورا حتى في الصيف كان يرتدي سترته الشتوية.

جلس الصديقان القرفصاء عند القناة بالقرب من ورشة الحدادة يتبادلان الحديث، وتذكر تانباي كيف كان صديقه تشورا في شبابه، من أجمل وأذكى شباب القرية، كان وقوراً ومحترماً من قبل الناس، وأحبه كل من حوله لهدوئه وطبيعته الخيرة.

أما تانباي فلم يكن راضياً عن هذا التواضع في طبيعته، فكان يقف في الاجتماعات وينتقد تشورا على تصرفاته المرنة غير الصحيحة في الصراع الطبقي مع الأعداء، وكان نقد تانباي صريحاً ومتيناً كما في الصحيفة، وكل ما يسمعه من تصريحات صارخة كان يحفظه عن ظهر قلب، ويكرره في كلامه، وكان يخاف من كلامه، ويتوقف ثم يتابع، ولكنه كان يحقق نجاحاً في خطاباته.

- لقد أمضيت يومي الثالث في الجبال - أخذ تشورا يتحدث - وأخذ الكهلة يسألون، - هل عاد الجنود جميعهم؟ فأجبتهم: نعم، لقد عاد من بقي منهم على قيد الحياة. «ومتى يفكرون بالعودة إلى العمل؟» - إنهم يعملون - أجيبهم بصراحة، فمنهم من يعمل في الأرض، ومنهم في البناء، ومنهم في أماكن أخرى. «نعرف هذا أيضاً، أما القطعان، فمن سيرعاها؟ أم سينتظرون حتى نموت، فلم يعد لنا إلا القليل حتى النهاية». أما هؤلاء الكهلة، فلقد قمنا بإرسالهم إلى الجبال كساسة للخيول، ومنذ تلك الأيام، تغير الكثير، وليس لك أن تقول بأن هذا العمل ليس للكبار، فهم دائماً فوق سروج خيولهم، ولا يعرفون الليل من النهار، فحياتهم كلها في العمل. جرب أن يحملك شيطان أسود، وأنت في السبعينات من عمرك في الجبال والوهاد، وساعتئذ لن تتمكن من جمع عظامك كما كانت، وشكراً لهم،

أنهم قاموا بأعمال كثيرة، واجتهدوا وتمكنوا من تحقيق هذه الأعمال، التي أوكلت لهم، ولم يكتفوا بالكلام فقط. أما المحاربون فقد عادوا من الجبهات رافعين أنوفهم عالياً. لقد تعرفوا إلى الحضارات خلف الحدود، ولم يرغبوا الآن، بالعمل في سياسة الخيل.

ولماذا عليّ أن أمضي عمري بتسلق الجبال خلف الخيول؟ هذا هو واقع الأمر يا صديقي تانباي، وعليك أن تساعدني، فإنك ستذهب طواعية، وسنجر الآخرين إلى العمل كما يجب عند ذلك. فأجاب تانباي:

- حسناً يا تشورا، سأتحدث مع زوجتي!، يا لها من حياة ألقت بصخبها فوق رأسي، أما أنت يا تشورا، فما زلت كما كنت، تحترق كالشمعة انطلاقاً من طبيعتك الخيرة، ربما هذا شيء جيد، ولقد رأينا الكثير من أمثالك خلال الحرب، وحبذا لو كنا نعطي كل إنسان حقه، وهذا هو أصدق شيء في الحياة، ولكن تصور أن كل شيء قد بقي على ما هو عليه.

ذهب تانباي إلى ورشة الحدادة، أما تشورا فقد ناداه قائلاً:

- قف يا تانباي! - وسار مقترباً منه، وهو على حصانه، فانحنى على جانب السرج، وأخذ ينظر إلى وجه صديقه، وهو يقول له بهدوء: - ربما تكدرت مني يا صديقي؟ فعسى أن تفهمني دائماً، ولا يوجد عندي الآن وقت نهائياً، فعليّ أن أغطي جبهة العمل، ودائماً أرغب أن أجلس معك، ونتحدث ونتقاسم المشاعر، كما كنا سابقاً، وكم من السنين قد جمعت بيننا، وأخرى أبعدتنا عن بعض قسراً، ولم نلتق، وقد فكرت أننا سنعوض ذلك عندما ستنتهي الحرب، وسيكون الوضع أفضل، وتخف الأعمال عن كاهلنا، ولا تضاف إلينا الأعمال الجديدة الأخرى، وفي بعض الأحيان، تغمض عينك قليلاً، وتفتحها، فتجد الكثير من الأمور والأفكار تتسابق لتجد

مكاناً في رأسك، وتفكر: ما العمل حتى ترفع مسيرة الإنتاج، وتؤمن للشعب القوت والغذاء اللازمين، وحتى ننفذ كل الخطط الموضوعة أمامنا. علماً أن الناس قد تغيروا عن ذي قبل، وأصبح كل فرد يطمح للعيش أحسن وأفضل، ويفكر بذاته قبل أن يفكر بمصلحة الآخرين...

وهكذا، لم يتمكن الصديقان القديمان من إيجاد فرصة لتقاسم المشاعر، ولم يجدا مناسبة حتى يجلسا على انفراد مع بعضهما، أما الزمن فقد كان يمضي بسرعة، ولم يلتقيا فيما بعد، حيث فاتهما الوقت...

وذات مرة، توجه تانباي إلى الرعاة في الجبال، فشاهد لأول مرة قطيع الخيل الكبير، وفي وسطه، كان المهر الأشقر، عندما كان له من العمر سنة ونصف تقريباً، ويجول ويصول من وسط القطيع إلى أطرافه، وهو يصهل رافع الرأس معتداً بنفسه.

قدحت عينا تانباي نشاطاً ورجولة، وقال في نفسه: ماذا ستترك للأولاد والأحفاد من ورثة أيها الرجل المحترم؟! وماذا ستعمل مع هذا القطيع الكبير!

بالطبع كان من اللازم على تانباي أن يفكر، وخاصة أنه السايس والراعي لهذا القطيع، ومما زاد من ثقته أنه لاحظ عندما أحصوا عدد الخيول، وهم يخرجونها من الإسطبلات قد ازداد بشكل كبير.

أما تورغوي، فقد كان كهلاً نحيفاً، وجافاً، لا توجد على وجهه القاتم شعرة واحدة، يرتدي قميصاً قصير الكمين كالمراهقين، وعلى رأسه، قبعة من فرو الغنم كبيرة ومكورة كالفطر، وأمثال هذا الكهل يمتازون برشاقتهم وسرعتهم في السير

والـركـض، وركـوب الخيـل، وهـم مشاكسـون، ومـن ذوي الأصـوات المرتفعـة في الاجتماعـات والمناسـبات، ولكــن تورغـوي لم يخــرج عــن طوره، إذ قال بهدوء في أحد الاجتماعات:

فكيف الأمر يكون بالنسبة للسايس، فكلمة سايس تدل على راعي الخيل قبل غيره، وبكلمة واحدة، ليس من ميزات يتسم بها رعاة الخيل عن غيرهم، إلا الحب والعشق للخيل، وهم في هذا على اختلاف كامل مع رعاة المواشي الأخرى على تنوعها، وقد قطع عهداً على ذاته في قرارة نفسه، أنه سيعمل كل ما بوسعه، حتى يكون كل شيء على أحسن وجه، بينما همس تانباي موافقاً على ما قاله الكهل تورغوي:

- نعم، إنني أعتقد هكذا، أيها الأب!

أزاح الكهل تورغوي قبعة الفرو عن رأسه كي يرى جيداً، الخيول أمامه، ووثب جاثياً على ركبته، وأبرز قبضة السوط، وأشار بها نحو القطيع، أنظر ذاك المهر الأشقر الذي يرعى في النسق الأول، إنه مهر ممتاز، وله مستقبل جيد، فسأله تانباي:

عمَ تتكلم؟ عن ذاك المهر الذي يرعى هناك، يبدو مليئاً كالكرة؟ إنه يبدو صغيراً كما يتضح لي، وأن ظهره قصيراً! فأجابه تورغوي:

- إنه ما زال صغيراً في العمر، سوف يستقيم ويتمدد جسمه،
- وساعتئذ سيكون مهراً رائعاً.

- وماذا فيه من مواصفات متميزة؟ فأجابه الراعي تورغوي:

- إنه رهوان منذ ولادته.

- وماذا يعني هذا؟ - سأل تانباي بحذاقة الإنسان المهتم، فأجابه تورغوي على الفور:

- لم أصادف مثله إلا نادراً، ففي الأزمنة الماضية، كان ثمنه

عالياً جداً، وليس من السهل الحصول على مثله، وفي السباق كان الناس يحنون رؤوسهم أمامه، وخلال التحديات التي تحصل في السباقات بين القبائل، كانت تسقط بعض الرؤوس!

- لنذهب وننظر. - اقترح تانباي.

قام تانباي وتورغوي بتحريك الخيول من مكانها، فانطلقت في المرعى بحركات جميلة، ثم فصلا هذا المهر الأشقر جانباً، وقاما بطرده أمامهما، فانطلق المهر كالسهم، وكان يركض كأنه يرقص بعيداً عن مكانه، وكان فعلاً يمتاز بمشيته الرهوانية السريعة خلال قيامه بنصف دورة كبيرة، وعاد إلى مكانه في القطيع. لقد اهتم تانباي بالمهر، وكان معجباً بعدوه، وصرخ فرحاً ا- ا- ا- ا انظر كيف يعدو! انظر، فقال تورغوي:

- وأنت كيف تفكر يا تانباي، وهل أنصحك بمهر سيئ!

أخذ تانباي وتورغوي يركضان خلف الرهوان، وهما يصرخان، كأولاد صغار في السباق، وكانت أصواتهما كأنها أسواط تلسع المهر، فأخذ يسرع ويسرع بأريحية تامة، ومن دون أي تعثر خلال عدوه، وكأنه يطير من دون أن تلامس حوافره الأرض.

لقد كان عليهما أن يطلقا العنان للخيول لتسير في الوتيرة نفسها التي يتبعها الرهوان، وعند ذلك صرخ تورغوي:

- أترى يا تانباي - كان يزيد من سرعته، ويحث حصانه قدر الإمكان، ويلوح بقبعته - أترى كيف يتجاوب الرهوان مع صراخنا، وهو طيع كالسكين في يدك! أيت، أيت، أي - تا، أ، أي!

عندما عاد المهر الأشقر بعد دورة طويلة إلى القطيع، لم يحاولا معه مرة أخرى، وتركاه يرتاح، ولكنهما، لم يرتويا من رؤية كل شيء في حركات الرهوان، وإبداعه في العدو حتى النهاية.

- لك كل الشكر، يا تورغوي المحترم، لقد ربيت مهراً جيداً، حتى روحي أخذت ترقص فرحاً.

- حسناً، - وافق الكهل - ولكن عليك أن تنتبه - وفجأة تحفز الكهل، وأخذ يحك خلف رأسه - فلا تصبه بالعين، ولا تتحدث عنه أمام الناس قبل نضوجه، وتتجنب الثرثرة عنه كما يتجنب الإنسان الكلام عن الفتاة الحسناء قبل نضوجها، فعليك أن تحبه وتصونه، كما تصان الفتاة الحسناء الجميلة، فالحساد كثر، والصيادون أكثر، فمثله في هذا كمثل الفتاة البريئة الرائعة: فعندما تقع في أيدي خيرة وطيبة ستزداد حسناً وازدهاراً وتُسر العيون برؤياها، وإذا ساء حظها ووقعت في أيدي إنسان مجنون سوف تتعذب هي وتتعذب روحك عندما تنظر إليها، وليس في مقدورك أن تقدم لها أية مساعدة. وهكذا بالنسبة للحصان الجيد، بإمكانك أن تقتله بسهولة ويقع في السباق ويتحطم.

- لا تقلق يا صديقي تورغوي المحترم، فأنا أيضاً لدي خبرة جيدة في هذه الأمور، ولست بطفل صغير. فأجابه تورغوي:

- هكذا، فهذا كل شيء عن المهر، ولقبناه هنا بلقب غولساري. فاحفظ اسمه. فسأل تانباي:

- ما معنى غولساري؟ فأجابه تورغوي:

- نعم، لقد جاءت حفيدتي في الصيف الماضي إلى عندنا هنا، وشاهدت المهر، فأعجبها جداً، وهكذا أطلقت عليه هذا اللقب، وأحبته حباً كبيراً، إذ كان مهراً صغيراً. لا تنسَ، احفظ لقبه: غولساري.

لقد كان الكهل تورغوي كثير الكلام، فطوال الليل تابع التحدث، وهو يعطي التنبيهات، والنصائح لتانباي، أما تانباي، فقد استمع إليه بصبر وهدوء.

قام تانباي بتوديع تورغوي وزوجته في طريقهم، مسافة تزيد عن سبع فرستات عن مركز تربية الخيول، وبقيت اليورتا خالية، حيث سيعيش فيها المشرف السايس للخيول، وفي الخيمة الثانية، سيسكن مساعده الذي لم يتم اختياره بعد. أما الآن، فسيعمل وحده.

لم يفت تورغوي عند الوداع، إلا وأن يذكر تانباي بالتالي:

- لا تمس الأشقر بالسوط نهائياً، ولا تسمح لأحد بذلك، وفي الربيع، قم بترويضه وتدريبه على الركوب بنفسك، وانظر بحذر! كيف ستضع السرج عليه بهدوء، وعليك ألا ترهقه في المرة الأولى، وإذا لسعته، يبدأ بالعناد، وبهذا سوف تسيء إليه كحصان في المستقبل، وانتبه في الأيام الأولى، أن لا يشرب كثيراً، بعد العدو مباشرة، وإذ سقط البول على قائمتيه، سيعاني من الرطوبة، وعليك بتنظيفه، وعندما ستروضه، امتطيه، وتعالي إليّ لأنظر إذا كانت هناك من ملاحظات، هذا إذا بقيت على قيد الحياة.

وهكذا غادر تورغوي مع زوجته العجوز، تاركاً لتانباي قطيعه واليورتا والجبال، وأخذ معه جملاً محملاً بكل ما لديه من حوائج منزلية.

فلو كان يعلم غولساري، كم من الأحاديث تدور حوله، وكم ستجري أحداث تتعلق به في المستقبل، لما عرفنا أين سنكون، وأصبحنا في حالة من القلق.

أما تانباي فكان يشعر بأريحيته، إذ كان يقوم بدور الراعي كالسابق، وكل شيء حوله كان كما كان عليه: فالجبال هي الجبال، والحشائش لم تتغير، والأنهار هي نفسها، أما بالنسبة للقطيع، فقد جاء شاب بدلاً من الكهل، وهو يرتدي معطفاً حربياً وقبعة ذات واقيتين فوق أذنيه، أما صوته فقد كان أبحاً وأقوى وله

نبرة شديدة بالمقارنة مع صوت الراعي العجوز السابق، ولقد تعود القطيع بسرعة على التعامل معه، وأخذ يرعى ويسوس الخيل بعناية واهتمام كبيرين، كما يعجبه ويرضي ضميره.

أخذت الثلوج تتساقط بكثافة في فترات متقاربة، وبقيت مكدسة فوق الأرض فترة طويلة، فأخذت الخيول تنبش الثلج بحوافرها بحثاً عن الحشائش اليابسة تحته. أخذ الراعي الجديد يأخذ لون السمرة تدريجياً من الشمس، وبدا هذا على وجهه ويديه، وأخذ جلده يخشن من الرياح، وغيرها من التغيرات للتأقلم مع الطبيعة.

أما الآن، ومع حلول الشتاء البارد، أخذ الراعي كغيره من الرعاة يرتدون جزمة اللباد السميكة، كما ارتدى فروة من جلود الأغنام ذات الصوف طويل التيلة، والضرورية للرعاة في الليالي الباردة، إذ كان الراعي يجمع نفسه في فروته في كتلة متماسكة، ويقف أو يجلس القرفصاء في زاوية ما حتى الصباح، وهو يحرس القطعان، أما غولساري فقد نما عليه الوبر تجاوباً مع الطبيعة، ولكنه رغم ذلك كان يبرد، أما الراعي فكان يجمع الخيول في إسطبل واحد حتى تشعر بالدفء في مكان مكتظ، بينما هو كان يراوح في مكانه أحياناً وهو ينفض كمي فروته ويمسح الثلج عن وجهه، وكان يختفي أحياناً في مكان دافئ في زريبة أو إسطبل، ليعود بعد قليل، ويصرخ بصوت عالٍ حتى يخيف الوحوش ويسعل سعلة قوية من الصقيع، ثم يلقي برأسه على وقاء أذنيه، وهو يطمئن أن قطيعه يرتاح، وعلى ما يرام، ولا يبال برياح الشتاء الليلية. ومن ذلك الشتاء حفظ غولساري صوت تانباي وإلى آخر حياته.

ذات يوم، أخذ الثلج يتساقط بكثافة في الجبال، حتى تلبد فوق

أعـراف الخيـول وذيولهـا ، وأصـبح ملتصـقاً بهـا حتـى أثقلـها ، وغطـى عيونهـا ، فأخـذ قطيـع الخيـل يضـج ويصـخب ، فالأحصـنة التصـقت ببعضها وهي ترتجف، أما الإناث الكبيرات بالعمر، فأخذن يصهلن بأصوات مختلفة، ويشخرن بقلق، وهن يطردن المواليد الصغيرة إلى وسط الخيول، والثلج يتطاير ويداعب أطرافها، إلا أن أحد الخيول، كان شريراً يعتدي على الخيول واحداً بعد الآخر، ويعض بعضها بشكل مؤلم ومؤذ، ويختفي أحياناً، ويعود مهدداً، وهو يمد رأسه إلى الأمام، بأذنين منتصبتين، ويبتعد في الظلام، ولم يعد يُسمع إلا صوته وشخيره القوي.

ومن جديد يعود إلى الخيول غاضباً، وشاهد أن غولساري يقف جانباً ووحيداً، فهجم عليه بسرعة قصوى بصدره، وعندما اقترب منه، حاول غولساري أن يدافع عن نفسه بشجاعة، فاستدار الحصان الشرس، وضربه بكلتا رجليه الخلفيتين، فأصابه بضربة شبه قاضية على جنبه، فصهل المهر الشاب صهيل ألم مضن، حتى كاد غولساري أن يفقد أنفاسه، وأخذ يئن ويتلوى من الألم في داخله، وبالكاد بقي واقفاً، وبعد هذا لم يعد غولساري يبرز شجاعته أمام الخيول الأكبر منه، ووقف ذليلاً في طرف القطيع، وهو ما زال يئن من شدة الألم في جنبه، ويحتقن قهراً من هذا الحصان المتوحش.

بعد حين هدأت الخيول قليلاً، وهنا سمع صوت جواد غير معروف، وهو لم يسمع يوماً عواء الذئاب، ولاسيما في الليالي، وشعر أن كل شيء في جسمه قد جمد. انتفض الراعي، وتوترت أعصابه، ولكن هذا الهدوء كان قاتلاً، بينما تتابع الثلج بالسقوط وبكثافة على الخيول، ولاسيما على وبر غولساري الطويل، فأين الصاحب؟ إنه ضروري الآن في هذه الدقيقة لو سمع صوته وتنفس رائحة فروته

التي تفوح بدخان الموقد لسر جداً، ولكنه كان قد رحل. نظر غولساري، فشاهد من بعيد ثمة بصيص شعلة بعيدة، وجمد في مكانه من الخوف، ومن جانبه لاحظ شبح كائن ما، مر بسرعة عبر الثلج تحت الظلمة، فارتعد غولساري في مكانه، ثم قفز مبتعداً بحدة، وعلى الفور هبّ الراعي بسرعة مبتعداً عن مكانه، وانطلقت أصوات شخير وصهيل الخيول، التي جن جنونها، وخرجت عن طورها، وأخذت تعدو مسرعة تحت جناح الظلام، ولم تكن لدى الراعي، أو غيره أية قوة بإمكانها أن تستوقف الخيول الجامحة التي انطلقت بأقصى سرعتها بعيداً عن مكانها، وبكل ما لديها من قوة، وهي تحث بعضها على زيادة السرعة أكثر وأكثر، وبدت كصخور ملونة تدحرجت من أعالي الجبال. انطلق غولساري في هذا السباق الحامي المخيف في ظلمة الليل، وفجأة دوى صوت انفجار طلقة نارية، ثم تبعته طلقة أخرى. سمعت الخيول وهي تعدو صوت صاحبها الغاضب الذي انطلق من جانبها، وهو يصرخ مسرعاً على حصانه حتى يقطعها من نصفها الخلفي، ولكنه تبين أنه أصبح في المقدمة، وهنا أدركت الخيول قوة هذا الصوت الذي لم ينقطع، ثم انعطف أمامها، فهرعت الخيول تركض خلفه كما دربها، وشعرت أنها في أمان، بينما ينطلق هو أمامها بشجاعة وإقدام غير مبال بالمخاطر، ولم يخف أن يقع في أي أخدود أو شق أرضي، أو في هوة في الجبال، فأخذ يصرخ بنصف صوته، ثم بح كلياً، ولكنه لم يقطع صراخه! «تعالوا، تعالوا، تعالوا لووا» ركضت الخيول خلفه، خائفة من الرعب الذي دب فيها.

هكذا استمر قلق الراعي تانباي، حتى طلوع الفجر، حيث تمكن ساعتئذٍ من إعادة القطيع إلى إسطبله القديم، وما إن توقفت

الخيـول ﰲ مكانهـا، حتـى أخـذ البخـار يغطيهـا بضـباب كثيـف، وأخذت تستند إلى بعضها وهي ترتجف بعد هذا الخوف الذي حل بها، حتـى كانـت تلـتهم بعـض ذرات الـثلج عـن الأرض بشـفاهها السـاخنة كأنها كانت بحاجة إلى الماء، إذ أثر العدو الطويل والسريع عليها، حتـى تانبـاي أخـذ بيـده بعـض الـثلج وبلـل فمـه وشـفاهه الناشـفة. جلس القرفصـاء، وأخـذ يمضـغ بعـض الـثلج، ثـم شـعر كأنـه هـدأ كليـاً، وتجمد، وهو يضع راحتي يديه فوق وجهه، بينمـا كـان الـثلج يتسـاقط بكثافـة مـن الأعلـى ليبقـى لحظـات علـى ظهـور الخيـل السـاخنة، ثـم يـذوب، ويسـيل علـى جوانبهـا مـاءً معكـراً مـع شـيء مـن الصـفرة علـى شكل نقاط كبيرة إلى الأرض.

ﰲ بدايـة الربيـع، أخـذ الـثلج المتكـدس فـوق الهضـاب يـذوب تـدريجياً، وبعـد فـترة مـن الـزمن وسـطوع الشـمس الـتي بثـت الـدفء ﰲ الأرض بان اللون الأخضر للحشـائش والأعشـاب، بينمـا أخـذ غولسـاري يُبدل وبره الكثيف تدريجياً، وأخذ جلده يلمع بحيوية، واسـتبدل الـوبر بشـعر جديـد، كغـيره مـن الخيـول، وﰲ مثـل هـذا الشـتاء، ومـع قلـة الأعلاف، عانت الخيـول قلـيلاً مـن الجـوع، الإنسـان وحـده هـو المسـؤول عنها، وعليـه أن يتـذكر، ويحسـب الحسـابات للمسـتقبل، أمـا بالنسـبة للسـايس تانبـاي، فهـو يـذكر جيـداً تلـك السـنوات العجـاف والليـالي الباردة القارسة ﰲ ذلك الشـتاء البـارد، ويـذكر عـواء الـذئاب، وكيـف كـان يتجمد فوق سرج حصانه، ويعض على شفتيه حتى لا يبكـي وهـو يمد يديه ليأخذ بعض الدفء من موقد ضعيف، عـاجز عن بعث الـدفء ﰲ أطرافـه وجسـمه، ويـذكر جيـداً الجليـد الربيعـي، وكيـف كانـت الأرض صلبة من الجليد كـأنها قد صـبت مـن رصـاص، ويـذكر جيـداً كيف نفقت الخيول الضعيفة ﰲ القطيع، وكيف عاد مع ما تبقـى منـه

من الجبال، وقدم تانباي تقريراً إلى رئيس الكولخوز من دون أن يرفع نظره عالياً أو ينظر إليه بعينيه، وقدم إحصائية عن القطيع، وكيف كان له أن ينتقد رئيس الكولخوز بكل جرأة حتى وصل به الأمر لأن يرفع صوته لدرجة الصراخ، وضرب بقبضته على طاولة المدير قائلاً، إن تلك المصائب قد حدثت بسبب ندرة الأعلاف، وعدم وجود الإسطبلات المجهزة لحماية الخيول والمواشي. عليك أن لا تنظر لي هكذا! فأنا لست فاشياً وعدواً لك! فأين الإسطبلات للخيول حتى تتقي شر البرد والثلوج، وأين العلف اللازم، وأين العليق، وأين الملح؟ فنحن نعيش بالهواء وحده! وهل هذه الإدارة هي إدارة صحيحة لهذه الأرواح الموضوعة بين أيدينا؟ انظر في أي ثياب رثة نسير! انظر إلى الخيام، التي نعيش فيها، انظر إلى حياتي الخاصة، وكيف أعيش! لا نشبع لقمة الطعام. لقد كانت أمورنا في الجبهة أفضل بمئة مرة، وأنت تنظر نحوي كأنني أنا وعن قصد قمت بقتل هذه الخيول!

أتذكر ذلك الصمت القاتل للمدير، كما أتذكر وجهه، الذي شحب بصورة كبيرة. وأتذكر كم سيطر الخجل عليه، بعد أن لفظ تلك الكلمات، وكيف أخذ يعتذر.

أرجوك، أرجوك، أن تسامحني، لقد أخطأت في كلامي، إذ كانت الكلمات تخرج منه مع الاعتذار بحسرة شديدة.

- أنت سامحني، على صراحتي - قال له تشورا.

ولقد عانى من الخجل أكثر عندما نادى المدير المسؤول عن التموين، وقال له:

- أعطه خمسة كيلوغرامات من الطحين.

- وكيف الأمر بالنسبة للأطفال في الحضانة؟ فأين التموين لهم؟

- عن أية حضانة تتكلم؟ إنك دائماً تخلط الأمور! قلت لك

أعطيه - قال تشورا بحدة - وأراد تانباي أن يرفض نهائياً، فقريباً ستلد الخيول، وسيكون الحليب، وسنعمل الكوميس(*)، ولكن عندما نظر إلى المدير، وتفهم حالته، التزم تانباي الصمت ووافق على ما قال تشورا، وفيما بعد أخذ يحضّر من هذا الطحين شوربة الشعيرية، وفي كل مرة كان يكتوي بنار الذكرى، ويرمي الملعقة من يده بعيداً، وهو يخاطب زوجته قائلاً لها:

- ماذا حل بكِ، أتريدين أن تسلقيني؟ فتجيبه زوجته بهدوء:

- كل على مهلك، وبرد الطعام قبل أن تضعه في فمك، أصغير أنت؟ يا لتلك الأيام، فهو يتذكر، ويتذكر كل شيء...

لقد حل شهر أيار، وسقط الوبر كله عن الخيول، وخاصة عندما كانت الأحصنة تعض بعضها، وهي تطارد الأمهار الصغار، وكان الرعاة يطردون الأحصنة الشرسة حتى لا تسيء إلى الأمهار، ومن العبث كان الرعاة يحاولون طرد الأحصنة الجامحة، وكان ذلك يؤدي إلى خصام الرعاة مع بعضهم، حتى تصل الأمور إلى التشابك بالأيدي، والضرب أحياناً بالحجارة، ولكن كل هذه الأمور لم تكن تخص غولساري.

كانت الشمس تشع بين الحين والآخر بين فترات سقوط الأمطار المتقطعة، بينما كانت الأعشاب تنمو وتتزايد طولاً وبهاءً حول قوائم الخيل، أما الهضاب فقد كانت خضراء مزدهرة، ومن فوق الجبال، كانت تلمع الثلوج بيضاء ناصعة على ذرى السلاسل الجبلية.

في هذه الأيام حلت مرحلة جميلة من حياة الرهوان الأشقر الفتي، وكانت هذه الأشهر بمثابة فترة التحول في كيانه، حيث

(*) الكوميس: هو حليب الخيل الرائب، وهو مستخدم في جمهوريات آسيا الوسطى حتى الوقت الحاضر. - (المترجم).

انقلب على وضعه كمهر أشقر وأبتر وقصير الظهر إلى حصان شاب رشيق القوام، قوي البنية، وليس له مثيل، حتى اعتلت قامته، وبرز جسمه أعلى من قامات الأمهار الأخرى التي من عمره، وتجاوز تلك النعومة في ملامحه العامة، وأخذ صدره شكل المثلث الواسع، وكان عجزه معتدلاً، وتمتاز به الخيول الرهوانية، وتحول رأسه إلى شكل رأس الحصان الرهوان الأصيل. كان رأسه صغيراً نسبياً، أفطس الأنف، عيناه واسعتان متباعدتان تحت حاجبين متناسقين فوق جبهة عريضة، وشفتان مرنتان، ولكن كل هذه الأمور لم تكن تهمة نهائياً، والرغبة الوحيدة التي كانت تبدو عليه حتى الوقت الحاضر، كلفت صاحبه متاعب كثيرة، ولاسيما الرغبة في الركض وهو يجر خلفه الأمهار من جيله، وكان يركض في مقدمتها كشهب أصفر في الجبال، وهو ينحدر نازلاً عبر الشاطئ الحجري، وفي الطرق الملتوية وفي الغابات والوهاد، ولقد كان ينطلق بسرعة فائقة، ومن دون كلل أو ملل، معتمداً على قوة ذاتية خارقة في داخله، وحتى في الليل الداكن عندما كان ينام تحت النجوم، كان يحلم كيف كانت الأرض تركض من تحته، وكيف كان النسيم يصفر في عرفه وأذنيه، وكيف كانت حوافره تطرق الأرض كأنها ترن بضربات إيقاعية جميلة.

لقد كان غولساري يتعامل مع صاحبه كما كان يتعامل مع المحيط من حوله، والذي لا يخصه مباشرة، ولا يمكن القول إنه كان يكن له حباً خاصاً، ولم يشعر بأية علاقة خاصة معه، ولاسيما لأن الآخر لم يحسن له الحياة نهائياً، وهل كان موقفه الخشن منه عندما لحق بالخيول، التي ابتعدت جداً عن مرعاها، صحيحاً، فكان المالك، وفي بعض الأحيان يتحين الفرصة ويضرب المهر الأشقر

بالأكروك(*) ضربة شديدة مفاجأة، وفي كل مرة ينتفض غولساري بكل جسمه وأطرافه، ولاسيما من وقع المفاجأة عليه أكثر من ألم الضربة، ويزيد في كل مرة من سرعته عن سابقتها، وكلما أسرع العدو قصّر من مدة العودة إلى القطيع، ومع كل دوره، كان يزداد إعجاب صاحبه به، وهو يعدو خلفه ممسكاً بالأكروك بدقة. كان يستمع الرهوان إلى الأصوات الطيبة التي تنطلق خلفه، وكان يصغي للراعي كيف يطرب ويأخذ بالغناء، وهو يعدو خلفه، وفي هذه اللحظات كان يحب صاحبه العدو مع الغناء، وقد تعود فيما بعد على هذه الأغاني المتنوعة: الحزينة أو المفرحة، الطويلة أو القصيرة، مع كلمات أو مجرد ميلوديا، وكان يحب عندما يضع الراعي الملح للخيول، إذ كان يضع العلف في المعلف الخشبي الطويل، ثم يضع فوقه بعض الملح، وتهرع كل الخيول مسرعة لتناول نصيبها بشغف وشهية لا محدودة، وهكذا كان الملح سبباً في تحديد مستقبله، فذات مرة، أخذ الراعي يضرب على سطل فارغ كأنه يضرب على طبل، وأخذ يستدعي الخيول: «يو. يو. يو!» فهرعت الخيول من كل صوب، وأحاطت بالمعلف الخشبي، أما غولساري، فقد أخذ يلحس الملح، وهو يقف بين الخيول، ولم يكن قلقاً نهائياً، وعندما قام الراعي مع مساعديه بالاعتناء بالقطيع، وهم يمسكون الأكروك بأيديهم، شعر غولساري أن هذا الأمر لا يهمه، ولقد قاموا بالقبض على خيول الركوب، والأمهات المرضعات، اللواتي يعطين الحليب للكوميس وغيرهن بعد أن اجتازت رأسه، لم يفهم غولساري ما في الأمر، وحتى الوقت الحالي لم تُخف الأنشوطة غولساري، وتابع لحس

(*) الأكروك - عصا، يوضع في رأسها حبل معقود على شكل أنشوطة، وذلك للإمساك بالخيول الصغيرة التي يجب تدريبها. - (المترجم).

الملح عن حواف المعلف، أما الخيول الأخرى فقد كانت تغضب، وتقف على رجليها الخلفيتين عندما يقذفون بالأنشوطة نحوها، أما غولساري فلم يأبه لهذا الأمر، وها هو يرغب بالعدو نحو النهر كي يشرب من ضفته. أخذ يبتعد قليلاً عن القطيع، وهنا أطبقت الأنشوطة على عنقه وأوقفته، ولم يحدث هذا في حياته من قبل، فأخذ يعاند ويشخر وهو يقلب بنظره يمنة ويسرة، ثم وقف على رجليه رافضاً، وهنا هربت الخيول المحيطة به، وبقي غولساري وحده رافضاً إرادة الإنسان، بأن يمسكوا به من عرفه كثيف الشعر، أما الراعي، فكان يقف في المقدمة، وخلفه كان يقف مساعد الراعي الآخر، وهنا أخذ أولاد الرعاة بالعدو حول القطيع بعد أن قدموا إلى هنا منذ فترة وجيزة، وقد ضجر تانباي من تصرفاتهم لكثرة شغبهم.

أصاب الرهوان شيء من الرعب، فوقف على قائمتيه الخلفيتين، وأعاد ذلك مرات عدة، وكرر هذا كما طاب له، بينما كانت الشمس تلمع في عينيه وهي تشع بدوائر ضوئية حارة مع كل دوره وحركة مرنة من رقبته، وتموجت الجبال والأرض والناس، بأشكال غريبة وعجيبة، أما عيناه فقد جمدتا في سوادهما رافضة الفراغ الذي كان يطحنه بقائمتيه الأماميتين طحناً.

حاول غولساري الهروب من الأنشوطة، ولكنها كانت قد أحكمت الخناق عليه، وعندما شعر بأن أنفاسه تضيق قذف الرهوان بنفسه ليس بعيداً عن الناس، بل نحوهم، فهرب الناس منه، وحلت الأنشوطة قليلاً عن عنقه للحظة، ثم جرهم جميعاً من الزريبة إلى الأرض، فأخذت النسوة تصرخ، وأخذن أطفالهن إلى اليورتات، ولكن الرعاة جمعوا قواهم وشدوا الحبل ثانية على رقبة الرهوان غولساري بإحكام حتى كان من الصعب عليه التنفس، فتوقف، إذ أصابه

دوران من قلة الهواء، وأوثق الوهق في يديه، وأخذ الراعي يتقدم تدريجياً من جانبه، فشاهده غولساري بطرف عينه، فتقدم صاحبه منه بثياب ممزقة مع الكدمات على وجهه، ولكن الراعي كان ينظر إليه بعين الود والمحبة، إذ كان يتنفس بصعوبة، وهو يبصق الدم من شفتيه المجروحتين، وكان يقول له هامساً، بالكاد يسمع صوته: تعال، تعال يا غولساري لا تخف، توقف، اهدأ، توقف!

تقدم المساعد خلف زميله، ومن دون أن يرخي الحبل، وأخيراً وضع الراعي يده على الرهوان للمرة الأولى، وأخذ يمسح على رأسه، ومن دون أن يلتفت كلياً إلى مساعده، قال له:

- أعطني اللجام بسرعة، أدخله بين فكيه.

أخذ صاحب المهر يخاطب غولساري: قف يا شاطر، لن نفعل شيئاً سيئاً معك، وفي هذه اللحظة، قذف وبحركة سريعة بالمقود فوق رأسه، وهنا قد حان الوقت لوضع اللجام كما يجب في فمه، ثم وضع السرج عليه، وعندما قام تانباي بقذف المقود فوق رأسه، شخر غولساري بقوة محاولاً الهروب بعيداً، ولكن صاحبه أسرع وأمسكه من شفته العليا.

- أعطني الزيار(*) بسرعة - صرخ الراعي مخاطباً مساعده، فهرع الآخر وحمل له اللفافة، ووضعها فوق شفة المهر، وأخذ يلفها عليها بقوة. هدأ الرهوان من شدة الألم، وجلس على رجليه الخلفيتين، ولم يعد يقاوم نهائياً، ثم تم إدخال اللجام إلى فمه كما يجب، وأخذ

(*) الزيار - عبارة عن دفتين تعملان على مبدأ الكماشة على شفتي الحصان باعتبارهما مجمع أعصاب فعّال على كل جسم الحصان، حتى يقوم الحداد بحدو الحصان أو خصيه، ويستخدمها البيطار، أو المدرب المروض للخيول، حتى تهدأ شاعرة بالخضوع. - (المترجم).

حديد اللجام يقرقع فوق أسنانه، ويشد طريقه بوزه من جنب إلى جنب من دون مقاومة، ثم وضعوا على ظهره رداءً عتيقاً، وتم شد الحزام على دفعات، حتى يأخذ مكانه على صدره السفلي، وهكذا أخذ يتلوى، ولكن كل هذا لم يكن على درجة من الأهمية، وفقط الألم المعذب، الذي لا يطاق، كان يزداد فوق شفته، وعيناه كادت تخرجان من حجريهما من شدة الألم، ولم يعد بإمكانه أن يتحرك أو يتنفس، وحتى لم يلاحظ كيف، ومتى جلس صاحبه فوق السرج، وعاد لوعيه فقط بعد أن حلوا الملف عن شفته.

وقف هادئاً لدقيقة أخرى، ولم يكن يدرك شيئاً، فهو لم يتفهم وضعه، فكله محزوم وملجوم ومركوب، ثم نظر شرراً عبر كتفه، فشاهد إنساناً يجلس على ظهره، وهنا أخذه الرعب من هذا المشهد، مما جعله ينطلق بالعدو، ولكن اللجام كاد يمزق فمه، أما كعبي رجلي الفارس، فقد كانا يكيلان له اللكمة تلو الأخرى على جانبي صدره. فوقف الرهوان على رجليه وهو يصهل بقوة غاضباً من هذا الوضع، وأخذ يعدو في أية جهة تنظر إليها عيناه، وهو يرفس بكلتا رجليه متوتراً وهائجاً بصورة مخيفة، والرغبة عنده كانت تزداد اشتعالاً بأن يقذف بهذا الشبح الذي على ظهره، فأخذ يتلوى في كل الاتجاهات، ويقف على قائمتيه الخلفيتين، حتى يتحرر من هذا الحمل فوق كاهله، ولكن الحبل، الذي كان يمسكه مساعد الراعي، لم يسمح له أن يبتعد كثيراً، وعند ذلك أخذ يركض على شكل دائرة حسب طول الحبل، وكان يركض ويركض وينتظر أن تنتهي هذه الدائرة عند نقطة ما، وساعتئذ سيغرب عن الأنظار كلياً من هذا الجحيم الذي حل به وإلى أية جهة كانت، وبقي يركض ويركض بصورة دائرية، وهذا ما كان يثير إعجاب الناس، فكان صاحبه

يضربه بالسوط وبالقضيب، وبكعبي جزمته على جانبيه، وتمكن الرهوان من أن يُسقط صاحبه، ولكن الراعي المجرب كان ينهض، ويقفز من جديد إلى سرجه.

هكذا استمر الأمر على هذه الحال طويلاً. كان رأس الحصان يصاب بالدوران والأرض تدور من حوله، ودارت اليورتات، والخيول التي ترعى بعيداً، والجبال المرتفعة من حولهم، كما أخذت تدور الغيوم في السماء، وفي نهاية الأمر تعب الرهوان وأخذ يسير الهوينا، وبعد هذا العذاب أخذ يشعر بحاجة لشرب الماء، ولكن هذا لا يجوز، ولا يمكن فسح المجال له بالشرب، إلا بعد وقت من الركض والإعياء. عند المساء أبقى تانباي السرج فوق المهر، حتى يتعود عليه من جهة، وحتى لا يبرد بعد العرق، الذي تصبب منه، ولكنه حل له الحزام قليلاً تحت بطنه، وربطه إلى معلف في إسطبل الخيل الكبيرة في العمر حتى يتعود على الهدوء، أما بالنسبة للجام فقد كان مثبتاً بصورة جيدة على قربوس السرج، وهذا حتى يتعود الحصان على رفع رأسه عالياً.

أما الاستلقاء على الأرض، فكان أمراً صعباً بالنسبة إليه، إذ رفع الركب قليلاً للقائمتين الأماميتين، وثبتهما على قربوس السرج أيضاً، وهكذا أمضى ليلته واقفاً مستعداً، منزعجاً مما حصل له البارحة، أما اللجام فقد بقي في فمه، وكان يزعجه كثيراً، فأية حركة غير نظامية كانت تؤلم فكيه وأسنانه وطرفي بوزه، زد على ذلك كان يزعجه طعم الحديد أيضاً، وبدا على طرفي بوزه، أنه قد تورم قليلاً، أما موضع شد الحزام فقد ألمه جداً، وقد بدا أنه قد حز مكانه في الجلد، وتحت السرج كان يؤلمه ظهره المضغوط بقوة، وأكثر ما كان يعاني منه، هو العطش لدرجة الظمأ، ولاسيما أنه

كان يسمع خرير الماء في النهر القريب الذي كان يشرب منه، ولهذا كانت تزداد رغبته بشرب الماء. زد على ذلك أنه كان يرى بحكم رأسه المرفوع إجبارياً، الخيول وهي تسرح خلف النهر، وترانت إلى أسماعه أصوات وقع عشرات، بل مئات الحوافر للخيول، وكان يعرف صهيل كل واحد، أو واحدة من الأمهار والأفراس، وكذلك صراخ حراس الليل من الرعاة، أما الناس الذين شهدوا عملية ترويض الرهوان، فقد جلسوا حول شعلة الحطب بالقرب من اليورتا يستريحون، أما الأولاد فقد أخذوا يطردون الكلاب، محاولين النباح على طريقتها، أما الرهوان، فقد كان يقف مستغرباً أنه لم يقترب منه أحد الأمهار.

من خلف الجبال ظهر القمر، مما جعل الطبيعة تفقد ظلمتها الداكنة تدريجياً، وبدت الجبال واضحة المعالم تحت ضوء القمر الأصفر، وتلمع النجوم في الأعالي بتألق رائع، وهي تقترب نحو الأرض ببهاء. وقف الرهوان مثبتاً إلى مكان واحد، وثمة أمهار تبحث عنه، أما هو فكان يسمع أصوات صهيل صديقاته من الأفراس، التي يعرفها جيداً، وتربى معها، وخاصة تلك المهرة الشقراء ذات النجمة البيضاء في مقدمة جبهتها التي كانت تركض معه دائماً وهي الآن في وضع ممتاز وفي عز صباها، وأخذت الأحصنة تعيرها اهتماماً خاصاً وتركض خلفها ولكنها كانت أسرع منهم جميعاً، وتهرب بعيداً مع الرهوان، فهي لم تكتمل بنيتها بعد، ولكنها أوشكت مع الرهوان أن يبلغا مرحلة النضوج، وها هي الآن تظهر على الساحة، وتصهل بصوتها المعروف لديه، وتناديه من مكان قريب جداً، وانتظرت قليلاً عله يرد عليها، ولكنه كان عاجزاً عن ذلك، وخاف أن يفتح بوزه المتورم من ألم الزيار واللجام، وهذا ما ألمه الآن أكثر، وأخيراً اقتربت

من المكان، فوجدته في وضع يرثى له، وأخذت تعدو ذهاباً وإياباً برشاقة، وهي تتباهي تحت ضوء القمر بنجمتها البيضاء فوق جبهتها العالية، أما قوائمها وذيلها فقد كانت مبللة بالماء، إذ قطعت النهر قبل قليل، وهي تحمل رائحة رطوبة الماء معها، فاقتربت منه، وأخذت تشم وجهه حسب عادتها، وهي تلامسه بشفاهها الدافئة الممتلئة كشابة في ريعان شبابها كأنها تقبله، وأخذت تهمس على طريقتها كأنها تطلب منه أن يسير خلفها إلى مرابع الحياة الشابة، أما هو فكان مشدوداً برباطه في مكانه، ولم يتحرك ولو قليلاً كي يبتعد عن المكان الموجود فيه، ثم وضعت رأسها على رقبته، وأخذت تفرك أطراف عرفه بأسنانها، وكان عليه حسب عادة الخيول، أن يضع رأسه على رقبتها، وأن يحك لها حول أذنيها، كما كانت تحب، ولكنه لم يتمكن من أن يبادلها الحنان والحب، لأنه كان في وضع لا يسمح له بالتحرك، فشم رائحة الماء على قوائمها، فازدادت رغبته بشرب الماء، أكثر من أي رغبة أخرى، وهنا وفي هذا الوضع السيئ لصديقها الرهوان، كان على المهرة الشقراء أن تختفي كما جاءت، وتغيب في الضباب الكثيف بعيداً عن أبصاره على ضفاف النهر، وهنا تدحرجت الدموع على جنبات وجهه كحبات رمان بيضاء وسقطت عند حافريه الأماميتين بهدوء، وهكذا بكى الرهوان أول مرة في حياته، ولكنها ليست الأخيرة.

في الصباح الباكر أتى الراعي ونظر من حوله إلى الجبال التي أخذ الربيع يغطيها شيئاً فشيئاً. تمطى تانباي قليلاً، ثم ابتسم وتأوه من الآلام في عظامه، وقال مخاطباً حصانه الشاب:

- آه منك يا غولساري! لقد عذبتني البارحة. هل بردت في الليل؟ كيف أنت الآن؟ انظر كيف تغير حالك بين عشية وضحاها.

ربت السايس على رقبة الرهوان، وأخذ يقول له كلاماً لطيفاً وطيباً ومضحكاً، ومن أين لغولساري أن يعرف عما يتحدث الرجل؟ أما تانباي فقد قال:

- عليك ألا تغضب مني أيها الصديق. لا يمكن لك أن تبقى من دون عمل إلى الأبد، سوف تتعود على هذا، وساعتئذٍ سيكون كل شيء على ما يرام، أما بخصوص عذاب البداية، فكان شيئاً لا بد منه، فالحياة أيها الأخ، لها غرابتها، وفيها الحلو والمر، وتضرب أحياناً بأطرافها الأربعة، ولكنك فيما بعد لن تخضع لأحد أو تركع على ركبتيك عند كل عقبة على طريقك، والآن طبعاً قد جعت، أليس كذلك؟ وتريد أن تشرب؟ أعرف هذا جيداً...

أخذ تانباي الرهوان إلى النهر، وسحب بهدوء اللجام من فمه بحذر، وهنا هجم غولساري وهو يرتجف على الماء، وبرقت عيناه من لذة الماء البارد، إذ لم يشرب في حياته ألذ من هذه المياه، وكم كان شاكراً لصاحبه لقاء هذا!

هكذا، وبالتدريج تعود المهر على السرج الذي لم يضايقه مطلقاً وألفه بسرعة، وكان يشعر بالطمأنينة عندما كان يعتلي تانباي صهوته، وخاصة أنه خيال متمرس، إذ كان يردعه عند السير بسرعة في الأماكن الوعرة، أما هو فكان يندفع إلى الأمام غير مبال، وهو يطبع على الطرقات ختم حوافر مهر رهوان متميز لمشية فريدة من نوعها، كرهوان أصيل، تعود على السير وفوقه السرج والخيال، جامحاً بكل دقة وانتباه، وهو يسير بسلاسة ممتعة كالنسيم، وكان كل من شاهده خلال سيره، ينظر إليه بإعجاب، إذ قال أحد ساسة الخيل:

- يا له من مهر رائع، سيره سلس حتى لو وضعت فوقه سطلاً مملوء بالماء، لن يميل قيد أنملة، ولا تضيع منه أية قطرة.

أما الراعي السابق الكهل تورغوي، فقال ذات يوم لتانباي:

- لقد أحسنت أيها المروض، أنك قد دربت الرهوان على الركوب جيداً، والآن سترى كيف ستسطع نجمة حصانك الرائع عالياً.

3

قرقعت العجلات القديمة بهدوء عبر الطريق الصحراوي، ومن وقت لآخر كان يتوقف الصرير للحظة ما، إذ يتوقف الرهوان عندما ينهك كلياً، وعند ذلك وفي الصمت القاتل، أخذ تانباي يصغي وبانتباه إلى دقات قلب حصانه المتسارعة: توم - توب، توم - توب، توم - توب...

كان الكهل تانباي ينتظر حتى يلتقط الحصان أنفاسه، ثم يعود ويمسك بمقوده ويأمره بالسير بلطف:

- لنذهب يا غولساري، لنمضي، لقد أخذ المساء يقترب وستحل الظلمة، وهكذا استمر مسيرهما البطيء ساعة ونصف الساعة تقريباً، حتى توقف الرهوان كلياً، فلم يعد قادراً على جر العربة، وهنا ارتبك تانباي ثانية وهو يدور حول حصانه:

- ماذا حل بك يا غولساري؟ انظر قريباً ستحل الظلمة، ونغوص في الليل القاتم!

ولكن الحصان لم يفهم ما يقوله صاحبه القديم. كان يقف في عدته، ويلوح برأسه رافضاً ذلك الثقل، الذي لم يعد بإمكانه أن يتحمله، وأصبح أكبر من طاقته بكثير، وكان يترنح في مكان وهو

ينقل قوائمه من جهة لأخرى، وفي أذنيه تعاقبت دقات قلبه المتسارعة: توم - توب، توم - توب، توم- توب، فأخذ تانباي يعتذر من حصانه:

- عسى أن تسامحني يا صديقي غولساري، لم أكن أتوقع أنك في هذا الضعف، ولو عرفت ذلك، لما وافقت على اصطحابك معي الآن، وكان عليّ أن أنتظر قليلاً حتى تتعافى هناك، في تلك الإدارة البائسة، فلتذهب هذه العربة إلى الشيطان، وهذه العدة، والمهم عندي أن أوصلك إلى البيت سليماً.

قذف تانباي فروته على الأرض، وأخذ يحرر الحصان من كل ثقل العدة، وخلع الكدانة عن رقبته، ووضع كل هذه الأغراض فوق العربة، وعندما لم يبق أي شيء يشكل ثقلاً بالنسبة للحصان الكهل، قال له تانباي وهو يرتدي فروته وينظر إليه وقد تحرر من عربته وعدته التي أوصلته إلى هذا الحال السيئ، وهو يقف في وسط السهول الباردة ليلاً وبدا وكأنه شبح عظمي أسطوري.

- آه، يا إلهي، كيف غيرك الزمان كلياً يا غولساري؟!

- همس تانباي بمرارة - ولو رآك الآن تورغوي لرفض الحياة وفضل الموت...

أخذ تانباي الرهوان من مقوده، وسار الصديقان في الطريق ببطء وحيدين لا ثالث لهما: الحصان العجوز والإنسان الكهل، وخلفهما بقيت العربة، وكل عدة الحصان، وإلى الأمام، ونحو الغرب احتدمت ظلمة حالكة، وانساب الليل ناشراً ظلمته فوق الوهاد والجبال، وزال الشفق الأحمر في الأفق.

سار تانباي، وهو يتذكر كل ما كان يربط بينه وبين غولساري كل هذه السنين الماضية من عمره، وفكر بابتسامة مرة حنظلية عن الناس: هكذا نحن جميعاً نتذكر بعضنا عند نهاية الحياة، وعندما

يمرض الإنسان مرضاً لا شفاء منه، أو بعد الموت، يصبح واضحاً لنا نحن الأصدقاء أننا قد فقدنا إنساناً غالياً، ونتذكر ميزات الفقيد، وما هي الأعمال التي حققها في حياته، أما الآن، فماذا سنقول عن الحيوانات غير الناطقة؟! وأتساءل مع نفسي: من بقي من البشر في المنطقة، لم يحمله غولساري على ظهره، أو يجره فوق عربته! وكم من البشر سعدوا بالركوب عليه! كان يجتهد ويضني نفسه حتى يرتاح الخيال، أما الآن فقد نسي الجميع كل ما يتعلق به، وها هو يسير وبالكاد ينقل قوائمه بعد أن كان حصاناً رهواناً رائعاً!...

تذكر تانباي من جديد، واستغرب كيف أنه لم يعد قبل الآن بذاكرته إلى الماضي، وكل ما كان فيه من حلو ومر، وها هو الآن يشهد صحوة نادرة لكل ما عاشه في الماضي، وتبين أنه لم يذهب كل شيء سداً: سابقاً كان يفكر قليلاً بالماضي، أو بالأحرى لم يسمح لنفسه أن يعود إلى الماضي ويغوص في ذكراه، أما الآن وبعد الحديث مع ابنه وكنته، وهو يسير جنباً إلى جنب في هذه الليلة المظلمة مع حصانه الكهل الذي أشرف على لفظ أنفاسه الأخيرة، التفت بكل الألم والحزن إلى السنوات الماضية، التي عاشها في حياته، فانبعثت حية بكل أبعادها الثلاثة أمام ناظره.

هكذا سار تانباي مثقلاً بأفكاره الكثيرة، أما الرهوان فقد كان يمشي متثاقلاً يجر أطرافه الهوينا، وكلما طال الطريق كان يتثاقل أكثر، حتى كان على صاحبه أن يشد المقود ليساعده في المسير، وعندما تعبت يد الكهل من الجر، وضع حبل المقود على كتفه الآخر، وأخذ يجر الحصان خلفه، ثم تعب حتى الإنهاك، فأعطاه فرصة أن يرتاح قليلاً، وخلال الاستراحة القصيرة قرر أن يخلع اللجام عن رأس الحصان، ثم قال له:

- سر أمامي، امشي كما تريد، وأنا سأسير خلفك، ولن أتركك أبداً، فسر بهدوء.

أخذ الرهوان يسير في المقدمة، أما تانباي فسار خلفه واضعاً اللجام على كتفه، إذ كان قد لازمه فترة طويلة من حياته، وعندما توقف غولساري، انتظر تانباي، حتى يستجمع الحصان ما تبقى لديه من قوة، ثم تابعا طريقهما معاً، الحصان العجوز والإنسان الكهل.

ابتسم تانباي بكآبة، متذكراً كيف كان غولساري أيام زمان ينهب الأرض نهباً كالسهم، عبر هذا الطريق نفسه، حتى إن الغبار كان يشكل خلفه زوبعة كثيفة، كان الرعاة يتحدثون فيما بينهم، وهم يرون الغبار من بعيد، فيعرفون أن ذلك الحصان هو الرهوان، ويبدو كأنه الدخان الذي تنفثه الطائرات النفاثة في السماء، وكان يقف الراعي في مثل هذه اللحظات وهو يحجب الضوء عن عينيه بكف يده، ويقول في نفسه: «هذا هو غولساري، لا غيره، الذي يعدو هناك!»، ويفكر حاسداً ذلك الإنسان السعيد الذي يركب الرهوان ويخترق المسافات، والهواء الساخن يلفح وجهه بشدة، ويعتبر هذا شرفاً كبيراً للقرغيزي عندما يكون خيالاً ماهراً ويطير فوق صهوة حصان مشهور كصهوة الرهوان الرائع، وكم من مدير جاء إلى الكولخوز، وعاش في مرحلة وجود غولساري، واختاره كأحسن حصان، وأتى غيره، وتبدل، وشهد الرهوان وجوهاً مختلفة خلال عمره، وعرف المتكبرين والعقلاء والمجانين والصادقين والكاذبين وذوي الضمير وفاقديه، وجميعهم كانوا يركبون أثناء مدة إدارتهم على الرهوان وحده ولم يبدلوه يوماً، «أين هم الآن؟ وهل يتذكرون غولساري الذي حملهم منذ الساعات المبكرة وحتى المساء؟» - غاص تانباي بعيداً بتفكيره.

وصلا أخيراً إلى الجسر فوق المسيل، وهنا توقفا ثانية.

أخذت قوائم الرهوان تترنح من تحته، وتطوي عند الركب أحياناً أخرى، حتى يكاد يسقط على الأرض، ولكن تانباي لم يسمح له بهذا. بعد هذا لن يجد أية قوة ترفعه عن الأرض وتوقفه من جديد.

- انهض. انهض. صرخ تانباي، وضرب الحصان باللجام الذي كان في يده على رأسه، وندم جداً، لأنه ضربه بلا إرادة، وتابع يصرخ من دون توقف: - ما بك، ألا تفهم؟ هل قررت أن تنفق هنا؟ كلا، لن أسمح بهذا! قف، قف، قف! - وشد الحصان من عرفه للأعلى.

استعاد غولساري بصعوبة بالغة القدرة، في أن يستمر واقفاً على قوائمه، وتنهد بمرارة، وبغض النظر عن الظلمة السائدة في كل مكان، لم يتجرأ تانباي أن ينظر إلى عيني حصانه، فأخذ يمسح على رأسه، وضغط بأصابعه على عرفه، ثم وضع أذنه على جانبه الأيسر، وهناك في صدر الحصان كان قلبه يدق باختناقات متقطعة، ويخفق باضطراب غير مفهوم، كما يتعثر دولاب الطاحونة في النباتات المائية. وقف تانباي والألم والحزن قد أحنيا ظهره، وقف طويلاً، حتى لم يعد يطيق الألم في ظهره، ثم انحنى قليلاً، ولوح رأسه يمنة ويسرة، تنهد بحسرة وقرر أن يخاطر مرة أخرى في حياته - فانحرف به عن الطريق العام، إلى طريق فرعي ضيق، بالكاد يلاحظه الإنسان في الظلام، وكان عليه أن يسير إلى جانب السيل، وهذا الطريق الوعر كان يؤدي إلى الجبال، وكان من الممكن من خلاله أن يختصر الطريق إلى البيت، ولكن هذا كان صعباً في ضوء النهار، فكيف له أن يخاطر في مثل هذه الظلمة، ولكن تانباي كان واثقاً من نفسه، فهو يعرف هذه الأماكن منذ أمد بعيد، ولكن الشيء الوحيد الذي يقلقه هو أن لا يتحمل الحصان صعوبة الطريق.

أخذ الكهل يفكر، ماذا عليه أن يفعل. جاء شعاع سيارة متجهة نحوه واقتربت منه وهي تستطلع الطريق جيداً بأشعة مصابيحها القوية، أما تانباي والرهوان فقد وقفا عند الجسر، والسيارة لم تتمكن من مساعدتهما في شيء، وعلى الرغم من ذلك، لقد انتظر تانباي وصول أي سيارة بلا هدف، وأخيراً ها هي إحدى السيارات تلبي رغبته، إذ وصلت وتوقفت إلى جانبه، فأخذ تانباي يفكر، أنه من الرائع مشاهدة البشر في هذه الساعة المتأخرة من الليل، وفي هذه الأماكن البعيدة بالذات، فأنار مصباح السيارة بقوة على مساحة واسعة، وانعكس على الوجهة المقابلة للمسيل، حتى أبهر النور عينيه، فحجبهما بكفه.

في غرفة قيادة السيارة، كان يجلس السائق ورجل آخر إلى جانبه، فنظر باستغراب إلى الرجل الكهل الواقف إلى جانب الجسر، ثم نظر إلى شبح الحصان الواهن بلا سرج ولا لجام، حتى بدا كأنه لا يشبه الحصان، بل يشبه الكلب العجوز المحتمي بالإنسان، وفي لحظة ما، أضاء مصباح السيارة كل ملامح الكهل والحصان، حتى بديا كأنهما من مستحاثات كائنات المحيط القديمة، فقال الشاب الجالس إلى جانب السائق وهو يمد رأسه من نافذة غرفة قيادة السيارة، وكان يرتدي قبعة مع واقيتين للأذنين:

- يا للغرابة! ماذا يعملان هنا في هذه الظلمة؟!. بينما قال السائق لزميله، وتوقف:

- هذا هو كما يبدو صاحب العربة المتروكة على الطريق مع عدة الحصان. - فسأل السائق بصوت عالٍ، وهو يمد رأسه من النافذة: ماذا حل بك أيها الكهل؟ هذا أنت الذي تركت عربتك؟

- نعم، أنا - أجاب تانباي.

- لقد شاهدناها مرمية على جانب الطريق، ولا يوجد أحد حولها. أردنا أن نأخذها، ولكن وضعها قد انتهى، وهي غير صالحة لشيء.

التزم تانباي الصمت.

خرج السائق من السيارة، وسار عدة خطوات مقترباً من الكهل، ففاحت منه رائحة الفودكا، فابتعد قليلاً، ووقف يتبول على حافة الطريق، والتفت إلى تانباي وسأله:

- ماذا حصل معكما؟... فأجابه تانباي بكآبة:

- كما ترى، لقد هرم الحصان، ولم يعد يتحمل المسير، إذ خارت قواه، وأنا أصبحت كهلاً عاجزاً أيضاً...

هز الرجل رأسه متعظاً، وقال:

- مفهوم! هذه هي الحياة، وإلى أين تتجه الآن؟

- إلى البيت في ساري غوسك، هناك عند المضيق، فصفر السائق من بين أسنانه، وقال:

- إلى هناك! إلى تلك الجبال العالية؟ للأسف أن طريقنا ليس في ذلك الصوب، وإذا أردت، أجلس في القاطرة، وسأنقلك إلى السوفخوز، وهناك ستدبر أمرك بشكل ما، حتى تصل إلى بيتك غداً.

- شكراً، إنني مع الحصان، وليس بإمكاني تركه!

- هذه الجيفة تمنعك من السفر معنا؟ أتركه يا رجل إلى الكلاب، واقذف به إلى المنحدر، وينتهي الأمر، وستأكل منه الغربان، فإذا أردت فسنساعدك؟ فغضب تانباي وحزن، ثم قال:

- تابع طريقك أيها الرجل، واتركني وشأني!

- كما تريد، تصرف بما يقوله لك عقلك - قال السائق ساخراً، وصعد إلى سيارته، وأخذ مكانه خلف مقودها، ثم قال: - يا لهذا الكهل العنيد!

تحركت السيارة وهي تأخذ معها الضوء الذي استأنس به تانباي عند قدومه، وهناك كان الجسر معلقاً بين نقطتين فوق المسيل، فقد كان يصرك تحت عجلات السيارة، ومن فوقه بدا الضوء الأحمر الداكن لمصابيح التوقف الخلفية للسيارة، فقال له زميله الشاب ذو القبعة الذي كان يجلس إلى جانبه في غرفة قيادة السيارة:

- لماذا تسخر من هذا الإنسان، فتصور نفسك في مكانه؟ فأجابه السائق، وهو يتثاءب بكسل، ويحرك مقود السيارة حسب الحاجة:

- إنه شيء تافه لا معنى له... لقد رأيت في هذه الدنيا كثيراً، وقلت له كما يجب، وهل لهذه الجيفة قيمة ما! هذا من مخلفات الماضي، الآن يا أخي، التكنولوجيا هي كل شيء، وهي الأساس في كل الأمور، ففي الحرب لولا التكنولوجيا ماذا كنا فعلنا، أما هؤلاء الكهلة والخيول العاجزة فقد حلت نهايتهم.

- يا لك من وحش! - قال الشاب. فأجابه السائق على عجل:

- إن هذا لا يهمني على كل حال.

اختفت السيارة كلياً، وحلت ظلمة الليل من جديد، فأخذ تانباي يخاطب حصانه، طالباً منه متابعة السير:

- سر يا صديق العمر! سر كما تشاء يا رفيق حياتي!

وعند نهاية الجسر وجه تانباي الحصان إلى الطريق الفرعي، وأخذ يسير معه ببطء في هذا الطريق الضيق الذي كان بالكاد يراه الإنسان في الظلمة فوق المسيل، أما القمر فقد برز لتوه من خلف الجبال، ولم يبسط ضوءه بعد، وانتظرت النجوم دورها في الخروج إلى قبة السماء، وكانت تتراقص في الفضاء البارد.

4

في ذلك العام الذي تم فيه ترويض غولساري وجرى تعليمه على كل شيء، تأخر الرعاة في العودة من المراعي الخريفية، وامتد الخريف على غير العادة طويلاً، وكان الشتاء لطيفاً، إذ تساقطت الثلوج كثيراً، ولكنه لم يتراكم فوق الأرض مدة طويلة، ولهذا كان العلف كافياً للخيول والمواشي، وفي الربيع هبط الرعاة من جديد إلى المنحدرات القريبة من الجبال، وعندما أزهرت الحقول تحرك الرعاة مع قطعانهم إلى السهوب السفلى.

بعد سنوات الحرب، عاش تانباي أوقاتاً جيدة في حياته، أما الحصان الرمادي للعمدة، فكان ينتظره عند الوادي على مقربة منه، وفي ذلك الوقت كان يركب تانباي على الرهوان الأشقر، ولو كان قد حصل عليه قبل سنوات مضت، لم يكن بإمكانه أن يعيش اللحظات المفعمة بالرجولة، كما تفاعلت في عالمه عندما روض غولساري، وأخذ يمتطيه في لحظات سعيدة في حياته، ولقد كان تانباي يحب في بعض الأحيان أن يتفاخر بحصانه أمام الناس، وكيف له أن لا يعتز به، وهو يجلس فوق سرج الرهوان الطائر بين السماء والأرض! كان الناس في القرية والقرى المجاورة يعرفون الرهوان جيداً وخاصة عندما كان يركبه تانباي متجهاً إلى القرية عبر السهول الفسيحة، وحيث كانت طرقات الحقول مليئة بالنسوة الذاهبات إليها والعائدات منها في المساء، وعندما كان يلحظ تانباي مجموعة من النسوة على مسافة منه كان ينتصب رافعاً ظهره فوق السرج كما يرفع رأسه الفارس الأسطوري، بينما كان الحصان يشعر ويحس بهذا، ويتفاعل معه كما يجب. كان غولساري يرفع ذيله على مستوى ظهره، بينما شعر عرفه المنساب يأخذ بالصفير الناعم متناغماً مع

سـرعة الريـاح، ويصـدر الرهـوان بـين الفنيـة والأخـرى شـخيراً ناعمـاً متحفـزاً لزيـادة سـرعته، ويـرقص كـأنـه في معـرض للخيـول الأصـيلة، حـاملاً فارسـه بسـهولة، أمـا النسـوة فيبـتهلن سـعيدات عنـد رؤيـاه مـن بعيـد، وهـن يرتـدين مناديلهن الحمـر والبيض، ويفسـحن الطريق يمنـة ويسـرة، ويخـرجن عـن الطريـق أحيانـاً، ويقفـن وسـط القمـح الأخضـر الذي يغطي أرجلهن حتى الركب، ويقفن مفتونات، وذات مـرة، أخـذن يشاكسن تانباي، وهـن يبتسـمن بسـعادة وعيـونهن لامعـة كعيـون المها حتى بدت أسنانهن البيض ناصعة، وقالت إحداهن:

- انظر وكن حذراً، سنعتقلك إذا عدت ثانية من هذه الطريق!

حقاً، وذات مرة، وقفن في طريقه متشـابكات الأيـدي، والنسـوة تحـب في بعـض الأحيـان أن تشـاكس الرجـال حتـى الجنـون، فركبـت واحدة، والأكثر شجاعة على الحصان، وجربت أن تعدو قليلاً، حتـى حاولـت أن تسـحب السـوط مـن يـد تانبـاي، فأنزلهـا عـن الحصـان، أمـا الباقيات، فأخـذن بالضـحك، وهـن يصـرخن ويخلعـن السـوط مـن يـده، وقالت الكبيرة منهن:

- عليك أن تقطع على نفسك وعداً، وتقر بأنك، سوف تجلـب لنـا الكوميس؟ فنحن هنا نعمل في السهول من الصـباح حتـى المسـاء، وأنـت تتبختر على حصانك الرهوان بلا عمل! فيجيبهم تانباي بمرح:

- ومن الذي يجبركن على هـذا؟ اذهـبن واعملـن مـع أزواجكـن في رعـي الأغنـام، واطلـبن منهم أن يبحثـوا عـن نسـوة أخريـات، لأنكـن سوف تتجمدن في الجبال كالدمى.

- آه، هكـذا إذن! ومـن جديـد عـادت النسـوة مـرة أخـرى إلى مشاكسـته وتـأخيره عـن متابعـة طريقـه، ولـم يسـمح تانبـاي حتـى هـذا الوقت لأحد، أن يمتطـي صـهوة حصـانه الرهـوان، ولا لتلـك المـرأة الـتي

التقى بها، وانقلب مزاجه نحوها بشكل كبير حتى أجبر الرهوان لأول مرة أن يسير سيراً عادياً، ولم يسمح لهذه المرأة رغم حبه لها أن تركب على حصانه، وربما هي لم تكن ترغب بهذا.

في تلك السنة، انتخبوا تانباي في لجنة التفتيش، وغالباً ما يذهب إلى قريته، وفي كل مرة يلتقي فيها مع هذه المرأة التي يغادرها غاضباً بلا حدود، وكان غولساري يشعر بوضعه من خلال صوته، وعينيه الحمراوين، وصوته الخشن، وحركات يديه، ولكنه على الرغم من كل هذا يعدها باللقاء ثانية، ويصبح عندئذ أكثر لطفاً.

- إلى أين أنت تسرع هكذا! - كان يهمس تانباي مهدئاً حصانه الرهوان، عندما كان يسير، وإلى جانبه تسير امرأة، وهما يتحدثان بهدوء عن شيء ما، وغالباً ما كانا يلتزمان الصمت، فيشعر غولساري أن صاحبه يتغير كأنه يصبح أخف وزناً ويداه تصبحان ناعمتين، ولطيفتين بالتعامل، ويصبح صوته أكثر دفئاً وحناناً، ولذلك يحب أن يلحق بهذه المرأة وهي في طريقها إلى القرية، ويسيران معها، ومن أين للحصان أن يعرف، أن الحياة بالنسبة للمواطنين صعبة، وأن الأجر على يوم عمل قليل، ولم يزداد منذ فترة طويلة، وأن عضو لجنة التفتيش تانباي باكاسوف يجتهد ويحاول أن يحسن ظروف العمل، ومطالبة المسؤولين برفع أجرة العاملين حتى تتحسن الظروف، وعندها سيصبح الوضع عند الدولة أحسن، وسيتحسن وضع المواطن، ولا يعمل سدىً.

في العام الماضي كان قحطاً في جميع المجالات، وفي هذه السنة، تم تحقيق نتائج جيدة حيث فاقت الخطة الموضوعة، وتم إنتاج قمح أكثر، وازدادت الثروة الحيوانية، وتحسنت المنطقة بأكملها، وهذا يجعل سمعة الإدارة حسنة، وساعتها تتجاوب الإدارة العليا مع

متطلبات المنطقة من تكنولوجيا وأدوات زراعية، وهذا سيتضح فيما بعد بالنسبة لأعضاء الكولخوز.

مضى الوقت بسرعة، وأصبح الناس ينسون أيام الحرب المرة تدريجياً، هذا في الوقت الذي استمرت فيه الحياة كالسابق على ما يجمعونه من الحواكير حول منازلهم، أو ما كانوا يحصلون عليه بطرق مختلفة من الأراضي، ولم يكن لدى الكولخوز نقوداً، فكل شيء كان يسلم إلى الدولة بخسارة كالحليب واللحم والقمح، وفي الصيف ازداد عدد المواشي بشكل كبير، أما في الشتاء، فقد حصلت خسائر كبيرة، إذ نفق الكثير من المواشي تحت الثلوج، ونتيجة لقلة العلف، وهنا كان من الضروري بناء الحظائر اللازمة للأغنام والأبقار، ومستودعات كبيرة للأعلاف، ولكن مواد البناء كانت قليلة جداً، ومن الصعب الحصول عليها رغم الوعود بتأمينها، أما السكن فلقد تحول إلى خرائب خلال فترة الحرب، ولم يتمكن المواطنون من إصلاح مساكنهم أو بناء بيوت جديدة، عدا أولئك الذين يعملون بالتجارة في الأسواق الخاصة، ويبيعون بعض المواشي والخضار، وأصبح هؤلاء يشكلون قوة اجتماعية، ولكنها صغيرة، وكان بإمكانهم أن يحصلوا على مواد البناء من السوق السوداء، وغالباً ما كان تانباي ينتقد هذه السلبيات قائلاً: «كلا، لا يجوز هكذا أيها الرفاق، فهنا تفوح الروائح التي لا تطاق من جانب البعض، لقد حصل أخيراً في طرق التعامل والنظام خلل يجب إصلاحه»، وقال تانباي ذات مرة: «لا أصدق أن الأمور يجب أن تكون هكذا، إما أننا فقدنا القدرة على العمل بصورة صحيحة، أو أنتم تسيئون الإدارة، ولا تقدرون عليها بصورة سليمة!». وهنا احتج المسؤول المالي عن الأوراق والخطط، إذ قال لتانباي:

- ما الذي تراه غير صحيح، وما الذي تعتقد أنه ليس كما يجب؟! - وقدم المسؤول الأوراق كاملة قائلاً: - خذ ودقق ما تشاء، فهذا ما حصلنا عليه، وهذا ما سلمناه للدولة، وهذا رصيد الدين، وهذه السُلف للمواطنين، وهذا رصيد الحساب، أما بالنسبة للأرباح، فلا توجد، لأن الخسائر كانت كثيرة، فماذا تريد؟ دقق في الأمر كما ترغب، فوحدك الشيوعي، أما نحن فأعداء للشعب، أليس كذلك؟ تدخل في النقاش أشخاص آخرون، وظهرت الحدة في أحاديث البعض من صراخ وصخب، أما تانباي فقد جلس واضعاً يديه على رأسه وفكر في الأمر بيأس عما يحصل هنا، ويتألم لوضع الكولخوز، ليس لأنه يعمل فيه فحسب، بل لأنه كانت هناك قضايا أخرى، وأسباب خاصة، فلقد كان بعض المتكلمين من الأشخاص الذين كان تانباي على خلافات قديمة معهم، ورأى أنهم الآن يسخرون منه، ويعملون ضده سراً وعلناً ينظرون إلى وجهه بوقاحة صارخة متسائلين: كيف سنعمل حتى يتحسن الوضع؟ وهل ترغب أنت بهذا؟ وإذا فعلت هذا، فلن تحصل منا بعد الآن على أي شيء، وكما صعدت قليلاً، فسوف تنزل كثيراً. آه، لماذا عدت سالماً من الحرب!...

أما تانباي، فقد أجابهم بنظرة غاضبة: - انتظروا أيها اللئام، فكل شيء سيكون كما نريد! فالناس عندنا ليسوا بغرباء عنا، وعلى سبيل المثال، أخوه من أبيه يدعى كولوباي، وهو كهل أكبر منه سناً، وكان على خبرة سياسية، وقد أمضى سبع سنوات قبل الحرب في سيبيريا، وأولاده ساروا على طريق والدهم، إذ كانوا يكرهون تانباي كرهاً شديداً، ومن أجل ماذا هم مجبرون أن يحبوه؟ وربما أولادهم وأحفادهم، سيكرهون كل من يخص تانباي، ولهذا كانت لديهم حجج خاصة بهم، ولها أسبابها منذ أمد بعيد، والغيض

عنـد النـاس الأقـارب لا ينتهـي بسـرعة، فهـل كـان محقـاً تانبـاي أن يتصرف هكـذا مـع كولوبـاي؟ بغـض النظـر عـن أنـه لم يكـن ملّاكـاً من الدرجة الوسطى؟ وهل بإمكان الإنسان أن يبتعد عن أقاربه كلياً؟ وُلـد كولوبـاي مـن الزوجـة الأولى لوالـده، أمـا تانبـاي فوُلـد مـن الزوجـة الثانيـة، وهـذا الأمـر بالنسـبة للشـعب القرغيـزي لـيس بـذي أهميـة، فالأخوان من أب واحد، يعني أنهما قريبان من الدرجة الأولى، ويعتبران متساويين في كافة الحقوق الأبوية، وهذا يعني أن كولوبـاي قـد أسـاء لذوي القربة، وكثرت الأحاديث آنذاك حولهما، ولذلك من الصعب أن يحكم الإنسان الحيادي بإدانة تانباي، وآنـذاك كيـف كانـت الحـال؟ وهـل تانبـاي أقـدم علـى هـذا العمـل، لـيس مـن أجـل الكولخـوز؟ وهـل كان هـذا بالفعل ضرورياً؟ فسـابقاً لم يشـك بصـحة مـا فعلـه، ولكـن بعد الحرب أخذ يفكـر أحيانـاً بشـكل آخـر، وهـل لـو فعـل غير ذلـك، أكان من الممكن أن يكوّن لنفسه، وللكولخوز أعداءً ألداء؟

- مـاذا بـك تجلس، اصح لنفسـك يـا تانبـاي - وأعـاده النـاس إلى الحـديث، ومـن جديـد كـان مـن الضـروري أن يـتم خـلال الشـتاء نقـل مخلفـات الحيوانـات إلى الأراضـي، وجمعهـا مـن البيـوت، ولا توجـد عجـلات للعربـات، فمـن الضـروري شـراء الحديـد والعجـلات، وشـراء الخشـب للتدفئـة أيضـاً، ومـن أيـن لنـا النقـود، وهـل سـيعطوننا قرضـاً، ولكـن مـا علينـا أن نـرهن؟ فالبنـك لا يثـق بـالكلام، ومـن الضـروري إصلاح القنوات القديمة، وشق الجديـدة، والعمل كثير جداً وصعب، ففي الشتاء، لا يخـرج النـاس للعمـل بصـورة منتظمـة، فـالأرض تتجمـد، ويصعب حفرها، وفي الربيع لا يكـون بوسـعنا فعل ذلـك، فلـدينا الـزرع والرعـي والاعتنـاء بتربيـة الأغنـام، فـأين الأمـاكن المناسـبة حتـى تلـد الأغنـام، وتطعـم الصـغار؟ وفي مصـنع الحليـب الأمـر لـيس أفضـل،

فالأسـقف باليـة، وتحتـاج لإصـلاح، والعلـف لا يكفـي، والنسـوة الحلابات لا يرغبن بالعمل لأنهن يعملن من الصباح حتى المساء، وعلى ماذا يحصلن من الأجر؟ وكم توجد الكثير والكثير من الأعمال الأخرى، والحاجات الضرورية؟ يصعب تصور كل هذا، ورغم ذلك أصر الناس وجمعوا قواهم وناقشوا هذه المسائل في الاجتماعات الحزبية، ولاسيما في إدارة الكولخوز، أما المدير، فقد كان تشورا، وفيما بعد قدر عمله تانباي كما يستحق، إذ كان الانتقاد أسهل شيء، أما الفعل فهو الأصعب، ولقد عمل تانباي مسؤولاً عن قطيع الخيول، أما تشورا مدير للكولخوز ومسؤول عن الكل، ولقد كان إنساناً قوياً، وذا إرادة صلبة، وعندما بدا الأمر وكأن كل شيء قد انهار ويصعب إصلاحه، وخاصة عندما كانوا يدقون بقبضات أيديهم على الطاولات مهددين إياه في قيادة المنطقة، وفي بعض الأحيان يمسكونه من صدره في الإدارة، لم يضعف أمامهم نهائياً، ولم ينهزم، وكان يخرج من الأزمات منتصراً، ولو كان تانباي في مكانه لفقد عقله، أو انتحر، أما تشورا فقد أدار الأمور في الكولخوز إدارة قوية وحافظ على هدوئه تماماً، على الرغم من أن قلبه يؤلمه كثيراً، ثم عمل سنتين كمسؤول عن التنظيم الحزبي، وتمكن تشورا من إقناع الآخرين، وجاء للتحدث إلى الناس، فيستمع تانباي لما يقوله تشورا، ويؤكد على ثقته، بأن كل شيء سينتهي نهاية إيجابية، ونحو الأحسن، وستكون النتيجة كذلك، كما كانوا يحلمون بها في أيام الشباب، إلا أن الأمر لا يخلو من الخلاف بين الأصدقاء والرفاق، فذات مرة وقع خلاف بين الاثنين، إذ شك تانباي بتشورا، ولكنه ندم على ذلك، وأدرك أنه هو المخطئ، وليس تشورا...

أما الرهوان، فلم يعرف بما كان يدور في رأس تانباي، وعندما

خرج من إدارة الكولخوز والشرر يتطاير من عينيه، وأقفل حاجبيه كلياً، وألقى بنفسه بقوة فوق السرج وشد المقود بخشونة، شعر الحصان آنذاك أن صاحبه يعاني من شيء صعب للغاية، وبغض النظر عن أن تانباي لم يضرب الرهوان مطلقاً، فقد كان يخافه في مثل هذه الحالات، حين يجد تلك المرأة على الطريق، فيدرك الحصان جيداً أن مزاج صاحبه سيصبح أحسن بعد قليل، وسوف ينتر المقود بشدة حتى يسير الرهوان بهدوء، ويأخذ صاحبه بالحديث الهامس مع هذه المرأة، فيلين ويبتسم، ويصبح خيّراً للغاية، أما يداها فتأخذان بمداعبة عرف الرهوان وتمسح على رقبته، ولم يشعر غولساري برقة أية أيدٍ أخرى، كما كان يشعر برقة يدي هذه المرأة. لقد كانتا يدين رائعتين رقيقتين وناعمتين كشفتي تلك المهرة الصغيرة ذات النجمة فوق جبهتها حيث لم يكن لدى إنسان آخر في الدنيا عينان جميلتان كعيني هذه الإنسانة. تحدث إليها تانباي منحنياً نحوها فوق سرج الرهوان، أما هي فتبتسم أحياناً، وتقطب حاجبيها أحياناً أخرى، وتهز رأسها موافقة في بعض الحالات النادرة، ورافضة لأغلبها، بينما كانت تعكس عيناها ظل الضوء، كما تعكس صفحات الحجارة النظيفة الملساء على أرضية النهر السريع في ليلة قمرية، وعندما تغادر تنظر عدة مرات إلى تانباي وهي تهز رأسها ثانية. بعد هذا كان تانباي يتابع طريقه قلقاً، فيترك مقود الرهوان على هواه بكل حرية وحسب الطريق المعبد جيداً، يحس الحصان كأن تانباي لم يكن فوق سرجه، ويشعر كل منهما بالسير وحيداً من دون الآخر، وكل يفكر على طريقته، وحتى الأغنية تخطر على لسان تانباي من دون استدعاء، فيدندن بها ويغني بعض الأحيان، ويقسم الموسيقى بصوت بطيء، ومن دون كلمات واضحة على إيقاع وقع حوافر الرهوان السلسة والمتعاقبة

برتابة، وهكذا يغني تانباي عن معاناة الناس الذين غادروا الحياة منذ أمدٍ بعيد، بينما اختار الحصان الطريق الأقصر المعروف له جيداً، وحمله عبر السهول إلى ما بعد النهر باتجاه الرعاة...

أحب غولساري هذه اللحظات، التي يعيشها صاحبه، إذ يتحول مزاجه، ويصبح رائعاً وطيباً، كما أحب هذه المرأة على طريقته، فكان يعرف شكلها، ويعرف قامتها من بعيد، ويعرفها الرهوان من خلال حاسة الشم التي يمتاز بها، وخاصة من تلك الرائحة لذلك النبات النادر والغريب التي تصنع عطرها منه، لقد كانت رائحته قريبة من أريج زهر القرنفل، وفي بعض الأحيان، كانت تجمع زهرات القرنفل، وتحبك منها طوقاً تضعه على جيدها حين تعرف أنها ستلتقي تانباي، وهنا يشير لها تانباي كأنه يريد أن يقول لها، كم يحبها حصانه كما يحبها هو:

- لاحظي كم يحبك غولساري يا بيوبيوجان، فاشكريه، وامسحي قليلاً على رقبته حتى يشعر أنك تهتمين به! انظري كيف أسدل أذنيه وفتح أنفيه كأنه عجل صغير يريد أن يقترب من أمه، لو أعطيته الحرية لتقاتل مع الأحصنة من أجل الأفراس، اللواتي يعجب بهن، ولذلك لا أسمح له مطلقاً أن يفلت من يدي، وهو دائماً تحت السرج، وأخاف عليه أن يعطب ظهره لأنه ما زال شاباً طرياً ولا يجوز له الإفراط في الاقتراب من الإناث!

وهنا قالت المرأة، وهي تريد لفت الانتباه إليها، بأنها شغوف لدرجة كبيرة بصاحبه:

- إنه يحب حباً حقيقياً، فانظر إلى عينيه كيف ينظر نحوي!

فاحتج تانباي، وقال لها:

- أتريدين القول إن الآخرين لا يحبونك؟ - تمهلت المرأة في الإجابة قليلاً، ثم قالت بغنج:

- كـلا، أنـا لم أقصـد علاقتنـا، ولكـنني أخـاف عليـك كمـا تقـول مـن الإفـراط في حـب النسـاء! فأنـا أخـذت نصـيبي مـن الحـب، ولكني آسفة عليك، فسألها تانباي مستفسراً:

- لماذا تفكرين هكذا؟ فأجابته على عجل:

- لأنك تختلف عن الآخرين، وستعاني من الكثير في المستقبل! وهنا ضحك تانباي، وقال مراوغاً:

- وأنتِ، كيف تحبين؟ فأجابت بدلال:

- ماذا، فالأمر قد انتهى بالنسبة إليّ؟ فأنا أرملة، وكنت زوجة لرجـل مـدة مـن الـزمن، واستشـهد في الحـرب، وأنـت لا تقتصـر علـيّ وحدي، وعيناك تبرقان من فوق حصانك يمنة ويسرة! فاحتج تانباي، إذ أكد عكس ما تقول:

- لديّ الأعمال الكثيرة التي أغوص بها حتى أذنيّ كعضو في لجنة الرقابة في الكولخوز، ولقد التقيت بك مصادفة، ولا أقصر في الاهتمام بك، ولم أنس نفسي.

- وما علاقتي بالأمر؟ أنا أسير، وأنت تسير.

- أنـا أسـير في طريقـي، وأنـت تسـير في طريقـك، فوداعـاً، لـيس لديّ الوقت، فاستوقفها تانباي:

- اسمعي يا بيوبيوجان!

- ماذا تريد؟ ليس من الضروري كل هذا يا تانباي، فمن أجل ماذا كل هذا الحديث؟ فأنت رجل ذكي، وتعرف أنني يائسة من دون هذه المماحكة.

- لماذا تقولين هكذا، فهل أنا عدو لك؟

- لا بالطبع، فأنت عدو ذاتك!

- كيف لي أن أفهم هذا؟

- افهم كما تريد.

غادرت بيوبيوجان وشأنها، أما تانباي فتابع الخبب على حصانه الرهوان عبر طرقات القرية كأنه ذاهب للقيام ببعض الأعمال، وراح يلتفت إلى الطاحونة أحياناً، وإلى المدرسة أحياناً أخرى، ثم قام بدورة عائداً علّه يرى من بعيد كيف ستظهر من جديد من بيت حماتها، حيث تبقي ابنتها خلال عملها، وعندما تعود من العمل، تأخذها وتسير إلى طرف القرية وهي تمسكها من يدها، فلديها من الحنان الكثير، وبلا حدود، فكيف كانت تسير محاولة أن لا تنظر إليه ولا حتى إلى الجهة الموجود فيها، ولقد أعجب تانباي بها، فكان وجهها يشرق نوراً في الظلمة، كما أعجبته ابنتها، حتى الكلب الذي كان يركض إلى جانبهما أخذ يشم ثيابها.

أخيراً اختفت بيوبيوجان في حديقة منزلها، أما هو فقد تابع طريقه وهو يتصور كيف توصد بوابة هذا البيت الفارغ، وتقذف المعطف العتيق في أية زاوية ما لا على التعيين، وتهرع في فستانها نحو موقد المنزل فتشعله، ثم تعود لتغسل الطفلة، وتطعمها، وكان عليها بعد قليل أن تؤوي البقرة العائدة من المرعى مع قطيع القرية، وفي الليل سوف تبقى وحيدة في بيت مظلم، لا صوت فيه، وسوف تقنع نفسها، وتقنعه أيضاً، أنه لا يجوز لهما في هذا العمر أن يحبا بعضهما، ولاسيما أنه إنسان متزوج، وأنه في هذا السن المتأخرة، من المضحك أن يعشق، وأن لكل شيء وقته، وأن زوجته امرأة جيدة وهي لا تستحق نهائياً أن يخونها، وأن يعشق امرأة غيرها.

فمن هذه الأفكار، أخذ تانباي يعاني من دوران في رأسه، وهذا يعني أنه لا يجوز له حسب تفكيره أن ينظر إلى الأفق البعيد المظلم خلف النهر، وهو يغني في الأحلام، ويغرق في عرق بارد، ولاسيما أن

تلك الأغاني قديمة جداً أكل الزمان عليها وشرب، أما هو، فقد نسي كل شيء في الدنيا، ونسي الأعمال، والكولخوز ونسي الأحذية والألبسة للأولاد، كما نسي الأصدقاء وغير الأصدقاء، وأخيه من أبيه كولوباي الذي لم يتحدث معه منذ سنوات عدة. كما نسي الحرب التي من الصعب والصعب نسيانها، لقد نسي كل ما كان يعيشه في حياته اليومية، ولم يلاحظ أن الحصان قد ذهب في طريق عبر النهر، وعندما خرج إلى الضفة الأخرى انحدر نزولاً ليذهب في الطريق نفسه، وفقط عند ذلك، عندما أحس الرهوان بقرب قطيع الخيول، زاد من سرعته، حيث أدرك أنه عاد إلى مكانه.

- اهدأ، اهدأ يا غولساري، إلى أين تسرع هكذا؟! - عاد تانباي إلى وضعه الطبيعي، وشد مقود الحصان.

5

وبغض النظر عن كل شيء، لقد كانت تلك الفترة جميلة في حياة تانباي، وكان الرهوان يشعر بأريحية مع صاحبه، وخاصة أن شهرة غولساري انتشرت بعيداً، وأصبحت الأخبار عنه، كالأخبار عن لاعب كرة قدم شهير، فطفل الأمس، الذي كان يلعب مع أقرانه الأطفال في ساحات القرية وطرقاتها، أصبح بعد فترة محبوباً لجماهير كرة القدم محلياً ثم دولياً، وأصبح هو كموضوع مهم على ألسنة خبراء الرياضة والجماهير عامة، وكلما ازدادت نجاحاته ازدادت شهرته ما دام ماهراً في إدخال الأهداف في مرمى الخصوم، ثم تبدأ مرحلة الانحدار، ويخرج تدريجياً من الساحة، ويُنسى مع الزمن، وأول من ينساه هم أولئك الذين كانوا يمتدحونه بأصوات عالية، ويأتي بدلاً من هذا اللاعب الشهير واحد آخر، وهذا هو مصير الحصان

غولساري، فلقد وصل لدرجة الشهرة مع حصوله على جوائز في سبق الخيول المحلية والمنطقية، وعلاقة الحصان مع الجمهور تكون متينة بقدر لباقة الحصان وخفته في السباقات، والفرق الوحيد ينحصر في ذلك، أن الحصان لا يحسد أحداً على الإطلاق من منافسيه، فالخيول لا تجيد الحسد، أما الناس، فعلى العكس تماماً، فهم يحسدون بعضهم على كل نجاح. هذا على الرغم من أنهم لا يكتفون بالحسد النظري، ويلجؤون إلى الأفعال العملية إذ يغرسون بعض المسامير في حوافر الخيول، وبهذا يعطبون عدْوها، آه! يا لهذا الحسد الشيطاني الأسود!... والإله سيتدبر أمرهم...

لقد تحققت تنبوءات الكهل تورغوي، ففي ذلك الربيع انتشرت شهرة الرهوان في كل مكان، وارتفع نجمه عالياً، فالكهل يتحدث للشباب عنه، فيتسابق الفتيان والجمهور لحضور السباق ورؤية غولساري، وهو يتألق في كل مرة! وأطلقت عليه الألقاب كنجم الخيول، وقمر القرية...

أما الأولاد، وهم يلعبون في البيوت أو الطرقات، فكانوا يصرخون قبل أن يتعلموا لفظ حرف الراء، وهم يركضون حتى يتعالى الغبار من خلفهم، مقلدين الحصان الرهوان غولساري، ويصرخون متنافسين في سباقاتهم: أنا غولساري... كلا، أنا غولساري... ماما قولي له، أنا غولساري... تشو! إلى الأمام!، أ أ أ... أسرع، سألحق بك، أنا غولساري!

هنا يُطرح موضوع الشهرة كسؤال يهم كل واحد من البشر، فأية قوة معنوية تتضمن هذه المسألة، ولقد حصل الرهوان على هذه الشهرة منذ المرة الأولى لخوضه السباق الكبير، إذ كان ذلك في عيد الأول من أيار، عيد العمال العالمي، وبعد الاحتفال الكبير عند ضفة

النهـر، بـدأت الألعـاب، وحضـر عـدد كـبير مـن السـكان المحلـيين والقادمين من أماكن بعيدة، ومـن السـوفخوزات والكولخـوزات، ومـن الجبال ومن جمهورية كازاخستان الجارة، وقدم الكازاخ مع خيـولهم، التي يعتزون بها، وتحدث الناس عن هذا الاحتفال طويلاً، إذ كـان هـو الاحتفال الأول والأجمل بعد الحرب، وتحقيق النصر.

في الصـباح البـاكر، نهـض تانبـاي وقـام بمـا هـو ضـروري تجـاه حصـانه الحبيـب، فـاعتنى بنظافتـه، ودقـق في متانـة أحزمتـه، وخاصـة التي تحت بطنه، وأحزمة الركب، وكان يحس الرهوان بما هـو مقبـل عليه من خلال البريق في عيني صاحبه، وحركات يديه بصورة غريبـة، أما تانباي، فقد كـان قلقاً للغاية، ثم قال مخاطباً حصـانه بهمـس وهـو يسرح شعر عرفه، وغرته:

- اليـوم يومـك ويومي يـا عزيـزي غولسـاري، فـلا تخطـئ، وكـن كما عهدتك، ولا تعيب نفسـك، أتسـمعني جيـداً! فعلينـا معـاً أن نحقـق النصر، والخسارة كبيرة إذا أخطأنا!

كـان تانبـاي يـزداد قلقـاً مـع اقـتراب موعـد السـباق، وكـذلك الرهـوان كـان يحـس بـاقتراب شـيء غـير اعتيـادي في الهـواء، أصـوات مختلفـة، وبلغـات لم يتعـود سماعهـا، وحركـة النـاس في كـل الاتجاهـات، أمـا في الإسـطبلات المجـاورة، فكـان الرعـاة يجهـزون خيـولهم بالسـروج، والأولاد كـانوا امتطـوا صـهوات خيـولهم، وأخـذوا يركضـون، وهـم يصـرخون بـأعلى أصـواتهم حـول المكـان، ثـم جـاء الرعاة الخيالة، وتقدم الجميع نحو النهر.

اسـتغرب غولسـاري وجـود هـذا السـيل الكـبير مـن البشـر فـوق الهضبة مع عدد كبير مـن الخيـول، وعـم الصـراخ والكـلام والنـداءات كـل المكـان حتـى بدايـة الجبـال، وفي العيـون اختلطـت الألـوان مـن

المناديل الزاهية، والأعلام الحمر، والألبسة النسائية الملونة بكل الألوان.

أما الخيول فكانت في أجمل حللها وعِددها وسروجها، وكانت ترن الركب المغطاة ببعض القطع النحاسية اللامعة، وتقرقع الشكائم، وتلمع الشنف والدلايات المعلقة على الأحزمة العريضة على صدور الخيل.

أما الأحصنة تحت الخيالة، فانضمت إلى بعضها في صفوف، وفقدت الصبر للانطلاق، فأخذت تتراقص في أمكنتها، وتحفر الأرض بحوافرها، وانتظم الكهلة في صفوف نصف دائرية للإشراف على المسابقات، وفي الوسط كان الحكام، والمسؤولون في المنطقة.

شعر غولساري أن التوتر يزداد في داخله مع كل ثانية، وأن القوة تتعاظم في عضلاته، وبدا له أن عالمه انبعثت منه روح نارية ملتهبة، وحتى يتحرر منها، كان من الضروري له أن ينطلق بسرعة إلى الدائرة، ويعطي لقوائمه الحرية التامة، وعندما أعطى المنظمون إشارة الانطلاق إلى الدائرة، أطلق تانباي العنان لحصانه الرهوان، ودفع به إلى الوسط مع بعض الارتباك قليلاً قبل أن يعرف إلى أين سيتجه، وانطلقت الصيحات في الصفوف الأولى:

- «غولساري! غولساري! ...».

خرج كل الراغبين للمشاركة في السباق الكبير، حيث زاد عددهم على خمسين شخصاً، إذ قال منظم الحفل بصوت جهوري:

- اطلبوا من الجمهور أن يدعو لكم بالخير والتوفيق!

أما الخيالة حليقو الرؤوس، فعصبوا جباههم بربطات ملونة بألوان مختلفة، وتحركوا إلى أمام الصفوف، وهم يرفعون أيديهم

بأكف مفتوحة، ومن الأول حتى الأخير، صدر صوت واحد: «آمين» ومئات الأيدي ارتفعت إلى الجباه وانخفضت ماسحة الوجوه بالأكف، وبدا كأنه شلال من الماء قد هبط من علٍ.

وبعد هذا، توجه الخيالة نحو نقطة الانطلاق في بداية الميدان، الذي يبلغ طوله تسعة كيلومترات.

في هذا الوقت بدأت الألعاب ضمن دائرة السباق، وأخذ الصراع يدور بين المشاة والخيالة، إذ أخذ بعض المشاة يشدون الخيالة عن صهوات خيولهم، راغبين بإنزالهم على الأرض، فيتمسك الخيالة بسروج خيولهم، وهم ينحنون بأجسامهم إلى الأرض، لخطف قطع النقود المبعثرة في مسار السباق، والخيول تعدو مسرعة، وغيرها من المباريات التي كانت بمثابة المقدمة للحفل، وكان نظر الجمهور متعلقاً بالمكان الذي اصطف فيه الخيالة مع خيولهم قبل بدء السباق، وهم يستعدون للانطلاق في لحظة إطلاق النار فوق رؤوسهم.

احتد غولساري خلال الطريق، ولم يفهم لماذا يشد تانباي اللجام، ومن حوله كانت الخيول تنطلق على حريتها، وبما أن عدد الخيول كان كثيراً، وانطلقت كلها دفعة واحدة، غضب الرهوان وأخذ يتراقص في مكانه فاقداً الصبر.

قطع المنظم الصف الأول من بدايته حتى نهايته رافعاً منديلاً أبيض، فجمد الجميع، بما في ذلك أولئك المحتدمون والمتحفزون، واستمر بتلويح المنديل في الفضاء حتى يعطي إشارة الانطلاق، ولحظتها عندما هوى بيده إلى الأسفل انطلقت الخيول دفعة واحدة، وانطلق غولساري بوثبة فريدة، فضجت الأرض تحت وقع حوافر الخيل كقرع الطبول على اختلاف مقاساتها وأصواتها وأنواعها، واندفع الغبار عالياً، وتحت نداءات وصراخ الخيالة، انطلقت الخيول في حالة

جنونية، وفقط غولساري الذي لا يجيد العدو رمحاً، أخذ يسير حسب طريقته الرهوانية، وفي هذا يكمن سر ضعفه وقوته.

في بداية الأمر انطلقت الخيول في مجموعة واحدة، والمسافات كانت جداً قصيرة بين الخيال والآخر، ولكن وبعد دقائق عدة، أخذت المسافات تزداد بين الواحد والذي يليه، أما غولساري فلم يرَ هذا، وشاهد فقط أن الخيول السريعة قد تجاوزته، وأخذت تعدو أمامه على الطريق نفسها الذي يسير عليه، وكانت تصيبه على بوزه ببعض الحصى المتطايرة من تحت حوافر الخيل المنطلقة أمامه، وكذلك الحصى الحامية وكتل من الطين الجاف، ومن حوله كانت تسرع الخيول تحت وقع ضرب سياط الخيالة الذين يصرخون من دون توقف والغبار يزداد كثافة في السماء حتى شكل غيمة علت فوق الأرض، وفاحت رائحة الأرض العطشى، وغبار الصوان والشيح الطري الأخضر.

هكذا استمرت الأمور حتى نصف الطريق، وفي المقدمة، كانت تنطلق مجموعة من الخيول يصعب على الرهوان أن يلحق بها، إذ تعدو رمحاً، وكان عددها لا يزيد على العشرة، فقد قطعت المسافة بأريحية، ومن حول الرهوان أخذت الخيول تخفف من سرعتها، وصوت الضجيج من الخلف لم يعد مسموعاً، ولكن تانباي لم يعط الرهوان حريته الكاملة، وهذا ما أغاظ الحصان كثيراً، واحمرت عيناه من الغضب والريح الذي يصطدم بوجهه، أما الطريق فقد كان سلساً تحت حوافره، والشمس كانت تسبح مبتسمة للقائه، وهي ترسل من السماء حرارتها المعتادة، وغمر العرق الحار جسم الرهوان، وكلما ازداد عرقه، أصبح العدو أسهل بالنسبة إليه.

هكذا حلت لحظة تنفيذ الخطة، عندما أخذت الخيول التي في

المقدمـة تتـأخر تـدريجياً ﯾﮱ عـدوها وأصـبحت خلـف الرهـوان تعبـة، وبالتدريج تتوقف عن العدو، أما الرهـوان، فقـد أخـذ يشـعر بلـذة العـدو إذ دخـل ﯾﮱ مرحلـة اسـتخدام قوتـه الحقيقيـة، «تشـو، يـا غولسـاري، تشو!»- سمع الرهوان أخيراً صـوت صـاحبه، والشـمس اسـتقبلته بحـرارة أكثر، وها هو يتجاوز الخيول واحداً بعد الآخر وأخـذ يتركهـا خلفـه، بينمـا أخـذ الخيالـة ينظـرون إليـه بغضـب وكراهيـة وهـم يقطبـون حـواجبهم، وبـدت وجـوههم معذبـة محروقـة مـن حـرارة أفـواه خيـولهم، وهنا انتهت سلطة اللجـام والمقـود، ولـم يعـد يشـعر غولسـاري لا بسـرجه ولا بمن فوق السرج إذ عصفت فيه روح السباق الملتهبة.

أما ﯾﮱ المقدمة، فقـد اسـتمر جنبـاً إلى جنـب كـل مـن الحصـانين الرمـادي الـداكن والأشـقر، فلـم يسـمح أحـدهما للآخـر أن يسـبقه ببضـعة سـنتيمترات، بينمـا كـان الخيـالان مـن فوقهمـا يزيـدان الصـراخ والضرب وهمـا حقـاً حصـانان سـبق شـهيران، أمـا غولسـاري، فقـد تـابع يجتهـد حتـى يلحـق بهمـا، وعنـد بدايـة الصـعود النسـبي ﯾﮱ الطريـق عـبر الهضبة، تمكـن من تجاوزهمـا، وصـعد ﯾﮱ الطريق كـأنه يقفـز مـن فـوق حرف موجة عالية كـأنـه تعلـق ﯾﮱ الفضـاء للحظـة مـا ﯾﮱ تحليـق فضـائي فاقـداً للـوزن والجاذبيـة، وتجمـدت الـروح ﯾﮱ الصـدر، أمـا الشـمس فقـد سـطعت بحـرارة أكثـر، وأبهـرت العيـون، وبعـد هـذا فقـد انطلـق غولساري نحو المنحدر، ولكنـه فجـأة سمـع وقـع حـوافر خيـول تدركـه من الخلف، فلم يـرض كـل مـن الحصـانين الرمـادي الـداكن والأشـقر علـى الخسـارة، فضـاعفا مـن السـرعة حتـى أصـبحا علـى محـاذاة الرهـوان، واقتربـا منـه حتـى التحمـا بـه، ولم يتركـاه وحيـداً نهائيـاً، وهكـذا سـار الثلاثـة معـاً رأسـاً مـع الرأسـين، وأذنـي غولسـاري علـى مساواة آذان الحصانين ﯾﮱ حركة واحدة، وبدا الأمـر لغولسـاري، أنهـم

الثلاثة قد تجمدوا في مكانهم، وتوقفوا عن العدو، وقد ارتبط الخيالة الثلاث معه في صف واحد، وكل ذلك كان يتم بصمت، وهم ينهبون الأرض إلى الأمام، حتى كان بالإمكان لغولساري أن يرقب أعين جاريه وتعابير وجهيهما، ودرجة الضغط العالي عندهما، حتى بان معدن نحاس اللجامين لامعاً، وهذا ما لا يراه في فمه، فكان الحصان الرمادي الداكن الجامح، ينظر إلى غولساري بعنف وشراسة مباشرة، أم الأشقر فقد كان مرتبكاً وخائفاً قليلاً غير واثق بنفسه، ومتردداً ينظر فيما حوله، وحقاً هو أول من أخذ يتأخر عن زميليه المنافسين، فاختفى نظره في البداية، ثم بوزه مع منخريه المنتفخين إلى النهاية، ولم يعد يظهر على الساحة ثانية، أما الرمادي الداكن فقد استمر على عناده حتى أخذ يتأخر رويداً رويداً، وبعناد لا يوصف بدا كأنه يموت من دون أن يستسلم، وجمد نظره في نقطة ما من شدة غضبه البائس، وهكذا غادر عن الطريق أيضاً غير راغب بالاعتراف بالهزيمة.

عندما تراجع المتنافسون، أخذ غولساري يتنفس بارتياح، وأمامه بدا النهر فضياً رائعاً، واخضرت الهضاب، وصدحت أصوات المشجعين من البشر، وبدا المؤيدون المتحمسون على جانبي الطريق، وهم يطلقون صيحات التشجيع، بينما أطلقت النسوة الزغاريد والصراخ، حتى عمت كل المكان والفضاء على سعتهما، وهنا شعر الرهوان فجأة بضعف ما، لقد أثرت طول المسافة عليه، وما كان طوال الطريق من منافسة، وأصبح عاجزاً عن متابعة العدو السريع، وخانته قواه كلياً. وهناك في المقدمة، كان جمهور كبير من البشر يصخب ويموج، فشعر غولساري، كأن يدين طويلتين تمتدان إليه، إحداهما بشرية، والأخرى من جهة الخيالة المشجعين، وأصبح الصراخ أشد وأشد عنفاً!

وهنا صدح في أذنيه اسمه متردداً: «غولساري! غولساري! غولساري!...» وبلحظة سريعة، شحذت هذه الأصداء في طاقته شعلة قوية، ومنها انطلق بلا إرادة إلى الأمام أسرع من الصوت! ومن هذه الأصوات التي استحوذت عليه، وهذا الصراخ والهتافات وأصوات التعجب والتمجيد التي ملأت عالمه كما يملأ الهواء رئتيه، ظهرت قوة خفية جديدة لدى غولساري، وتجلت في صوت المرأة التي كانت في بعض الأحيان تمسح على رقبته، وأخذ يرمح إلى الأمام، على طريقة خيول السباق الماهرة، آه، كم يفعل الناس بإرادتهم وتأييدهم من عجائب الدنيا...

هنا حلت الذروة، فالرهوان في وضع لم يكن يتخيله سابقاً، وصاحبه كاد يفقد صوابه من وقع فرحة النصر، ومع عودة الرهوان إلى وضعه الطبيعي، وتزاحم البشر من حولهما في دائرة مغلقة وهم يصرخون: «غولساري، غولساري، غولساري!»، وأحياناً يسمع الحصان اسم صاحبه، تانباي، تانباي، تانباي!، ومن خلال هذا تفهم تانباي، وربما أحس غولساري بأن النصر كان حليفهما.

من جديد، صنع البشر معجزة أخرى مع بطليهما تانباي والرهوان، إذ خرجا فخورين نتيجة تشجيع الجمهور لهما، إذ رفع الرهوان رأسه إلى الأعلى، ودخل إلى الساحة مضيفاً إلى مشيته الرهوانية رقصة احتفالية أخذ يرقصها أمام الجمهور، وتفنن بتراقص عضلات جسمه الشاب الفتي، وبعينين مشرقتين مليئتين بسكرة النصر، وسار غولساري يرقص رقصة الخيول الجميلة ماشياً على عرض قامته كأنه يقول للجمهور، إنني على استعداد للمشاركة في سباق جديد.

مع ترداد اسمه واسم صاحبه الذي يحبه، أحس غولساري بشيء من العزة والتفاخر، وأنه جميل وعملاق في نظر المؤيدين، كما

أصبح مشهوراً ومعروفاً بين أناس المنطقة، وسيزداد حب الناس له، بمن فيهم تلك المرأة صديقة صاحبه، وهنا قام تانباي بعرض كتحية للجمهور، ويداه مرتفعتان إلى الأعلى كمنتصر أول في السباق، ومن جديد ضج المكان بطوله وعرضه بصوت واحد، يبارك نصر تانباي وغولساري بكلمة «آمين» ومن جديد ارتفعت مئات الأيادي إلى الجباه وانخفضت، وهي تمسح على الوجوه بأكفها كمياه الشلال المنحدر.

هنا وبين الوجوه الكثيرة، شاهد الرهوان فجأة وجه تلك المرأة، التي عرفها يوماً ما، حين مسحت بكفها على وجهه ورقبته رغم أنها الآن ترتدي منديلاً لا يشبه المنديل السابق، بل كان على شكل شال نصف أسود، وهي في فستان أبيض، وتقف في الصف الأول للحضور سعيدة ومسرورة، تنظر بلا انقطاع نحوه، ونحو صاحبه بعينين لامعتين كالأحجار تحت شلال ماء نهري سريع.

مد غولساري رقبته عالياً نحوها حسب عادته، ووقف أمامها حتى تتحدث مع صاحبه كعادتها وحتى تمسح على عرفه ورقبته بأصابعها الناعمة، وبيديها الجميلتين اللطيفتين والحساستين، كشفاه تلك المهرة الشابة ذات النجمة البيضاء فوق جبهتها، ولكن تانباي شد المقود في اتجاه آخر لسبب ما، ولكن الرهوان استدار ولف حول نفسه في دوائر، مصمماً على المثول بين يديها من دون أن يفهم تانباي لماذا يتصرف الرهوان هكذا، فربما كان يعتقد أن صاحبه لم يرها بين الجمهور أو لم يتوقع أن تكون هذه المرأة هنا وهو يعرف شغف صاحبه بها، ومن الضروري أن يتحدث معها؟...

☆☆☆

وفي اليوم التالي، أي الثاني من أيار، كان يوماً رائعاً لغولساري أيضاً، ففي هذا اليوم، قامت مباريات في السهوب حيث جرت لعبة

«اختطاف الكبش» وهي مباراة تشبه لعبة كرة القدم ولكنها على الخيول، وفي هذه اللعبة، يوضع الكبش المذبوح مقطوع الرأس مكان كرة القدم في الوسط، والكبش مريح لهذه اللعبة، لأن تيلة صوفه طويلة وقوية، ومن الممكن أن يتم إمساكه من إحدى قوائمه، أو من أحد قرنيه، ويكون الفارس فوق حصانه، ومن الممكن خطفه بحركة رشيقة من أحد المتنافسين من جلده، ومن جديد امتلأ جو السهوب بالهتافات والنداءات والصراخ حسب العادات القديمة، بينما أخذت تقرع الطبول بشدة، وكانت هذه اللعبة تحظى باهتمام كبير، حيث يشارك المشجعون من أهالي القرى والسوفخوزات والكولخوزات، وهم يهتفون ويصرخون حول اللاعبين الذين يعجبونهم.

ومن جديد، عاد ليظهر غولساري بطل اليوم الثاني، وفي هذه المرة، وبعد أن تمت إحاطته كصقر لمجد البارحة من جديد، تمكن وبقدرة خارقة أن يكون أقوى حصان في هذا السباق، وكان صاحبه يحافظ عليه من أي أذى من بعض الأحصنة الكبيرة المخضرمة، حتى نهاية المباراة، حيث تبدأ مرحلة الأمان «بايغو» ويصبح من الممكن أن يعطى اللاعب حرية اختطاف الكبش: ومن يكون قوياً ومرناً وسريعاً، بإمكانه أن يخطف الكبش إلى قريته، وكان الجميع ينتظرون لحظة الأمان بايغو، لأن هذه اللحظات هي أمتع فترة في السباق، وبإمكان كل فارس أن يشارك في هذه المباريات، ويجرب حظه.

أما شمس أيار القوية في هذه الأيام، فقد بسطت أشعتها، وبكل حرية فوق أراضي المنطقة، وخاصة فوق أراضي كازاخستان الشاسعة. وبدت الشمس كصفار البيضة كثيفاً وجامداً في قرص

السماء، حتى كان من الممكن النظر إليها من دون أن يطبق الإنسان عينيه، أو يضيق فتحتيهما حتى المساء. استمر القرغيزيون والكازاخيون في مباراتهم وهم يمتطون جيادهم ويتحلقون على السروج، وينحنون هابطين إلى جانب خيولهم حتى يخطفوا الكبش من الأرض، ثم يشد كل واحد الكبش حتى ينتزعه من منافسه، وكانوا يتجمعون في بعض الوقت في كومة هائلة، وينفضّون مجرد أن ينجح أحدهم في اختطاف الكبش، فيأخذون بالصراخ والنداءات المتضاربة، وحين امتد الظل طويلاً في السهول، اتخذ الكبار قراراً بإنهاء المباراة، وبداية الأمان «بايغو»، فوضعوا الكبش في وسط الدائرة الكبيرة «الأمان!»، ثم هب الخيالة من كل صوب مندفعين نحو الكبش المرمي فوق الأرض، وتجمعوا في كتلة واحدة، وكل منهم يحاول أن يخطف الكبش عن الأرض، ولكن في ازدحام الخيل كان من الصعب أن ينزل واحد عن ظهر حصانه، لأن الخيول تدور بجنون، وتعض بعضها غضباً مكشرة عن أسنانها، أما غولساري فلقد ضاق ذرعاً من هذا الازدحام ومن الخيول المخضرمة الشريرة، كان يلزمه فضاء فسيح حتى يقدر على الحركة والمناورة، أما تانباي فلم يتمكن من أن يخطف الكبش، وفجأة دوى صوت هائل: «أمسك - وأخذ الكازاخيون الكبش!»، إذ انطلق من دائرة الخيول شاب كازاخي يرتدي سترة ممزقة، ويمتطي جواداً بندقي اللون، وقد توحش من كثرة الازدحام، فابتعد الفارس مسرعاً وهو يحمل الكبش تحت رجله في الركاب، ويشده بإحدى قوائمه من الأعلى، بينما أخذ الناس يصرخون، وهم يركضون: «أمسكه! ذلك البندقي، أسرع يا تانباي، أنت وحدك بإمكانك أن تلحق به».

أما الشاب الكازاخي الذي يمسك بالكبش المتدلي إلى جانب

السرج، كان يرمح بحصانه الجامح البندقي الذي أخذ يلمع لشدة تعرقه تحت أشعة الشمس، وابتعد مباشرة إلى الغرب نحو الأفق الذي تنحدر إليه الشمس، وبدا للناس كأنه يلزمه بعض الوقت حتى يقفز عالياً ويسقط في حضن الشمس قبل مغيبها، وينبعث من هناك دخاناً أحمر. لم يتفهم غولساري، لماذا يشد صاحبه لجامه بهذا الشكل القاسي، ولكن الخيال تانباي، كان يعرف أنه من الضروري منح الفارس الكازاخي فرصة للخروج من معمعان الصراع مع الفرسان الآخرين، وأن يبتعد قليلاً عن أنصاره وكذلك عن أعدائه، وساعتئذٍ سيجد تانباي الفرصة المناسبة للحاق به والدخول معه في معركة ثنائية، وسيسيطر على الكبش، ولن يكون بإمكان أحد أن يلحق بالرهوان.

انتظر تانباي اللحظة المناسبة وأطلق العنان للرهوان كلياً، فاقتحم غولساري الحصان المتجه نحو الشمس، وأصبح وقع الحوافر والأصوات من خلفه تضج بعيداً نسبياً، حتى ازدادت المسافة بينه وبينهم، وأخذت المسافة بينه وبين الحصان، الذي أمامه تقصر تدريجياً، ولم يعد اللحاق به يحتاج إلى جهد كبير، فوجه تانباي الرهوان نحو الجهة اليمنى من الحصان البندقي الذي ارتفع شخيره تحت ثقل حمل الفارس والكبش في آن واحد، وكان الخيال قد وضع الكبش تحت الركاب المشدود جيداً برجله اليمنى، وها هو الرهوان يلحق بخصمه ويسير بمحاذاته من اليمين، ولحظتها انحنى تانباي عن سرج حصانه، وهمَّ ليخطف الكبش من رجله، ويرفعه إلى سرج حصانه، ولكن الكازاخي، حوّل الكبش من الجهة اليمنى إلى اليسرى بحركة سريعة وشبه سحرية، أما الحصانان فقد استمرا بالعدو في نفس الاتجاه نحو الشمس، وهنا كان على تانباي أن يخفف

من سرعة الرهوان حتى يأتيه من الجهة اليسرى، كان من الصعب على تانباي أن يكبح جماح الرهوان حتى يخفف من سرعته، بعد عناد من جانب غولساري، تمكن أخيراً من أن يلحق بخصمه من الجهة اليسرى، وكاد تانباي أن يخطف الكبش، ولكن الكازاخي، كرر المناورة وحوّل الكبش من الجهة اليسرى إلى اليمنى، فصرخ تانباي بصوت غاضب:

- يا لك من خيال عنيد! ولكن لن يدوم ذلك طويلاً، انتظر!

استمر الحصانان بالعدو، بكل ما أوتيا من قوة نحو الشمس، ولم يعد تانباي للمخاطرة ثانية على هذا المنوال، بل قرر أن يهجم مباشرة على الفارس الكازاخي، فقرر أن يضرب الحصان الذي يعدو أمامه بصدر الرهوان مباشرة، ومن الممكن ساعته أن يرميه أرضاً مع الكبش والخيال، وهذا ما فعله، إذ شب الرهوان بصدره مباشرة على جانب سرج الحصان الكازاخي، فحاول الأخير أن يبتعد، ولكن تانباي لم يتركه، ومما ساعد غولساري في هذا، تلك المرونة والحذاقة، اللتان يمتاز بهما فاضطر تانباي أن ينام إلى الأمام على رقبة الحصان البندقي، وأمسك بإحدى قوائم الكبش، وأخذ يشده باتجاهه من الجهة اليمنى، ومما ساعده أيضاً أن يديه كانتا محررتين من كل شيء، وهنا تمكن تانباي، من أن يسحب الكبش من تحت الكازاخي حتى النصف: فصرخ به تانباي:

- تمسك، إياك أن تقع أيها الأخ الكازاخي!

- أنت خاطئ أيها الجار! لن أعطيك إياه! - أجاب الكازاخي، وبدأت المعركة بين الفارسين على صهوتي جواديهما الجامحين، وهما يركضان بأقصى سرعتهما، ولقد تمسك كل واحد بالآخر، بما أوتي من قوة، بقائمة أو جانب من الكبش، وبدا الاثنان كصقرين

متناحرين على صيد واحد، وهما يصرخان ويشتمان بعضهما، وهما يشخران ويزمجران كالأسود المفترسة حتى يخيفا بعضهما، وتشابكت أصابع أيديهما، حتى أخذ الدم ينزف من تحت أظافرهما، أما الحصانان، فالتحما كلياً في عدو متساوٍ مع التحام الفارسين، وهما يسرعان للوصول إلى الشمس الملتهبة، وهي تمجد البطولة والرجولة والشجاعة!

أصبحت جثة الكبش بين الاثنين، وكان الاثنان يمسكان بها على درجة واحدة، وهما على حصانيهما الجامحين، فاقتربت النهاية، وكان كل منهما يشد على أسنانه بأعصاب متوترة، وهو يريد انتزاع الكبش نحوه، محاولاً أن يضعه تحت أحد الركابين لحصانه، ويغادر إلى الجهة التي يرغب بها، وكان الكازاخي قوياً، ويداه أقوى من يدي تانباي، زد على ذلك أنه كان شاباً بالمقارنة مع تانباي، ولكن الخبرة مسألة عظيمة، فاستطاع تانباي فجأة تحرير رجله اليمنى من الركاب، ودفع بها جانب الحصان البندقي، وهو يضاعف من شده للكبش، وهنا، وتحت هذه القوة، أفلت الكازاخي أصابعه عن الكبش، فصرخ به تانباي محذراً:

- تمسك، لقد أتتك الركلة القاضية، وهنا، كاد الكازاخي أن يقع على الأرض، إذ بقي فوق سرج حصانه بصعوبة، ولكنه أطلق صرخة غريبة من صدره، بينما استدار الرهوان بمرونة فائقة، وانطلق بسرعة لا تدرك، أما تانباي، فقد تمكن من أن يضم الكبش إلى جانب الحصان تحت الركاب الأيمن، بعد هذه المعركة الثنائية الشرسة، ولكنها جميلة! وهنا هب خيالة القرغيز يمجدون غولساري وتانباي بأبواق وأصوات عالية وطبول صاخبة وهم يرددون: غولساري، غولساري، قد انتصر غولساري!

تجمهر الكازاخيون في مجموعة كبيرة، واندفعوا للتشاجر مع القرغيز، ولكن العقلاء تمسكوا بالكازاخيين مانعين وقوع أي صدام، بينما كان يصرخ الفارس الكازاخي:

- امسكوا به، طوقوه من كل جانب، امسكوا تانباي!

أما تانباي، فكان حذراً من أن يقع في صدام آخر مع أيّ كان، ولاسيما أن أهل قريته قد شكلوا سداً منيعاً حوله، حتى لا يصل أحد من الفرسان المنافسين إليه، وهنا التف تانباي من جديد بحصانه الرهوان إلى جهة أخرى، وانطلق بعيداً عن الخيالة الذين حاولوا اللحاق به، وأخذ يردد في نفسه: «شكراً لك يا غولساري .. شكراً لك يا عزيزي الغالي الذكي!» واستمر يمجد بالرهوان عندما كان يحس بذكاء، وهو يتلوى كالمحارب المجرب في المعركة، ويقترب ويبتعد كما يجب، وفي لحظة ما، شعر أن الرهوان سيسقط على الأرض، ولكنه تمكن من أن ينطلق بقوة جديدة ويحقق السبق البديع بسرعة ورشاقة رائعتين، وهنا هبّ أهالي القرية جميعهم للقاء غولساري وصاحبه، وأغلقوا كل المنافذ المؤدية إليهما، وتكاتفوا ماسكين اليد باليد، ومانعين أي اختراق من جانب فريق الكازاخيين، ولاسيما من الخلف، ولكن السباق عاد من جديد بين جماعات أخرى، ومن جديد كان لابد من المناورة، والعودة والمغادرة بسرعة، كما تناور أسراب الطيور السريعة في الفضاء، والتي تتحول في طيرانها من جناح لجناح، وهكذا انقسم الخيالة في سباقهم في السهوب الفسيحة: خيالة في المقدمة، وآخرون يلحقون بهم وهم مدبرين، وفي الفضاء، احتدم الغبار الكثيف، واعتلت الأصوات على اختلافها، فهناك صوت من وقع مع حصانه، وهناك من طار من فوق رأس حصانه وتدحرج، وهناك من يعرج ويحاول أن يلحق بفرسه، لقد

كان كل من شارك في هذا الاحتفال منشغلاً ومنسجماً مع ما يمارسه بكل حماسة وإعجاب في هذه السباقات، وليس من مسؤول في هذه الألعاب، وعند المخاطرة والشجاعة لا تخاف إلا الأم...

☆☆☆

بقي للشمس وقت قليل للمغيب، إذ أخذت تنظر من طرف جزئها العلوي، ثم اختفت، وعمت الظلمة، والأمان «بايغو» ما زال قائماً على أشده، وكل شيء أخذ يزداد حدة مع برودة السماء الزرقاء، وحوافر الخيل تدك الأرض، وتمنعها من النوم. لم يعد أحد يصرخ بصوت عال، ولم يطارد أحدٌ أحداً، ولكن الجميع كانوا مستمرين بالعدو حباً بتمارين هذه الرياضة البديعة فوق هذه الرقعة الواسعة من الأرض التي أخذ يندس إليها الظلام من جهة الجبال، ويقتحم جبالاً أقرب حسب إيقاع وموسيقا السباقات المتتالية، وليس بهذا كانت وجوه الفرسان واجمة ومركزة على شيء ما في الأفق مستطلعين تلك الإبداعات في الطبيعة، التي مجدت عبر التاريخ تلك الأصوات والميلوديا إلى هذه الطبيعة الرائعة التي أبدعت الإيقاعات الجميلة لآلة الدومبرا الكازاخية الموسيقية، وآلة الكوموز القرغيزية!...

لقد اقتربنا من النهر الذي يندفع إلى الأمام حزيناً ليختفي خلف النباتات الطويلة عند حوافه، وبقي قليل من الألعاب خلف النهر، وساعتها سينتهي كل شيء. أما عند بداية القرية، فقد استقبل الأهالي تانباي وحصانه غولساري، ومن حوله التف خيالة القرية يحمونه من أي هجوم من الخيالة الآخرين الذين ما زالوا في أوج حماستهم، وسار الرهوان غولساري في الوسط كالقارب الأساسي تحت الحماية.

كان غولساري قد تعب جداً، لأن اليوم كان صعباً للغاية، وقد

استنفد كل قواه، حيث أخذ مقوده فارسان، وراحا يشدانه إلى الأمام حتى لا يسمحا له بالسقوط، أما الآخرون فكانوا يحرسون تانباي من كل الجوانب ولاسيما أنه كان يغطي الكبش بصدره فوق مقدمة السرج، وكان رأس تانباي يلوح يمنة ويسرة، وبالكاد صمد في وضعه فوق صهوة جواده الرهوان، ولو لم يكن حوله الخيالة المرافقون والمشجعون له من أهل القرية، لما صمد هو، ولا حصانه في وضع يخوله بالمسير، وهكذا كان من الأفضل أن يغادرا السباق في الوقت المناسب، وبهذا أصبح من الممكن إنقاذ الجريح، حتى لا يقع في الأسر، وهذا هو النهر يبدو أمامنا، وهذه الهضبة الرائعة على ضفته، وهذه البركة ذات الحصى ما زالت رؤيتها ممكنة حتى في الظلام.

رمى الخيالة أنفسهم عن سروج خيولهم في الماء مباشرة، فعمت الحياة الصاخبة في النهر، وتعالت المياه المتناثرة من ضربات أيدي وأرجل الفرسان المستحمين في مياه النهر الصافية، وهنا انطلقت صيحات الجميع وهم يساهمون بجر الرهوان إلى الضفة الأخرى، إذ تنفس الجميع الصعداء، وانتهى كل شيء بعد أن تحقق النصر! وثمة شخص قوي، أخذ الكبش عن سرج رهوان تانباي وانطلق به مسرعاً إلى القرية.

أما الكازاخيون، فقد توقفوا على الضفة الأخرى، فخاطبهم القرغيزيون قائلين ومرحبين:

- شكراً لكم على هذه الألعاب الجميلة! فأجاب الكازاخيون:

- كونوا سعداء! وسنلتقي في الخريف القادم! - واستداروا بخيولهم عائدين.



حلت الظلمة في كل مكان. جلس تانباي في ضيافة أولئك الذين جهزوا الوليمة من كبش «البايغو»، أما الرهوان فقد كان يقف كغيره من الخيول في الساحة مربوطاً، وكانت هذه هي المرة الأولى التي يتعب فيها الرهوان غولساري لهذه الدرجة، وهل كان هذا اليوم هو الأول الذي يجتهد فيه، ولكنه آنذاك كان صغيراً بالمقارنة مع وضعه الحالي، وفي أكثرية بيوت القرية كان الحديث يدور حول غولساري في تلك الأمسية، وغالباً ما رفعت الكؤوس من أجل صحته، وقال أحدهم:

- تعال يا تانباي نشرب كأس صحة غولساري: ولو لم يكن هو معنا اليوم، لما رأينا النصر نهائياً، فأضاف آخر:

- حقاً إن ذلك الحصان البندقي، كان حصاناً قوياً كالأسد، وهذا الشاب الخيال صاحبه كان شاباً قوياً، وسوف يحققان نجاحات كبيرة في المستقبل، فأجاب تانباي:

- نعم، هذا حقاً! إن الحصان قوي للغاية، وتتراءى أمام عينيّ الآن، كيف كان غولساري يبتعد عن المحاصرة، حتى إنه كان مرناً كالعشبة في مهب الريح، وينال إعجاب الجمهور لدرجة أن الإنسان يحبس أنفاسه أمام هذه المقدرة.

- إن الكلمات تعجز عن وصفه، ففي غابر الأزمان، كان هذا الرهوان يساوي مقدار وزنه ذهباً وأكثر، إنه ليس حصاناً وحسب، بل هو أعجوبة أسطورية «دولدول»(*).

- قل لي يا تانباي، متى ستسمح له أن يلقح الإناث من الأمهار؟ فأجابه تانباي:

- إنه جاهز الآن لهذا الأمر، ولكن ما زال الوقت مبكراً. ربما

(*) دولدول - حصان سبق أسطوري.

سأسمح له في بداية الربيع القادم، آنذاك سيكون الوقت مناسباً، وفي الخريف سأتركه حراً، حتى ينضج كلياً...

استمر الناس في تلك الأمسية يتبادلون كلمات الإعجاب بهذا السباق، ولاسيما في مرحلة الأمان «بايغو»، وميزات الرهوان غولساري، أما هو فقد كان يقف إلى جانب البيت يجفف عرقه، ويلوك لجامه. كان عليه أن يصوم حتى طلوع الفجر، ولم يتعذب الرهوان من الجوع، بل كان الألم في كتفيه، هو الذي يوجعه، وأطرافه كانت متشنجة، وحوافره تشتعل من الحرارة، وفي رأسه، كان ما يزال الضجيج وصخب السبق، ولاسيما مرحلة الأمان «بايغو»، وكان يعيش بكل أحاسيسه ذلك الصراخ والمطاردة، حتى كان يرتعد من لحظة لأخرى متوتراً مع بعض الأنين والصهيل وهو يرفع أذنيه إلى الأعلى: كان يرغب أن يضطجع على العشب ويتدحرج يمنة ويسرة وينتفض حتى يشعر بالنشوة بين الخيول، ويفرغ شحنته في سهل المرعى، أما تانباي فقد تأخر عليه.

بعد لحظة، خرج الرهوان وهو يترنح في الظلمة، أما تانباي، فقد فاحت منه على الفور رائحة الفودكا الحادة واللاذعة، ونادراً ما كان يحصل هذا بالنسبة إليه سابقاً، وبعد عام، سيكون الرهوان تحت رعاية شخص آخر، وستفوح منه هذه الرائحة دائماً، وساعتها سيكره الرهوان هذا الإنسان وهذه الرائحة الحادة، التي تفوح من صاحبه الآن.

اقترب تانباي من حصانه الرهوان، وأخذ يربت على عنقه، ومد يده تحت لباد السرج الذي امتص كمية من العرق، وأخذ يتكلم مع حصانه:

- هل ارتحت قليلاً؟ إنك تعبت اليوم؟ فأنا أيضاً قد تعبت بصورة

جهنمية، أما أنت فلا تحرف أنفك بعيداً عن رائحتي، فاليوم عيد، وشربت كأساً عندما رفع الحضور كأس صحتك، فلا تنزعج، فأنا أعرف حدودي. لقد فزت أنت بالمرتبة الأولى وحصلت على المجد، وكان العيد عيدك، ودوري وحصتي من هذا قليلة بالمقارنة معك، فأنا أعرف دوري، وعليك أن تنتبه جيداً أنني عندما كنت في الجبهة خلال الحرب، كنت أعرف حدودي والمقدار الذي أشربه، فلا تورب وجهك عني، ولا تتدلل يا غولساري، فدعنا من هذا الحديث الآن، وهيا بنا نذهب إلى القطيع ونستريح...

شد تانباي حزام حصانه تحت البطن، وهو يتحدث مع أناس آخرين خرجوا من البيت لوداعه، وهكذا جلس الجميع على سروج خيولهم، وانطلقوا في اتجاهات مختلفة.

انطلق تانباي مع حصانه الرهوان في طرقات القرية النائمة، وكان الجو هادئاً من حوله، والنوافذ مظلمة وثمة قرقعة ضجيج مسموعة من عمل جرار في الحراثة في السهول القريبة، أما القمر فقد صعد عالياً فوق الجبال، وفي الحدائق اكتست أشجار التفاح بفستان أزهارها البيض الجميلة، وفي حديقة متنوعة الأشجار، أخذ يصدح شدو بلبل حزين، ربما كان وحيداً في كل القرية، ولذلك أخذ يغني بنفسه بصوت خفيف، ويعود للغناء ثانية بصوت أقوى قليلاً، كأنه أحب أن يستمع لغنائه.

- يا لروعة هذا! - قال تانباي بصوت عالٍ! - فما أروع الهدوء، الذي يعطي الإنسان فرصة لسماع صوت البلابل، وهنا لا يوجد من مغنٍ آخر غير البلبل، فهل تفهم يا غولساري شدو البلابل؟ فأنت تريد الذهاب إلى القطيع الذي تحبه، أما أنا، فإلى أين؟...

مر تانباي وغولساري من جانب محل حدادة البيطار، ومن

هناك، كان من الضروري التوجه إلى الطريق الفرعي نحو النهر، ومن هناك إلى القطيع، ولكن تانباي اتجه إلى طريق آخر، وهو الوسط بين الاثنين وتوقف في نهايته عند الساحة التي تعيش بجانبها تلك المرأة، فركضت الكلبة التي كانت تلعب مع الطفلة آنذاك. نبحت قليلاً، ثم صمتت وأخذت تلوح بذيلها. صمت تانباي فوق سرجه، وفكر بشيء ما. تنهد بحسرة، وشد مقود الحصان من دون تصميم.

انطلق الرهوان، فوجهه تانباي نحو النهر، وخرج إلى الطريق وركل جانبي الحصان بكعبي حذائه، أما غولساري فقد كان ينتظر هذا حتى ينطلق بسرعة، كي يصل إلى المرعى بأسرع ما يمكن، فاختصروا الطريق عبر الهضبة، وحوافر الحصان أخذت تتبلل بمياه ضفة النهر البارد، وهنا أمسك تابناي المقود ونتره بقوة، فلاح غولساري برأسه، وفكر أن صاحبه قد أخطأ، ولم يكن يعتقد أنه يجب عليهم أن يعودوا، فكم من الممكن لهم أن يسيروا، ولكن تابناي ضرب الحصان بالسوط على جانبه، أما غولساري، فكان يكره عندما يضربه أحد ما، وللتعبير عن غضبه، أخذ يصرك أسنانه بحديد اللجام، ورغماً عن إرادته، خضع لأوامر صاحبه، واستدار للخلف مرة أخرى عبر الهضبة، حتى سار على الطريق ثانية، إلى تلك الساحة، حيث تعيش صديقة تانباي.

عند بيتها، احتار ماذا سيفعل في سرجه، فأخذ يشد اللجام يمنة ويسرة، ولم يدرك الحصان ماذا يريد صاحبه. فتوقفا عند البوابة، ولم تكن هناك بوابة فعلية، لأن كل ما تبقى منها، عمودان منحنيان على جانبهما، ومن جديد جاءت الكلبة الصغيرة، فعوت قليلاً، وصمتت وهي تلوح بذيلها، وفي البيت كانت تعم الظلمة والسكون، إلا أن تانباي سمع صوتاً من داخل البيت.

ترجل تانباي عن سرج حصانه، وسار في ساحة المنزل، وهو يقود حصانه الرهوان من مقوده، واقترب من النافذة، ونقر بإصبعه على الزجاج، فجاء صوت من الداخل:

- من هناك؟

- هذا أنا، افتحي يا بيوبيوجان.. أتسمعين هذا أنا!

اشتعل مصباح في البيت، وأنار ما بداخله، وجاء صوت بيوبيوجان، التي أخذت تقول:

- ماذا حصل لك؟ فمن أين أتيت في هذه الساعة المتأخرة من الليل، حيث كانت ترتدي ثوباً أبيض، بينما كانت ياقته مفتوحة، فانسدل شعرها الأسود المنثور على كتفيها، وفاح منها أريج الجسد الأنوثي الدافئ، ورائحة عطر آخاذ لعشبة مجهولة ونادرة، فقال تانباي بصوت بطيء:

- أرجوكِ، سامحيني يا بيوبيوجان، لقد عدنا الآن من حفلة سباق الأمان، وتعبت جداً والحصان قد كَل جهده، فمن الضروري أن نربطه قليلاً حتى يستريح، أما القطيع فهو بعيد من هنا، وأنت نفسك تعرفين ما الباقي.

التزمت بيوبيوجان الصمت، ولمعت عيناها، ثم خفت نورها كالحصوة في أعماق المياه النهرية. انتظر الحصان لحظة اقتراب السيدة منه، وأن تمسح كعادتها فوق رقبته، ولكنها لم تفعل هذا، وكل ما فعلته، أنها جمعت كتفيها، وقالت بصوت خافت:

- الطقس بارد، ماذا بك تقف في مكانك؟ ادخل إلى البيت طالما قدمت، ثم ضحكت بهدوء، فأنا قد مللت الانتظار لك، حتى سمعت وقع حوافر حصانك كمهر صغير، فأجابها تانباي:

- انتظري قليلاً! سأربط الحصان.

- اربطه هناك عند الممر.

لم يشعر تانباي في يوم من الأيام، كما شعر اليوم برجفان في يديه، فأسرع في نزع اللجام، ثم أخذ يحل أحد الحزامين، وأبقى على الآخر، إذ نسيه من السرعة، ودخل معها إلى البيت، ثم انطفأ النور من خلف النوافذ بعد قليل من الوقت.

أما بالنسبة للحصان الرهوان، فهو لم يتعود أن يكون وحيداً في أي مكان كان، ولاسيما في الأمكنة، التي لم يألفها من قبل.

أخذ القمر يظهر من الأفق، ويشع بنوره بقوة في تلك الليلة. رفع غولساري عينيه فوق النافذة القريبة منه، فشاهد الجبال في لون دخاني هادئ تحت جناح الليلة القمرية المنارة بشعاع صاف كلون الحليب الخفيف الممزوج مع ظل أزرق خفيف، فركز الرهوان انتباهه، وأصغى السمع، فترانت إلى مسامعه أصوات خرير المياه في النهر القريب، بينما كان يقرقع في السهول البعيدة نسبياً، جرار الكولخوز بشدة، وهو يحرث الأرض، وفي الحديقة القريبة كان يستمر شدو ذلك البلبل الوحيد.

ومن غصن شجرة التفاح القريبة، أخذت تتطاير وريقات ناعمة من زهر التفاح الأبيض، وتتساقط بهدوء فوق عرف ورأس الرهوان، كأنها تهنئه بالفوز في سباق اليوم.

كانت ليلة صافية مضاءة، بينما استمر الرهوان في وقوفه، وهو ينقّل قوائمه التعبة بين الحين والآخر، بعد يوم شاق من المعاناة. كان هو يقف وينتظر بصمت وصبر صاحبه، ولم يعرف أو يتوقع أن قدره سيحكم عليه أن يقف هنا ليلة كاملة، وربما أكثر من ذلك. عند الفجر خرج تانباي، وأخذ يمسح على رقبة الرهوان بيديه

الدافئتين، والآن ومن جديد عادت هذه الرائحة العطرية للعشبة النادرة تفوح عند أنف الحصان.

خرجت بيوبيوجان لوداع تانباي، فضمت نفسها إليه، أما هو فقد قبلها طويلاً، بينما قالت مازحة:

- لقد خدشت شفتي بشاربيك الخشنين كقشر القنب، ثم أضافت قائلة:

- أسرع، انظر لقد عم نور الصباح، واستدارت حتى تعود إلى البيت، فناداها قائلاً:

- بيوبيو اقتربي إلى هنا، أرجوك أن تمسحي على رقبة الرهوان بحنان، أرجوك أن لا تزعجي مزاج غولساري، إنه يحب لمسات يديك! فضحكت هي بمرح، ثم قالت:

- آه! حقاً أنني نسيت هذا، أنظر كيف امتلأ عرفه ورأسه بزهر التفاح الأبيض، وأخذت تردد كلمات جميلة وناعمة، وهي تمسح على رقبة الرهوان بيديها الناعمتين الرائعتين المرنتين اللتين تشبهان شفاه تلك المهرة الشابة التي على جبهتها نجمة بيضاء.

قطع الراعي تانباي وحصانه النهر، وهناك أخذ يغني بسلالة، وانطلق الرهوان مسرعاً، حالماً بالوصول بأسرع ما يمكن إلى القطيع في المراعي.

كان تانباي محظوظاً في هذه الليلة من شهر أيار، ومنذ هذه الليلة بدأ دوره في الحراسة الليلية، وكذلك بدأت الحياة الليلية بالنسبة للرهوان، ففي النهار كان يمضي الوقت في المرعى ويستريح، وفي الليل وبعد أن يقوم تانباي بسوق الخيول إلى الوهدة، يرمح على ظهر حصانه إلى ذلك البيت، الذي ألفه وعند الفجر وقبل أن تتقشع الظلمة، يعودان مسرعين من حيث أتيا إلى الخيول التي أبقوا عليها في

الوهـدة، فيقـوم الراعي تانبـاي بسـوق الخيـول، وإحصـاء عـددها حتـى لا يفقـد منهـا أي حصـان، وعنـد ذلـك يسـتقر ويطمـئن، أمـا بالنسـبة للرهـوان، فقـد كـان يتعب أكثـر مـن الآخـرين، فبالإضـافة إلى العمـل مع القطيع، كـان صاحبه يرمح بين نقطتين بعيـدتين عـن بعضـهما، ألا وهما، المرعى في الجبال من جهة، والكولخوز مـن جهـة أخـرى، وهـذه المسـافة ذهابـاً وإيابـاً، ليسـت بـالأمر السـهل، وتقـدر بعشـرات الكيلومترات، ولكن هكذا كان يعجب المالك.

أما غولساري، فقد كـان يرغب بشيء آخر، ألا وهو، ولو كـان الأمـر بيـده، لما ابتعـد نهائيـاً عـن القطيـع، فلقـد نضـج فيـه الجانـب الغريزي كلياً، وتمكن من التعايش خلال الفترة الماضية مع الحصـان المتـوحش، وغالبـاً مـا كانـا يصـطدمان مـع بعضـهما، وخاصـة عنـدما يلتقيان عند فرس واحدة، وكان الرهوان يحني رقبته بشـكل قـوس، ويرفـع ذيلـه للأعلـى، ويتـبختر أمـام القطيـع، ويصـهل بصـوت قـوي، ويقـترب مـن الفـرس، ويعضـها مـداعباً عنـد خصـرها، وكانـت هـذه الحركـات للرهـوان تعجـب الأفـراس وتسـتقطبها طريقتـه في المعاملـة، وبهذا كـان يثير حفيظـة الحصـان الجـامح، وكـان الرهـوان يعـاني مـن هجوم الحصان الشرس وغيرته، علماً أنه أصبح كهلاً، ولكنـه كـان يحب العـراك الخشـن، أمـا بالنسـبة للرهـوان، فكـان يفضـل أن يعـاني مـن خشـونة هـذا الحصـان ومطاردتـه، مـن أن يقـف طـوال الليـل جامـداً أمـام منـزل تلـك المـرأة، حيـث كـان يشـتاق للأفـراس، ويـدق الأرض طـويلاً بحـوافره، ولم يستسـلم للأمـر الواقـع، إلا في سـاعة متـأخرة عندما يفقد الأمل كلياً، فيهدأ قليلاً، ومن كان يعرف، كم ستدوم هـذه الـرحلات الليليـة، لـو لم تحصـل تلـك الحادثـة في تلـك الليلـة، إذ كـان الرهـوان يقـف كعادتـه في سـاحة البيـت مشـتاقاً للقطيـع، وهـو

ينتظر صاحبه طيلة الليل، فأخذه النعاس قليلاً، وحبل العنان كان مربوطاً إلى حامل السقف في الأعلى، وهذا لم يسمح له أن ينام على الأرض نهائياً: في كل مرة يراوده النعاس، يأخذ رأسه بالتأرجح شيئاً فشيئاً، أما اللجام فكان ينغرس في سقف فمه ويؤلمه، ورغم كل ذلك، كان النوم يستقطبه، وثمة ثقل ما كان يتعلق في الفضاء، فالغيوم كانت تتلبد في السماء. في وضع النائم الكسول، سمع غولساري فجأة كيف ارتفع صوت حفيف الأشجار بصورة صاخبة كأن جباراً ما أمسك بها وأخذ يهزها قاصداً إطاحتها على الأرض، وهبت رياح قوية عبر ساحة البيت، ودحرجت المحلاب الفارغ، فأصدر قرقعة صاخبة، ونزع الثياب المغسولة المعلقة على الشريط، وأخذت الكلبة تعوي، وتبحث عن مكان آمن، أما الرهوان فقد شخر بقوة، وجمد في مكانه مشنفاً أذنيه، وركن برأسه جانباً، وأخذ يتابع النظر بانتباه في تلك الظلمة، التي أخذت تحل بكل ثقلها الداكن، وكان نظره مركزاً نحو الحقل الفسيح الذي تأتي منه الرياح الواعدة، وفي اللحظة الثانية من هذه الليلة، أخذ الرعد يقصف بشدة، وأنار البرق معالم الغيوم في السماء، وأخذ يهطل بغزارة، وهنا أخذ الرهوان يحاول الهروب من مكانه وكأنه يهرب من لسع السياط، وعندما يأس من الهروب، صهل بقوة خائفاً على قطيعه، فلقد استيقظت فيه الغريزة الكونية لحماية جنسه من الخطر، ولقد دعته الغريزة أن يذهب إلى هناك على طرف من السرعة لمساعدة جماعته، وأخذ يحاول بقوة أن ينزع اللجام من فمه، ويقطع المقود، وكل ما يعيق حركته، ويمنعه من المغادرة، وأخذ يرقص في مكانه رقصة التمرد على القيود، ويحفر الأرض بحافريه الشديدين، ولم يتوقف عن الصهيل لحظة، عله يسمع إجابة من واحدٍ أو واحدةٍ من قطيعه،

ولكن العاصفة كانت تمنع كل شيء بصفيرها الشديد، آه!، لو تمكن ساعتئذ من أن يتحرر من قيوده!...

خرج تانباي بقميصه الأبيض الداخلي، ثم خرجت المرأة خلفه أيضاً بثوب أبيض، وخلال لحظة تبلل الاثنان تحت المطر، وبدا على وجهيهما الخوف، وعكس البرق ذلك الرعب في عيونهما، وهو يشع على قسم من البيت، وبدا الباب، وهو يتحرك يمنة ويسرة تحت وقع الريح الشديد.

قف! قف! صرخ تانباي نحو الحصان، وهو يشد حتى يقطع الرباط، ولكن الرهوان لم يعره انتباهاً مطلقاً، وخرج عن طوره كلياً، وحاول أن يفلت حتى يهجم على صاحبه كالوحش، ويكسر بحوافره كل ما حوله، وتابع يعاند ويشاكس بقوة حتى يتحرر من رباطه، أما تانباي فقد أخذ حيطته، والتصق بالجدار، وتسلل إلى الأمام شيئاً فشيئاً، وهو يحمي رأسه بيديه، حتى تمكن من الإمساك باللجام، وهو يصرخ مخاطباً المرأة:

- أسرعي! فكي المقود!

قامت هي بما أمرها به، وما إن حلت العقدة، حتى انطلق غولساري جاراً خلفه تانباي عبر ساحة البيت.

- هاتي السوط بسرعة!

هرعت بيوبيوجان مسرعة، حتى تأتي بالسوط.

- قف، قف، سأقتلك! - أخذ يهدد تانباي الحصان، ولكن استخدام السوط وضرب الحصان على وجهه، جعله يحتد أكثر، وكان على تانباي أن يعتلي صهوته، وأخذ يعدو على جناح من السرعة متجهاً إلى القطيع، وهو يتساءل، ماذا حدث هناك؟ وبما أحس غولساري بشيء، حتى خرج عن طوره، وإلى أين طردت العاصفة قطيع الخيول؟

أما الرهوان، فلم يكن على استعداد أن يفكر بأي شيء، إلا أن يكون الآن داخل القطيع، وبسرعة قصوى أن ينطلق إلى هناك، حيثما أمرته الغريزة الأبدية العملاقة في هذه اللحظة الخطيرة أن يكون، ولهذا كان يصهل، ويقف على رجليه الخلفيتين، ربما لأمر خطير، وأخذ يعاند حتى يغادر فوراً إلى هناك، أما المطر فقد كان يزداد بشدة، والعاصفة أخذت تحتدم من كل صوب، وهي تنير بالبرق كل شيء فوق الأرض، فأمر تانباي بيوبيوجان:

- امسكي! - وفي اللحظة، التي أمسكت فيه اللجام، وثب تانباي إلى فوق سرج حصانه، وانطلق غولساري مسرعاً نحو البوابة، بعد أن سحب المرأة خطوات عدة، ورماها في نقعة الماء التي تكونت على عجل في ساحة المنزل، إثر المطر الغزير. لم يعد غولساري ينصاع للمقود، ولا للجام، ولا للصوت القوي، الذي كان يطلقه تانباي بين الحين والآخر، وكان يعرف الطريق بالعادة، وحسب السليقة الغريزية، فانطلق بكل ما يملك من قوة، رغم إرادة الخيال من فوقه، وقطع النهر رغم المياه الغزيرة، التي تجري فيه، ورغم قرقعة الرعود، وصخب المياه من دون أن يعبأ بالحشائش الناميات على ضفافه، وأخذ ينهب الهضاب والمنحدرات، ولم يكن بإمكان تانباي أن يحد من سرعته، وبدا له كأن حصانه لم يركض سابقاً في السباقات الكبيرة، ولا في ألعاب الأمان «بايغو»، ولم يسرع في حياته مطلقاً، كما يسرع الآن، في هذه الليلة.

لم يتذكر تانباي الآن، كيف حمله الرهوان بهذه السرعة، حتى توقف في مكانه أخيراً، وبدا المطر له بمثابة الوقود الحارقة، التي تعم وجهه وجسمه، وثمة فكرة واحدة كانت تجول في عقله: ماذا حصل للقطيع؟ أين الخيول الآن؟ عسى ألا تكون قد غادرت نحو

السكك الحديدية، وساعتئذ ستكون المصيبة. ساعدني يا إلهي!! فعسى ألا يكون هناك شيء. ساعديني يا «أرباكي»(*)، فأين أنتم في هذه اللحظة الضرورية! احذر يا غولساري أن تقع، فتكسر نفسك وتكسرني معك! لا تقع، واحملني إلى تلك السهول، إلى هناك حيث القطيع! وبين الحين والآخر كانت تنتشر فوق السهوب ومضات إشعاع البرق الشديد كأنها ترغب في أن تضيء الليل بشعاعها الحاد، وبعد برهة، ومن جديد تعم الظلمة، إذ اشتدت العاصفة، وأخذ المطر يتساقط مع الرياح الشديدة بعد نور البرق بقليل كأن الظلمة والنور يتنافسان ويتصارعان من أجل أن يثبت كل واحد منهما ذاته: فإما أن يبقى النور إلى الأبد، وإما أن تعم الظلمة الدامسة بلا نهاية. تعاقب شعاع البرق مع ظلمة دامسة، وتكرر هذا المشهد مرات عدة... فشب الرهوان في مكانه ووقف على رجليه، وأخذ يصهل بشدة، وهو يفتح شدقيه على وسعهما كأنه ينادي ويبحث وينتظر شيئاً ما، ويعود ليصهل من جديد. «أين أنتم يا أولاد جنسي؟ أين أنتم؟ أجيبوا!»، ولم يكن من مجيب على نداءاته إلا هزيم الرعد في السماء، ومن جديد أخذ غولساري يعدو ويبحث، ويقتحم العاصفة. ومرة أخرى، عاد شعاع البرق لينير السهوب، وهو ينذر برعود تهز الكون مع الظلمة من جديد، وبين الرعد والرعد يشع البرق ثانية، وتمحو الظلمة النور...

بعد مدة، هدأت العاصفة، واستقر الطقس نسبياً عند الصباح، بينما أخذت الغيوم تتفرق في السماء، أما الرعود، فقد انسحبت تدريجياً إلى الشرق، حيث كان يأتي صداها متقطعاً كأنه

(*) أرباكي: روح الأجداد المقدسة.

يودع تلك المنطقة منحسراً شيئاً فشيئاً، وأخذت الأرض تتنفس بالبخار الدافئ على شكل دخان خفيف.

من مسافة بعيدة أتت أصوات بعض الرعاة الذين خاطروا بأنفسهم، وأتوا باحثين عن الخيول المبعثرة في السهوب.

أما زوجة تانباي، فلم تبحث عنه، بل انتظرته في الليل بعدما أقلقها الانتظار، وذهبت مع جيرانها راكبين الأحصنة للبحث عنه ومساعدته، ولقد تمكنوا من العثور على القطيع وجمعه في زاوية واحدة، أما تانباي فلم يعثروا عليه بعد، وأخذ يفكر الجميع أنه تاه في هذه الليلة الظلماء، ولكن زوجته كانت تعلم جيداً، أنه لم يته، وعندما صرخ ابن الجيران بفرح: «هذا هو، انظري يا خالتي جايدار، هذا هو زوجك الذي يعدو بسرعة بعيداً هناك!». واتجه الولد يعدو نحوه للقائه، أما جايدار، فلم تتحرك من مكانها، وأخذت تنظر بصمت، وهي تمتطي حصانها، وتفكر بزوجها التائه.

كان تانباي مكفهراً لا ينطق بكلمة ويجلس كجلمود حجري في ثياب مبتلة، حتى الثياب الداخلية، وهو حاسي الرأس، بينما كان الحصان الرهوان يترنح في سيره ويعرج من رجله اليمنى بشدة، فقال الشاب، الذي وصل إليه أولاً بلهجة فرحة:

- إننا قدمنا نبحث عنكم! إذ أخذ القلق من الخالة جايدار مأخذه، فأجابه تانباي بهدوء:

- إيه، أيها الشاب الفتي... لقد تهت.

هكذا التقى تانباي مع زوجته، ولم يقل أحدهما للآخر كلمة واحدة، وعندما ذهب الشاب حتى يقوم بجمع الخيول وردها نحو الحظائر، قالت الزوجة بهدوء:

- ماذا حل بك حتى لم يسعك الوقت أن تلبس ثيابك كما

يجب، حسناً أنك ارتديت سروالك وجزمتك، ألم تستح على حالك؟ فأنت لم تعد شاباً، الأولاد قد أصبحوا كباراً، أما أنت...

التزم تانباي الصمت، وماذا كان من الممكن أن يقول؟

في هذا الوقت، قام الولد بجمع الخيول الكبيرة مع أولادها من دون أن يفقدوا واحداً منها.

نادت جايدار الولد: - لنذهب إلى البيت يا ألتيك. لدينا الكثير من الأعمال، ولديكم أيضاً أكثر، فلقد خربت الرياح اليورتات، وعلينا أن نصلحها.

أما بالنسبة لتانباي، فقد قالت له من بين أسنانها، وبنبرة هادئة:

- عليك أن تبقى هنا، وسأجلب لك الطعام والثياب، فكيف من الممكن أن تظهر هكذا أمام أعين الناس؟ فأجاب بلا نقاش مشيراً بيده:

- سأكون هناك في أسفل المنحدر.

غادرت جايدار مع الولد إلى البيت، بينما انطلق تانباي يوجه القطيع نحو المرعى، وقد استغرق الأمر فترة طويلة، فعم النور ساطعاً من جهة الشرق، وعم الدفء بالتدريج، وأخذ البخار ينطلق من الأرض بحيوية، وانتشرت رائحة المطر والعشب النابت لتوه، كما افترشت الخيول المنحدرات وفوق الهضاب وأخذت ترعى كما يطيب لها كأن العالم قد انفتح أمام تانباي، وهناك في البعيد جداً، كان يمتلئ الأفق بالغيوم البيض الشاحبة حتى بدت السماء من فوقه صغيرة عالية وصافية، وعلى مسافة بعيدة ارتفع دخان قطار ينهب السهوب بسرعة.

ترجل تانباي عن الحصان، وسار فوق العشب، وبالقرب منه طارت قبرة، ارتفعت قليلاً وأخذت تغرد على طريقتها، فسار تانباي،

وهو يحني رأسه، وفجأة هبط على الأرض، ولم ير الرهوان غولساري صاحبه في هذه الحال سابقاً، إذ تمدد على الأرض، ووجهه إلى الأسفل يلاصق العشب، بينما كانت تهتز كتفاه حسب وقع نشيجه المر: إنه يبكي من الخجل والمصيبة، إذ أدرك أنه فقد السعادة التي منحت له أخر مرة في حياته، أما القبرة فقد استمرت في تغريدها.

بعد مرور يوم على هذا، اتجهت القطعان إلى الجبال، وستبقى هناك، ولم تعد إلى هنا قبل أن يحل الربيع المبكر في العام القادم. سار الرعاة على ضفاف النهر، وعبر الأراضي التي غمرتها مياه الفيضانات نسبياً، بالقرب من القرية، فسارت قطعان الأغنام في المقدمة، ثم سارت قطعان الجمال والخيول، ثم جاء دور النساء والأطفال، ومعهم الكلاب الشعثاء، وفي الهواء اختلطت الأصوات البشرية مع صهيل الخيول وثغاء الأغنام...

ساق تانباي قطيعه عبر الهضبة الواسعة، ثم صعد قليلاً نحو عتبة الجبال بالقرب من ذلك المكان الذي احتفل الشعب فيه بيوم السبق، وكان يجتهد ألا ينظر نحو القرية، وعندما حاول غولساري أن يذهب عبر ذلك الطريق الذي اعتاد أن يسلكه إلى ذلك البيت على طرف القرية، عاقبه تانباي بضربة من سوطه، وهكذا لم يعرجا حسب العادة إلى المرأة ذات اليدين الناعمتين والحنونتين التي لها شفتان مثل شفاه تلك المهرة الشابة ذات النجمة على جبهتها.

سار القطيع بهدوء وبلا ضجيج يذكر.

كانت القطعان ترغب بسماع صوت غناء الراعي، ولكنه لم يكن في مزاج حسن. أصبحت القرية خلفهم، فوداعاً أيتها القرية، وأمامنا بدأت الجبال. وداعاً أيتها السهوب، إلى الربيع القادم. ها هي الجبال.

6

اقترب منتصف الليل، وهنا لم يعد بإمكان غولساري متابعة السير حتى الوادي، وقد وصل إلى هنا بشق الأنفس، وخلال هذا الطريق، توقف عشرات المرات، وهنا عند الوهاد والطريق الوعر، أصبح عاجزاً عن متابعة السير، وأدرك تانباي أنه من العبث أن يطلب من الحصان ما لا يقدر عليه، وخاصة أن غولساري لا يحب أن يحثه أحد على السير، وهنا أخذ الحصان يئن بصعوبة وألم ونشيج قاسٍ كما ينشج الإنسان، وعندما حاول أن يستلقي على الأرض لم يقم تانباي بإزعاجه أو منعه من ذلك.

تمدد الرهوان على الأرض الباردة الرطبة، وأخذ يئن ويلوح برأسه متألماً مما يعاني من نزلة برد شديدة، وحرارة مرتفعة، وجسمه أخذ يرتجف بأكمله، فقام تانباي بنزع فروته عن كتفيه، وألقى بها على ظهر حصانه الحبيب، وهو يخاطبه بحنان:

- ماذا حل بك يا صديقي؟ ألهذه الدرجة قد ساء وضعك؟ لقد أثر فيك البرد والمطر، فسابقاً لم تخف في حياتك من البرد، أما الآن، ماذا حل بك؟

أخذ تانباي يتمتم بكلمات غير مفهومة كأنه يؤنب نفسه، ولكن الرهوان لم يكن في وضع يخوله أن يستمع لشيء ما، فدقات قلبه كانت تطرق في رأسه مباشرة حتى الصمم، وبأنفاس متقطعة، وشهيق خانق: توم تام توم تام توم تام... وكأن القطيع قد هرب مسرعاً باضطراب من مهاجمين مجهولين.

ظهر القمر من خلف الجبال، وتعلق في الضباب فوق الأرض، ووقع نيزك بلا صوت وانطفأ على الفور... فقال تانباي مخاطباً غولساري:

- عليك أن تستريح قليلاً هنا ، وسأذهب لأجمع بعض الحطب.

أخذ تانباي يبحث بين الحجارة عن بعض الأعواد اليابسة ، وعرّض يديه للكثير من الأشواك الحادة من نبات العليق اليابس، ولقد هبط في المضيق، وهو يمسك خنجراً بيده، تحسباً من وجود بعض الوحوش، وهنا وجد شجرة تماريس يابسة، فانفردت أساريره فرحاً ، إذ إنها ستكوّن وحدها شعلة كاملة..

كان غولساري يخاف من النار المشتعلة بقربه، أما الآن فلم يخف منها ، إذ بعثت فيه الدفء وغطته بالدخان، فجلس تانباي على كيس بالقرب من حصانه، وأخذ يزيد على النار بعض العيدان تدريجياً ، وهو يقرب يديه من النار ليدفئها ، وكان يقف بين الفنية والأخرى، ويقرّب الفروة من الموقد حتى تسخن ثم يضعها من جديد فوق الرهوان.

توقف غولساري عن الرجفان، ولم يعد يئن كالسابق، ولكن في عينيه ظهر صفار دفين، كان يضغط على أحشائه، حتى بات يشعر بضيق التنفس، وكانت شعلة الموقد تزداد أحياناً وتخفت أحياناً أخرى، أما الكهل الجالس بالقرب منه فكان يغيب تارة، ويعود تارة أخرى، وبدا الأمر للرهوان كأنه في حالة هذيان، وبأن خيولاً تعدو في السهوب في هذه الليلة العاصفة، وهو يصهل ويقف على رجليه الخلفيتين، ويبحث عن القطيع بلا جدوى، وهكذا تراءت للرهوان بعض الصور، من الحياة الماضية، ثم انطفأت بسرعة!

كان النور يشع أحياناً في عينيه، وتعود الظلمة ثانية، ثم نور، ثم ظلام...

7

رحل الشتاء لبعض الوقت حتى تبرهن الطبيعة للرعاة أن الحياة ممكنة في الدنيا وليست بمهمة شاقة جداً وستكون أيام دافئة في المستقبل، وسوف تأخذ المواشي حصتها من الدفء، وستتوفر اللحوم، ويكثر الحليب، وتنظم السباقات في الأعياد، وتبنى الأبنية اللازمة لتربية الأغنام، وستوفر الأمكنة لحمايتها من قر الشتاء، وحر الصيف، وتبنى الصالات الكبيرة، لجز صوف الأغنام في بداية الصيف، كما ستبنى الصالات لتربية صغار الأغنام، ووقايتها من مآسي الثلوج، وسينظم الترحال حسب أماكن الرعي، وبنفس الوقت، سيعيش كل فرد حياته الخاصة كما يحب، فهناك الحب، والافتراق، السعادة والمصائب، الولادات والموت، والتفاخر بالأولاد الناجحين المتفوقين، والغضب والحزن عند سماع الأخبار السيئة عنهم من مدراء وموجهي المدارس التي يتعلمون فيها، وفي نفسه يقول: لو تركته يدرس كما يحب، لكان من الأفضل... وعلى الإنسان أن لا يخاف من المهن الصعبة، وعندما يحقق ما يصبو إليه، ينسى الصعاب، وتصبح بالنسبة إليه عادية، وخاصة تلك التي تصادفه في الشتاء أحياناً، ومثلاً، قطع القنب الهندي أو العمل خلال الصقيع والجليد، والنوم في الدساكر، والخيم الباردة. كل هذا يبقى في الذاكرة كالتقارير التي يقدمها المسؤولون كل عام، وها هو الشتاء يحل، وعلى الناقة البيضاء أن تبدأ بالبحث عن راعي أينما كان: في الجبال أو في السهول، وتُظهر له طبيعتها، فهو ساعتها سيتذكر ما كان ينساه لبعض الوقت، وفي القرن العشرين، سيكون الشتاء كما كان الحال في السابق...

لقد كان كل شيء كما كان آنذاك. لقد عادت قطعان الخيول تتوزع في السهوب، إذ حل الربيع، وذهب الشتاء في سبيله.

في ذلك الربيع كان غولساري الحصان الفحل الأساسي في القطيع، ولم يعد تانباي يحجز حريته كما في السابق عندما كان شاباً يافعاً، ولم يعد هذا ممكناً الآن، لقد اقترب موسم السفاد.

كان غولساري جاهزاً لأن يكون حصاناً فحلاً متميزاً في القطيع، وكان يعتني بالأمهار الشابة كأنه أبٌ حنون، وإذا غفلت الأمهات عن الصغار، كان الرهوان يعتني بالصغار، ويرعاها حتى لا تبتعد عن القطيع، أو تقع في هوة ما، وثمة ميزة أخرى كانت في طباع الرهوان غولساري: إنه لم يحب أن يشاكس الخيول بلا سبب يذكر، وإذا حصل هذا، فيكون من باب المصادفة نادراً، كان يقوم بطرد القطيع بعيداً وبغضب.

في شتاء ذلك العام، حدثت في الكولخوز تغيرات جادة، حيث أرسلت القيادة مديراً جديداً لإدارة الكولخوز، إذ سلم تشورا أعماله السابقة، واضطجع في مشفى المنطقة، إذ أخذ يعاني من أزمة قلبية. أما تانباي فقد كان يجهز نفسه دائماً لزيارة صديقه، ويتحين الفرصة لذلك، ولكن من أين سيجد وقتاً شاغراً لهذا؟ فالراعي يشبه الأم التي لديها الكثير من الأولاد، فهي دائماً مشغولة، وخاصة في الشتاء، وكذلك في الربيع، فالمواشي ليست كالآلة: لن تقفلها بمفتاح، وليس لك مفر من الاعتناء بها، وهكذا لم يتمكن تانباي من زيارة صديقه لأنه لا يوجد شخص يساعده، أو يقوم مقامه في حال ذهابه لزيارة صديقه، وقامت زوجته باستلام مستحقاته في العمل السابق. لقد كان من الضروري العمل لتقاضي بعض النقود اللازمة للحياة: فلقد كانت أجرة اليوم قليلة، وكان من الممكن أن نستلم أنا وزوجتي أفضل مما لو كنت بمفردي.

لكن، هل كان من الممكن لجايدار، التي ترضع طفلاً

صغيراً، وتقوم بتربيته، أن تستطيع القيام بعملي؟ إذ كان عليَّ أن أعمل ليلاً قبل النهار، حتى لا أقصر في العمل، فاتفق تانباي مع جيرانه كي يقوموا بعمله لفترة قصيرة. كان صديقه تشورا قد خرج من المشفى وعاد إلى القرية، وعند ذلك قرر تانباي وزوجته أن يقوما بزيارة لصديقهما مباشرة بعد أن يعودا من الجبل إلى السهل في المنحدر، ويتأقلما قليلاً مع المكان الجديد، ولكن، وبعد أن انحدرا من الجبال، وأخذا يتأقلمان مع الوضع في المكان الجديد، حدث الشيء، الذي لم يكن يتوقعه تانباي أن يحدث والذي لا يقدر على تذكره حتى الوقت الحاضر...

أما مجد الرهوان، فقد ذهب بعيداً بلا حدود، وكلما زادت شهرته في المنطقة، ازدادت أعين القيادة رغبة به، وطمعاً بامتلاكه.

في ذلك اليوم صباحاً، قام تانباي بسوق الخيول إلى المرعى، ثم عاد إلى البيت حتى يتناول فطوره، فجلس هو وابنته الصغيرة، التي لا تفارق ركبتيه طالما هو في البيت، فشرب الشاي، وتحدث مع زوجته عن مختلف القضايا الأسرية.

كان من الضروري الذهاب إلى المدرسة الداخلية لرؤية الابن، ومن هناك كان عليه أن يعرج إلى السوق في المحطة لشراء بعض الأغراض اللازمة، فهناك يوجد سوق للثياب القديمة، فمن الضروري شراء بعض الألبسة للأولاد والزوجة، ثم قال لزوجته وهو يرتشف الشاي من الفنجان بصوت مسموع:

- إذن، وفي هذه الحالة يا جايدار، إنني سأقوم بوضع السرج على الحصان الرهوان، وعليّ أن لا أتأخر، وإنني سوف أسافر للمرة الأخيرة، وبعد هذا، لن أزعجه مطلقاً، فأجابته الزوجة:

- انظر يا تانباي! فالأمر عائد لك، وأنت تعرف أكثر مني.

ترانت إلى مسامعه، ومن مسافة قريبة، وقع حوافر خيول قادمة، فأخذ يفكر من القادم إليهم، فطلب من زوجته:

- انظري يا جايدار، من هناك؟

خرجت من باب اليورتا، وقالت، وهي تلتفت إليه:

- القادم هو نائب مدير الشركة «إبراهيم» ومعه أشخاص آخرون.

نهض تانباي بلا رغبة، لأنه لم يكن يحب هذا الشخص، فخرج من اليورتا، وهو يحمل ابنته على يديه، ولكن الضيف يبقى ضيفاً على أي حال، ويجب استقباله كما يجب، ولماذا لم يكن يحب إبراهيم، فإن تانباي نفسه لم يعلم لماذا، فإن ابراهيم يحاول أن يكون متواضعاً، ولا يشبه الآخرين، ولكن كان فيه شيء من عدم الثقة بنفسه، والمهم في الأمر، لم يكن يعمل شيئاً، ونادراً ما يقدم التقارير والإحصائيات عن العمل بشكل مستعجل، ولم يقم بعمل جاد كما يجب في تربية الخيول في الشركة، وكل راعي كان يقوم بعمله على كيفه، وفي الاجتماعات الحزبية كان تانباي يتكلم بصراحة عن هذا، وكان الجميع يوافقون، بمن فيهم إبراهيم، ويشكره على النقد، ولكنه لم يغير أي شيء نتيجة عمله، وتابع العمل كالسابق، وشيء جيد أن المسؤولين الرعاة كانوا من ذوي الضمائر الحية، وخاصة أن تشورا قد اختارهم بدقة.

عندما ترجل إبراهيم عن حصانه، أقبل نحو تانباي فاتحاً يديه وهو يقوم بالتحية:

- السلام عليكم يا باي. - إذ كان ينادي رعاة الخيول، بلقب «البايات».

- وعليكم السلام! - أجاب تانباي بهدوء ورزانة، وشد على يد ضيفه مرحباً.

- كيف هي أوضاعكم، عساكم بصحة جيدة؟ كيف الخيول، هل هي ممتازة؟ وكيف أنت؟ - قذف إبراهيم كل هذه الأسئلة دفعة واحدة حسب عادته، ومع كل سؤال، كانت تنفرد وجنتاه العريضتان عن ابتسامة واسعة كان قد اعتاد عليها، فأجاب تانباي بهدوء:

- كل شيء على ما يرام، وهنا قال ابراهيم:

- شكراً جزيلاً لله. فأنا مرتاح البال بخصوص عملكم! فدعاه تانباي برزانة وهدوء:

- تفضل وادخل إلى اليورتا.

قامت جايدار بوضع الفراش الجديد، ثم وضعت فوقه جلد ماعز ذا شعر طويل، ودعته للجلوس...

أعار إبراهيم من جانبه اهتماماً لجايدار، فسألها مع الاحترام، ومن باب الملاطفة:

- مرحبا يا جايدار المحترمة، كيف صحتك؟ هل تقومين بالعناية اللازمة ببأياك؟

- مرحباً بكم، تفضلوا واجلسوا.- قال تانباي مخاطباً الضيوف. عندما جلس الجميع، طلب تانباي من زوجته:

- اسكبي الكوميس للضيوف. فقامت بذلك، وأخذوا يشربون ويتحدثون عن موضوعات مختلفة. فقال ابراهيم:

- الآن يعتبر عملنا عملاً ناجعاً، فتربية المواشي تعطينا الحليب حتى في الصيف، وكذلك اللحوم، أما أعمال الزراعة وغيرها من الأعمال المرتبطة بالأرض فهي تسير بصورة لا بأس بها، وعلينا هنا أن

نحـافظ علـى الرعـاة والقطعـان، ألـيس هـذا هـو الصـحيح يـا جايـدار المحترمة؟

هـزت جايـدار رأسـها موافقـة، أمـا تانبـاي فقـد التـزم الصـمت، فكـان يعـرف هـذا، ولـيس لأول مـرة يسـمع هـذا مـن إبـراهيم الـذي لم يـترك مناسـبة ولا فرصـة إلا أن يؤكـد علـى وضـع تربيـة الحيوانـات والالتزام بمتابعته، وأراد تانباي أن يقـول مـن خـلال هـذا، إنـه لم يكـن الأمر جيداً، إذا تابع بعض النـاس البحـث عـن الأمـاكن الدافئـة، وعـن المراعي التي بإمكانها أن تؤمن الغذاء للمواشـي للحصـول علـى الحليـب واللحـوم، فكيـف الأمـر بالنسـبة للآخـرين؟ وإلى أي وقـت سـوف يتـابع النـاس عملهم من دون نتيجة؟ وهل كـان الأمر هـكذا قبل الحـرب؟ ففي الخريف كـانت تأتي كل يوم عربتـان أو ثـلاث عربـات محملـة بـالخبز، تـوزع علـى جميـع البيـوت بـلا اسـتثناء، أمـا الآن، فمـا الـذي حـدث؟ إن النـاس يركضـون مـع أكياسـهم الفارغـة حتـى يحصـلوا علـى شـيء مـن بذار الحبوب، وخاصة القمح، ويبقوا للأسف بلا خبز، فهل يصح هذا؟ فالاجتماعات الكثيرة، والوعـود البراقـة لا تطعـم الخبـز، ولهـذا أصـيب تشـورا بمـرض العضـال في قلبـه، لأنـه كـان مجبراً علـى إعطـاء الوعـود الكاذبـة للنـاس، وهـذا مـا لم يقنـع بـه أحـد، ولاسـيما أولئـك، الـذين يقومون بالعمل على خير وجه، ولم يعـد الكـلام بـذي جـدوى، وخاصـة مع إبراهيم. زد على ذلك أن تانباي لم يرغب الآن بالحديث هـذا كلـه، إذ كـان يلزمـه أن يـودعهم بسـرعة، وأن يمتطـي حصـانه الرهـوان لأن لديه الكثير من الأعمـال، ومـن الضـروري إنجازهـا، والعـودة مبكـراً، فمـا الـذي أجـبرهم علـى الحضـور الآن؟ ولكـن لم يكـن مـن المـريح أن يسألهم، وانتظر حتى يفصحوا عن مقصدهم. توجـه تانبـاي إلى محدثـه إبراهيم الشاب المحارب الصامت قائلاً:

- إنني كدت أعرفك أيها الأخ، ألست أنت ابن المرحوم آبالاك.

- نعم يا عم، إنني ابنه.

- آه، كيف يمضي الوقت بسرعة! وها أنت أتيت راعياً إلى القطعان؟ إنه أمر ممتع؟

- كلا، ليس هكذا، إننا... وصمت الولد، إذ تابع ابراهيم:

- لقد جاء معي، وقد حضرنا إلى هنا لأمر ما، وسوف نتحدث عن هذا فيما بعد، أما الكوميس عندك أيتها المحترمة جايدار، فهو لذيذ جداً، وهو يمتاز بنكهة خاصة وقوية إذا كان بالإمكان اسكبي لنا كأساً أخرى.

ومن جديد أخذ يتحدث عن هذا وذاك من الموضوعات، أما تانباي فلم يعر له اهتماماً كما يجب، واحتار في أمره، ما الذي أجبر إبراهيم على القدوم إليه! وبعد كلام طويل، سحب إبراهيم ورقة من جيبه، وقال:

- أيها العزيز تانباي، لقد قدمنا إليك بموضوع خاص، وهو موضح في الورقة، خذ واقرأ! فقرأ تانباي في نفسه ما كتب في هذه الورقة، وكان يقرأ السطور ولا يصدق عينيه، رغم أن الكلمات قد كُتبت بأحرف كبيرة ممدودة، إذ جاء:

- عليكم إرسال الرهوان غولساري إلى حظيرة الخيول من أجل استخدامه في الركوب.

التوقيع - مدير الكولخوز (التوقيع لم يكن واضحاً) التاريخ 5 آذار 1950.

ذُهل تانباي مما قرأ، وصعق كمن يقلب رأساً على عقب بعد عاصفة شديدة، فقصف الورقة مرتين، ووضعها في جيب سترته الأمامية فوق صدره، وجلس صامتاً من دون أن يرفع نظره، وشعر

بقشعريرة باردة تجتاح عالمه، ومن الممكن القول هنا، إنه لا لم يجد أي شيء مفاجئ، وهو قد ربى الخيول حتى يقوم بتوزيعها على الآخرين للعمل والركوب، وكم من الخيول قد أرسل إلى الكولخوزات، والسوفخوزات، والورشات للعمل في أماكن كثيرة خلال السنوات الماضية! أما أن يعطي حصانه الحبيب غولساري لجهة ما، فقد عز عليه الأمر كثيراً، فهذا لم يكن في خلده مطلقاً! ولكن الأمر فوق إرادته، وأخذت أبعاد هذه المصيبة تنال من تفكيره، وكيف له أن يعمل للحفاظ على الرهوان، وإبقائه في حوزته، وكان من الضروري أن يجد المبررات اللازمة والمقنعة، وأن يتمالك أعصابه، ويبتعد عن القلق الذي أظهره أمام إبراهيم، الذي أفصح عن هدف مجيئه، وقال موضحاً الأمر بحذر:

- نعم، إننا وبخصوص هذا الأمر الصغير قد قدمنا إليك أيها العزيز تانباي!

- حسناً يا إبراهيم، نظر تانباي إليه بهدوء، فهذا الأمر غير معقول، ولا يمكن له أن يدخل من أي مدخل إلى عقلي، فاشرب أيضاً الكوميس، وها نحن نتحدث، فعقب إبراهيم بهدوء:

- لا بأس، إنك إنسان ذكي أيها العزيز تانباي، فغضب تانباي في داخله، وقال بحدة:

- إنك تجاملني، وتقول عني إنني ذكي، فكلماتك الشيطانية الثعلبية تغيظني للغاية! وهنا أخذ الحديث مجرىً آخر، ولا معنى له، ومن دون فائدة، وأخذ تانباي يناقشه كأنه ليس لديه أي عمل يسرع إليه، وهكذا، ولأول مرة، اصطدم مع مدير جديد للكولخوز، والأصح ليس معه مباشرة، بل مع توقيعه، الذي لم يعرفه تانباي سابقاً، ولم يشاهده في حياته، ولقد كان تانباي

يقضي الشتاء في الجبال عندما حضر المدير الجديد، بعد خروج تشورا من العمل.

لقد انتشرت الأخبار عن إبراهيم كمدير جديد، أنه رجل إداري محنك، وله علاقة مع قيادات كبيرة، ففي الاجتماع الأول، قد نبه بأنه سوف يحدد وينتقد التهاون والتقصير في العمل، وإذا لم يحقق الشخص الحد الأدنى من إنتاجية العمل اليومي، فسوف يقدمه للمحاكمة، وتكلم عن كل المشكلات في الكولخوز التي تعود إلى أن هذه التعاونيات كانت صغيرة، ثم اتسعت وتعاظمت، وسوف تتسع أكثر، وفي الآونة القريبة سوف يتم التصحيح؛ ومن أجل هذا تم إرساله إلى هنا، ومن أولويات مهامه، أنه سيطور الملكية حسب معطيات التكنولوجيا الإنتاجية، ولاسيما توزيع الآليات الزراعية اللازمة للكولخوزات، والسوفخوزات، وكذلك تكنولوجيا تربية الدواجن.

وحقاً لقد تم تنظيم الدراسة والتدريب، وعُلقت الإعلانات ومنشورات الدعاية، وتمت قراءة المحاضرات التوضيحية، وفي كثير من الأحيان، كان الرعاة ينامون من التعب على المقاعد أمام المحاضرين، فهذا الأمر لا يخصهم مباشرة، وهنا أخذ إبراهيم يشد سيور ساقي جزمته، وينفض الغبار عن سرواله، وهو ينظر إلى تانباي، ويُحسّن من وضع قبعته المصنوعة من فرو الثعالب على رأسه، إذ قال:

- لقد حان لنا أن نغادر أيها العزيز تانباي.

سمع تانباي كلام إبراهيم، فعقب عليه وبحدة قائلاً:

- اسمع، يا أيها المدير التنفيذي، عليك أن تبلغ رئيس الكولخوز: إنني لن أعطيكم غولساري، فهو عندي الفحل الوحيد الضروري الآن للقطيع ككل، فالأمهار والأمهات، هن بحاجة إلى

هـذا الحصـان الفحـل المتميـز في فـترة الإخصـاب، لتحسـين نوعيـة الخيـول، ولا يوجـد غـيره بهـذه المواصفات الجيـدة كرهـوان أصيل!. فاغتاظ إبراهيم، وهو يفرد يديه مستغرباً، إذ قال:

- آه، يا إلهي، يا أيها العزيز تانباي، فإننـا سـوف نرسـل لـك بـدلاً عنه خمسة أحصنة مـن خيرة الفحـول، ولـن يتركـوا واحـدة مـن الإنـاث من دون تلقيح، وهل هذه مسألة تحتاج للذكر؟ وقد كـان كل شـيء على ما يرام، وفجأة... إيه، لو كان الأمر لا يتعلق بتانبـاي، وكـان مـع شـخص آخـر، لكـان الحـديث قصـيراً للغايـة، ولكـن تانبـاي، هـو تانبـاي، فهو لا يقف مع أخيه عندما يكون على خطأ، ولا يرحمه، ولهذا، يجب التكلم بهدوء، والتعامل معه على محمل الجد، ومـن الضروري أن أتناول القضايا التي يطرحها بكل جد وعقلانيـة، وهنـا مسح تانباي العرق المتصبب على وجهه، ثم توقف قليلاً عن الكلام، وقرر أن يخاطبه بصورة مباشرة، ومن دون لف ودوران، إذ قال له:

- لا تلـزمني الخمسـة أحصنة مـن عنـدكم! ومـا الـذي يجبركم علـى هـذا، وهـو لا يوجـد لـدى رئيسـك مـا يمتطيـه؟ فـأنتم تسـتلمون الأحصـنة الكـثيرة في مركـز الشـركة؟ ولمـاذا يلـزمكم حصـاني غولساري بالذات؟ فاحتج إبراهيم قائلاً:

- كيف تقول هذا أيها العزيـز تانبـاي؟ فعلينـا أن نحـترم رئيسـنا، لأنـه يمثلنـا في المنطقـة، وخاصـة أنـه ينتقـل مـن مكـان إلى مكـان في المنطقـة كلـها، والنـاس يـأتون إليـه مـن كـل حـدب وصـوب، فـرئيس الكولخـوز إنسـان معـروف، وهـو وجـه بـارز في الأوسـاط الشـعبية، فكيف لي أن أشرح لك... وهنا احتد تانباي، إذ قال:

- كيـف، ومـاذا ستشـرح لـي، ومـاذا سـتقول؟ فـإن ركـب علـى حصـان آخـر غـير غولسـاري، لم يعـد الشـعب يعرفـه؟! ولكـن، وحسـب

رأيكم، إذا كان يحب البروز، فمن الضروري أن يركب على حصاني الرهوان؟! فاحتار إبراهيم بماذا يجيب، فذهب بالحديث إلى النظام العسكري حتى يقنعه، إذ قال:

- بالطبع ليس من الضروري، ولكن أتصور أنه سيكون هذا من الأفضل، فأنت أيها العزيز تانباي، كنت محارباً في الجبهة، وكعسكري، هل كنت تركب سيارة حديثة؟ وقائدك يركب سيارة شحن؟ لا، بالطبع، فللجنرال سيارة الجنرالات، والعسكري يركب سيارة العساكر العادية، أليس كذلك؟، وهنا تعثر تانباي في الكلام، وقال بشيء من الحدة:

- هنا الأمر يختلف كلياً. - ولكن تانباي تعثر في الإجابة، ولم يجد الشرح المناسب، لماذا يختلف الأمر، ولم يكن بإمكانه أن يثبت العكس، هذا في الوقت الذي أخذ فيه الطوق يضيق حول مصير الرهوان غولساري، فقال حانقاً:

- لا، لن أعطي غولساري لأحد، وإذا لم يعجبكم هذا الأمر، فسرحوني من العمل في سياسة الخيول، وسأذهب للعمل في الحدادة، كما كنت أعمل سابقاً، وهناك أتصور أنكم لن تأتوا وتطلبوا المطرقة مني.

- لماذا هكذا أيها العزيز؟ فإننا نحترمك، ونقدرك تقديراً عالياً، وأنت تتصرف الآن كالصغير، وهل هذا يجوز أن تتصرف هكذا؟ - تحرك إبراهيم في مكانه كأنه التصق بالأرض، ولاسيما أنه هو الذي وعد الرئيس بهذا الحصان، وتعهد أن ينفذ الأمر له، وهنا اصطدم مع هذا الرجل العنيد الذي يحاول الأن أن يفسد كل الأمور عليه، ويعطل مشاريعه ومصالحه ومنافعه في المستقبل، كما خطط سابقاً، فتنفس بصوت عالٍ، وتوجه إلى جايدار قائلاً:

- أرجوكِ، يا جايدار المحترمة أن تحكمي الأمر بيننا، وكل الأمر يرتبط بحصان واحد من بين هذا القطيع الكبير حتى لو كان الأمر بأننا نطلب الرهوان غولساري، ففي قطيع الخيول كثير من الأحصنة المتميزة، ومن أنواع مختلفة، ويعرفها تانباي جيداً، وبإمكانه أن يختار أي حصان يريده، فاختاروا أياً كان منها، فهنا لا يجوز الرفض، طالما قدمت أنا بأمر من الرئيس، وليس من مخرج آخر، فتمهلت جايدار في الإجابة، ولاسيما أنها تحب غولساري، وسألت:

- ولماذا تجتهد أنت في هذا الأمر هكذا؟

تعثر إبراهيم بالكلام، إذ فتح يديه، وقال:

- وما علينا أن نعمل الآن؟ هذا ما يفرضه النظام، فلقد أمروني بهذا، وأنا إنسان بسيط وصغير، وأنا لا أطلب الرهوان لي، فأنا على استعداد أن أركب على حمار أعرج، واسألوا ابنكم أبالكا الذي ذهب حتى يسوق الرهوان، ولم يبق لديه ما يقوله، إذ أحنى رأسه صامتاً، وتوقف عن الكلام قليلاً، ثم تابع:

- هكذا يبدو أن الأمر سيئ للغاية، فرئيس الكولخوز ضيف عندنا، وقد أُرسل إلينا للعمل، ونحن هنا جميع أهالي القرية، لم يكن بإمكاننا أن نقدم له حصاناً يليق به، فهل هذا الذي بدر منكم يشبه العادات والتقاليد عند القرغيز؟ وبعد صمت طويل، قال تانباي:

- إذن، حسناً، سأذهب إلى تشورا، ونطرح الموضوع أمام كل أهالي الكولخوز، وليقضي هو في هذا الأمر بيننا!. وهنا قاطع إبراهيم كلام تانباي قائلاً:

- وأنتم تفكرون بأن تشورا سيقول لكم: «لا تسلموا الرهوان إلى رئيس الكولخوز؟» فالأمر قد بُحث معه، وستحرجونه كأنه

يخرب الأمور حتى لا توافقون على رئيس الكولخوز الجديد، ونحن نذهب ونتابع عملنا مع رئيس الكولخوز القديم، ونشتكي له، وهذا لا يجوز، مع العلم أن تشورا إنسان مريض، فلماذا تسيئون إليه، وتخربون الأمور بينه وبين الرئيس الجديد؟! فتشورا سيصبح المسؤول الحزبي، وعليه أن يعمل مع الرئيس الجديد، فلماذا تعرقلون الأمور بينهما...!

أما هنا، عندما جرى الكلام عن تشورا، فقد صمت تانباي، والتزم الجميع السكوت، وتنفست جايدار بصعوبة، وقالت لزوجها:

- أعطهم الحصان، ولا تؤخرهم! فابتسم إبراهيم، وقال:

- هذا هو عين العقل، حبذا لو قلت هذا من زمان، فشكراً لك يا جايدار المحترمة.

وليس من باب العبث قد زاد إبراهيم من تشكراته، فلم يمض الكثير من الوقت بعد هذا، إلا وعينه رئيس الكولخوز، ورفع من مكانته من مدير للشركة، حتى يصبح نائباً له في مجال تربية الحيوان...

☆☆☆

جلس تانباي فوق السرج، وأغمض عينيه وكان يحسب كل شيء بأنه لا يستحق النظر إليه. لقد شاهد كيف تم الإمساك بالرهوان، وكيف وضعوا اللجام الجديد في فمه، ولم يعط تانباي أي شيء من عدة غولساري، ولقد شاهد كيف عاند الحصان، ولم يرغب بمغادرة القطيع الذي ألفه، وكيف كان يشد المقود الذي أمسك به ابنه أبالكا، وكيف أخذ إبراهيم يلسعه بقضيب وكأن هذه الضربات كانت تقع على جسم تانباي ذاته، وحاول أن يمتطي الحصان من يساره تارة، ومن يمينه تارة أخرى، وكان يرى كيف

يدقق الرهوان في نظراتهم الضبابية، من دون أن يفهم إلى أين يأخذونه، وماذا يريدون منه، ولماذا ينتزعه أناس مجهولون لا علاقة له بهم سابقاً، بعيداً عن الإناث والمهرة، وبعيداً عن صاحبه وصديقه، وكان تانباي يشاهد كيف ينطلق البخار الكثيف من فتحتي أنفه، ومن فمه الفاغر، وهو يطلق الصهيل تلو الآخر، كما ركز نظره مودعاً شعر عرفه الجميل، وظهره وأردافه، ورأى كذلك آثار لسع قضيب إبراهيم على ظهره وجانبيه، حتى لم تخف عليه دقائق البصمات فوق قوائمه، وذلك البروز الصغير فوق ركبة قائمته اليمنى الأمامية، وكأنه كان يحصي شعرات جسمه الأشقر الفاتح. لقد شاهد كل شيء في جسمه المتناسب المتزن، وهنا أطبق تانباي أسنانه على شفتيه، كمن يعاني من صفعة حادة وألم قاتل، ويفقد أغلى ما عنده في الحياة، وعندما رفع رأسه وشاهد كيف قاد هؤلاء غولساري، وأخذوا يلوذون به خلف الحدبة الصخرية، صرخ تانباي فاتحاً فاهه كمن صعق، وأطلق الحصان الذي امتطاه على طرف من السرعة في أثرهم، فهرعت جايدار تصرخ، وهي تخرج من اليورتا:

- قف، يا تانباي! لا تتصرف أي تصرف خاطئ تلوم نفسك عليه فيما بعد!

- عندما انطلق خلفهم، برزت فجأة في خاطره فكرة رهيبة ومخيفة، أن زوجته تثأر منه، إذ تحرمه من الرهوان الذي كان ينقله في تلك الليالي إلى تلك المرأة التي كانت تنتظر عودته، فاستدار عائداً وهو يصفع الحصان بسوط قاس، وعندما وصل إلى اليورتا، هبط عن صهوة الحصان بسرعة وبوجه متجهم اختلط فيه الأزرق مع الأصفر، ووثب نحو زوجته حانقاً ومحدقاً بوجهها بصرامة، وهو يقول لها مشككاً بموقفها حياله:

- لماذا فعلت هذا، لماذا قلت: «أعطهم الحصان؟!». وهنا عملت جايدار لإعادته إلى وضعه الطبيعي، كما كانت تفعل دائماً:

- عد إلى عقلك، واخفض يديك، واسمع ماذا سأقول لك، فهل غولساري هو حصانك الخاص، أو حصان الكولخوز؟ وهل يوجد شيء بين يديك من ملكك الخاص أيضاً؟. فكل ما لدينا هو تابع للكولخوز ومنه نعيش، والرهوان أيضاً من ملكية الكولخوز، ورئيس الكولخوز له الحق في أن يتصرف كصاحب للكولخوز، ومديراً له، وكما قال لك إبراهيم، إنه سينفذ هذا بلا جدال، أما بخصوص ما يدور في رأسك، فهذا شيء لا معنى له، ومن العبث أن تفكر هكذا، فبإمكانك أن تذهب الآن حيثما تشاء. اذهب، ولا تتوقف! فهي أفضل مني، وأجمل، وأكثر شباباً، وهي امرأة جيدة، وكان بإمكاني أن أطلّق نفسي منك، ولكنك عدت عن غيك، وإلى رشدك بعد انتظار طويل من قبلي! ولا أريد أن أحاسبك على هذا، فعندنا ثلاثة أطفال، فإلى أين ستذهب عنهم؟ وماذا ستقول لهم فيما بعد؟ وماذا سيقولون عنك؟ وماذا سأقول لهم؟ فقرر بنفسك ما تشاء...

غادر تانباي إلى السهل، وبقي هناك عند القطيع حتى المساء المتأخر، ولم يكن وضعه أفضل مما كان عليه في الصباح، فكان يغلي في داخله، ولم يقدر على التأقلم من دون غولساري، إذ رأى أن القطيع كله، قد أصبح يتيماً من دون الرهوان، كما تيتمت روحه، إذ حملها وأخذها غولساري الحبيب معه، كما حمل معه كل سعادته، حتى أكثر من كلمة السعادة، إذ لم يعد للحياة عنده قيمة، وكانت هذه المسألة بالنسبة إليه مصيبة كبرى، ولقد أخذ معه كل شيء له معنى، وحتى الشمس قد تغيرت، والسماء لا تشبه السماء! وهو أيضاً لم يعد كما كان ينظر لذاته في عينه.

عندما عاد كانت الظلمة قد انتشرت في كل مكان، فدخل إلى اليورتا صامتاً، وقد بدا وجهه أسود، بينما كانت الابنتان قد خلدتا للنوم، وكان الموقد مشتعلاً، فقامت الزوجة بصب الماء على يديه، وقدمت له العشاء، فرفض تانباي الطعام، وقال:

- لا أريد، خذي تيمير- كاموز(*) واعزفي لنا أغنية: «بكاء راعية الجمال».

أخذت جايدار آلة تيمير- كاموز، وقربته من شفتيها، ولامست بإصبعها الوتر الفولاذي الرفيع، ونفخت فيه قليلاً، ثم أخذت كثيراً من الهواء في رئتيها، وبعدها انسابت الموسيقا القديمة للرعاة، وكانت الأغنية تروي قصة راعية الجِمال التي أضاعت حواراً أبيض صغيراً، وأخذت تبحث عنه طويلاً في كل مكان، ولأيام عدة حتى وصلت إلى نهاية السهوب والشعاب الصاعدة إلى الجبال، وهي تبحث وتبكي حبيبها الصغير، وتناديه كمن ينادي طفلاً ضائعاً، وأخذت تحترق حزناً وألماً، فهي لم تعد تراه، ولم تعد تقوده خلفها عند المساء في المنحدرات الانكسارية، ولا في الأصباح فوق الهضاب، ولم تعد تقطف له الأوراق وتطعمه بيديها، ولن يسير متنعماً فوق الأراضي الرملية، ولا في الأراضي الخضراء في الربيع، ولن ترضعه الحليب الدافئ.

... ركضت الناقة أيام عدة، تبحث وتفتش في كل منحدر وزاوية ومغارة عن ابنها، وهي تنادي: أين أنت يا أسود العينين، يا حواري الصغير؟ فالحليب يتصبب من الثدي المحتقن جداً كخيطان بيضاء على قائمتي الخلفيتين! أين أنت، أجب، ولو بصوت واحد! فالحليب ينصب من الثدي المحتقن، أبيض كالثلج الدافئ!

(*) تيمير- كاموز: آلة موسيقية قديمة على شكل قوس حديدي، مع لسان فولاذي في وسطه، وذات وتر فولاذي رفيع.

عزفت جايدار بمهارة على آلة التيمير- كاموز. جايدار التي أحبها تانباي جداً عندما كانت فتاة، فاستمع وهو يحني رأسه، فيتذكر كل شيء، ويرى شريط حياته من البداية إلى النهاية من دون أن ينظر إليها، فشاهد يديها المجعدتين الخشنتين بعد عمل سنوات عدة في الحر والبرد، كما شاهد شعرها الشائب والتجعدات التي على جبهتها ورقبتها، وعلى حافتي فمها وعينيها، إذ انقشعت علائم الشباب عن وجهها، وحلت عليه علائم الكهولة، وكم كانت فتاة جميلة ذات ضفائر متناسبة على كتفيها، وكان هو شاباً، وبينهما علاقة عذرية نقية، أما الآن، فكان يعرف أنها لا تلاحظه، فهي منغمسة ومنسجمة كلياً مع الموسيقا التي تُذكرها بالكثير.

ورأى من دون أن يرفع رأسه أيضاً، في تلك اللحظة، نصف المصائب فقط، ومعاناته فيها، وكانت جايدار تحمل الكثير في داخلها من دون أن تبوح به.

... ركضت الناقة أيام عدة تبحث وتفتش في كل منحدر وزاوية ومغارة عن ابنها، وهي تنادي: أين أنت يا أسود العينين، يا حواري الصغير؟ فالحليب يتصبب من الثدي المحتقن جداً كخيطان بيضاء على قائمتي الخلفيتين! أين أنت، أجب، ولو بصوت واحد! فالحليب ينصب من الثدي المحتقن، أبيضاً كالثلج الدافئ!.

أما الابنتان فقد كانتا تغطان في نوم عميق، وهما ملتصقتان ببعضهما، وخلف اليورتا امتدت السهوب فسيحة - يا لها من سهوب رائعة ولا ترى أطرافها في هذه الظلمة الليلية الحالكة.

في هذه اللحظات، كان غولساري يتمرد، ويقاوم في إسطبل الخيول، ولم يعط للخيول فرصة في أن تهدأ أو تنام قليلاً، فهذه هي المرة الأولى، التي يدخل فيها إلى إسطبل غريب، إذ شعر أن هذا

المكان هو سجن قسري للخيول التي تحب الشمس والفضاء، والحرية...

8

كانت سعادة تانباي كبيرة، وغير محدودة، عندما شاهد ذات يوم في الصباح الباكر حصانه الرهوان في مقدمة القطيع، وعلى جانبه تبرز قطعة من حبل الرشمة تلوح من تحت السرج، فأخذ يناديه.

- غولساري، غولساري، مرحباً! - هرع تانباي راكضاً نحوه، وشاهده من كثب، وفي رأسه مقود جديد، وعليه سرج ضخم مع حديدتي ركابين ثقيلتين، والذي أثار دهشته جداً تلك الوسادة المخملية السميكة فوق السرج كأنه لم يركب عليه رجل، بل امرأة ذات خلفية سمينة، فبصق تانباي مندهشاً:

- (تفو!) وأراد أن يمسك حصانه، ويريحه من هذا الحمل الثقيل - السرج وتوابعه من العدة، ولكن غولساري هرب بعيداً، ولم يكن لدى الرهوان أي وقت الآن للاهتمام بصاحبه القديم، فهو الآن يريد أن يعتني بالإناث، ولاسيما المهارى اللواتي اشتاق إليهن في فترة الإخصاب، ولم يتوقف عند صاحبه، أو يرغب بالاقتراب منه، فأخذ يفكر تانباي، ويقول في نفسه:

- هذا يعني أنه هرب من قبضة أصحابه الجدد، قاطعاً حبل مقوده، آه يا لك يا غولساري، يا لك من حصان رائع! افرح وامرح مع صديقاتك، فأنا لا أريد إزعاجك، خذ راحتك، وخاصة أن القطيع قد ترهل بغيابك، ويحتاج إلى شوط من العدو، وها هو تحت إمرتك، ريثما يحضر أصحابك الجدد ويأخذونك، فأنت الآن في بيتك الحقيقي، فخذ راحتك، وتصرف كما تشاء، وهنا صرخ تانباي بالقطيع على عادته، وهو يقف فوق السرج، والريح يداعب أعراف الخيول:

- تعالوا. تعالوا! فرمحت الخيول من أمامه في جولة سريعة يتقدمها غولساري، وهو مستنفر كعادته، وازدهرت الأرض بقدومه، وهو يقوم بجولة سريعة حول القطيع كزعيم له، وأشار برأسه للقطيع بتلك الإشارة الخاصة التي كان يقوم بها بحركة سريعة من رقبته المرنة، إذ قام بطرد الفحل الجديد إلى مؤخرة القطيع، وعاد ليأخذ مكانه في المقدمة، وهو يلعب ألعابه الخاصة، ويرقص كأن حوافره لا تلامس الأرض، وهو يعدو من جهة إلى أخرى أمام قطيعه.

أما ركابا السرج المصنوعان من النحاس، فقد كانا ثقيلين، وكلما زاد من سرعته، كانا يتأرجحان ويضربانه على جانبية بشدة، ونسي غولساري في المكان المحبب له، كيف كان يقف البارحة في إسطبل مربط الخيل، وهو يقضم مقوده وحديد لجامه، ويهرب من سماع هدير السيارات الذي كان يلاحقه. لقد نسي كيف وقف فيما بعد في المياه الضحلة بالقرب من المقهى كريه الرائحة، وكيف خرج صاحبه الجديد مع جميع العاملين في الشركة، وكانت تصدر عن الجميع رائحة كريهة في أنف الرهوان، وكيف أخذ هذا الرجل الجديد يسعل وهو يحاول الجلوس فوق السرج، ونسي كيف أقام هؤلاء الرجال سباقاً لا معنى له في الطريق الموحلة، وكيف حمل الصاحب الجديد بكل ما لديه من ثقل، حتى أخذ يلوح من فوقه ككيس لا حول له ولا قوة، ولاسيما بعد أن أخذ يتجشأ، وهنا أخذ يضرب غولساري بالسوط على رأسه حتى يتوقف.

لقد نسي الرهوان في مراعي الطفولة كل شيء: إذ أثملته رائحة قطيعه التي ألفها وأحبها، وخاصة رائحة حليب خيول الأمهات الذي تربى عليه، ورائحة الأمهار الشابة، والنسيم المشبع بالشيح... فانطلق الرهوان مسرعاً من دون أن يفكر بأن الخيول التي تتسابق معه قد

أخذت تعدو خلفه كأنها تحتفل بقدومه.

أعاد تانباي القطيع إلى مكانه السابق، وهنا وصل من القرية خيالان، وقاما بمحاصرة غولساري والقبض عليه، وأخذاه معهما إلى إسطبل الخيل.

لكن، وبعد مرور فترة من الزمن، عاد غولساري للظهور من جديد، وفي هذه المرة كان بلا مقود نهائياً، ومن دون سرج. فلقد خلع الرباط عن رأسه، وأسقط اللجام من فمه وهرب من الإسطبل في الليل، فضحك تانباي في بداية الأمر، ثم التزم الصمت، وبعد أن فكر قليلاً، قرر أن يرمي الأنشوطة على رأس الرهوان، فالتقطه، وجهزه كما يجب، وأعاده إلى القرية بعد أن طلب من الراعي الشاب في الحظائر المجاورة أن يقود الرهوان خلفه، وفي منتصف الطريق، التقيا مع الخيالة القادمين للقبض على الرهوان الهارب، وعندما قام تانباي بتسليمهم الحصان غولساري، رفع صوته عليهم، وهو يقول:

- ما بكم؟! ماذا تعملون هناك؟ أليس لديكم أياد، حتى تحافظوا على حصان الرئيس، وتربطوه كما يجب؟!

أما عندما عاد غولساري للمرة الثالثة، غضب تانباي بصورة شديدة، وهو يطارد الرهوان، ويطلق السباب تلو الآخر على الحصان، وعلى أولئك العاملين الذين لا يجيدون عملهم، وقال:

- ماذا حل بك أيها المجنون! فما الذي يعيدك إلى هنا؟ يا لك من مجنون وستبقى طوال عمرك كذلك! وعندما التقطه تانباي بالأنشوطة، قاده إلى الإسطبل وهو يخاطبه: «حقاً إنك حيوان، ولا عقل لك»، أما غولساري، فتابع ظهوره بين فترة وأخرى كأنه يعشق ويحن إلى مسقط رأسه، وكان من الممكن السكوت عن ذلك، لولا أنه لم يقلق راحة الخيل يسيء إلى برنامج الرعي.

وفي يوم من الأيام، عاد تانباي تعباً من رعي الخيول، وحشر القطيع بالقرب من اليورتا، وخلد للنوم، ولكنه كان قلقاً وغير مرتاح، فلقد تعب جداً خلال النهار، وشاهد في نومه شتى الأحلام المزعجة والمخيفة، حتى كان البعض منها عن أحداث الحرب كأنه عاد إلى الحرب ثانية، وأخرى كانت على شكل كوابيس كأنه في مسلخ، والدماء حوله من كل صوب، ويداه ملطختان فيها، وهو ما زال معكر المزاج من هذا الكابوس:

إن منظر الدماء في المنام فأل سيئ، ويريد أن يغسل يديه في مكان ما، بينما الناس يدفعونه بعيداً ويسخرون منه، ويقهقهون، ويصرخون بلا معنى - والمستغرب، غير معروف من يقوم بهذا: إنه «تانباي يغسل يديه من الدم بالدم، فهنا لا توجد مياه، فلا تتعب يا تانباي، فالدماء هنا في كل مكان! ها- ها- هو- هو- هي- هي!» وبعد هذه القهقهات، سمع صوت زوجته جايدار تناديه وتحركه من كتفه:

- تانباي، تانباي! استيقظ، ماذا حصل لك؟ هل تعاني من كابوس ما؟!.

- آه، ماذا، ماذا تريدين؟ فأجابته على عجل:

- ألا تسمع! كأن هناك قتال بين الفحول، فربما يقتلون بعضهم، انهض واستطلع الأمر، ومن الممكن أنه جاء غولساري ثانية! نهض تانباي من فراشه، وهو يدلك عينيه، وتناول سوطاً بيده، وأسرع باتجاه الساحة حيث يتم العراك، كان نور الفجر قد عم الفضاء، وهو يشتم غولساري:

- لعنه الله! إنه لن يعطينا الراحة مطلقاً، الآن سأريه!

عندما وصل إلى المكان، شاهد غولساري وماذا يجري هناك؟

كان الرهوان يثب واقفاً على رجليه الخلفيتين، ويقاوم ويقاتل بقائمتيه الأماميتين المكبلتين بقيد حديدي، ويصدر ضجيج وصرير حلقات القيد، وهو يدور ويناور، ويفتح شدقه واسعاً، ويعض الأحصنة التي تحاول أن تنال منه، وتمسكه من رقبته، إلا أن الرهوان كان رشيقاً في حركاته، ويصهل بشدة كأنه في معركة حقيقية، أما الحصان الأخطل، فكان يهاجمه ويعضه بلا جدوى، فهجم تانباي، وأخذ يضرب الأحصنة المتقاتلة، حتى تمكن من فصل المعركة، وضرب غولساري ضربات عدة بسوطه، ولكنه شاهد بعض الدماء تسيل منه، وخاصة من خاصرته ورقبته، فسالت دموعه، وهنا هجم تانباي على الحصان المتوحش، وأخذ يضربه قائلاً:

- آه يا لك من وحش! وطرده بعيداً، بينما أخذ يتحدث مع غولساري بصوت هادئ: «ماذا فعلوا بك؟ لقد أصبت بجروح عدة، وهل من الممكن أن تقاوم أحصنة عدة يغارون منك ومن قدومك! وما الذي أجبرك على الحضور إلى هنا في هذا الوضع مقيداً بالسلاسل؟! يا لك من مجنون؟ لقد قطعت هذه المسافة الطويلة، وأنت مقيد اليدين، متجاوزاً النهر والمنحدرات والوهاد والانكسارات، حتى وصلت إلى هنا، إلى قطيعك منهكاً، فطوال الليل كما يبدو، وأنت تقفز على قائمتيك الخلفيتين من دون أن تتوقف للحظة وحيداً تحت وقع صليل حلقات القيد، كما يهرب السجين من معسكرات الاعتقال».

- يا لك، و يا لك ألف مرة على هذا العناد - أخذ تانباي يهز رأسه، وهو يمسح على وجه الرهوان الذي مد وجهه حتى لامس شفاه تانباي، أما تانباي، فقد حرك شفتيه أيضاً ملبياً طلب صديقه، وأخذ يمسح على رقبته وخلف أذنيه، فأخذ الرهوان يغمض عينيه مطمئناً، وهنا خاطب تانباي حصانه السابق قائلاً:

- كيف لنا أن نتصرف الآن؟ آه منك، لو تركت كل هذا العناد يا غولساري، فوضعك الصحي سيئ الآن، يا لك من غبي! فأنت لا تعرف شيئاً...

أخذ تانباي يتفحص جسم الرهوان، ففوجئ بأن الجروح والإصابات التي حلت به خلال المعركة بليغة، ولكن من الممكن علاجها مع الزمن، وسيعافى منها، أما يديه فقد هشمتها حلقات القيد بشدة، والدماء تنزف من حوافره الأربعة، وقد تأثر للغاية عندما قطع النهر، فانفتحت جروحه، وأخذت الدماء تنزف بشدة، والحديد يهشم الجلد عند مفاصله. لا أستبعد أن إبراهيم قد نبش هذا القيد من مخازن الأقدمين، فهذا الأمر من صنع يديه؛ فكر تانباي بانزعاج، ومن سيفعل هذا غيره؟ فالقيود القديمة ذات صنعة مميزة، ولكل قيد مفتاحه الخاص ومن دون مفتاح للقيد، لا يمكن تخليص الحصان منه، وفي القديم كانوا يضعون القيود على قوائم أفضل الخيول، حتى لا يتمكن اللصوص من سرقتها، واختطافها من مراعيها، ومن السهل أن تقطع القيود المصنوعة من الحبال بضربة سكين، وينتهي الأمر، أما بالنسبة للقيد الحديدي، فمن الصعب التخلص منه من دون مفتاح، فهذا الأمر كان منذ أمد بعيد، أما الآن، فلم يعد يُستعمل، وأصبح شيئاً نادراً، ولقد حافظ عليه الكهلة كشيء من باب الذكرى عن الأجداد، والآن من نصح هؤلاء الأوغاد بوضع القيد على قائمتي هذا الحصان الرهوان حتى لا يتمكن من المغادرة بعيداً عن مراعي القرية، أما هو فلم يرضخ للقيود، وهرب...

لقد شارك كل أفراد الأسرة بتخليص الحصان غولساري من هذا القيد، إذ أمسكت جايدار مقود الحصان تحت فكه السفلي، وغطت عينيه، بينما أخذت الطفلتان باللعب قريباً منهم، وقام تانباي

بحمل الصندوق، الذي يحتوي بمختلف الأدوات والمفاتيح القديمة، وأخذ يفتش عن مفتاح قديم يتناسب مع هذا القيد، إلا أنه لم يجده، فاستخدم تجاربه ومعرفته في مجال الحدادة، وتعب مطولاً، حتى أخذ العرق يتصبب منه، واستخدم المنشار الحديدي في نشر الحلقات وكسرها، وتخليص غولساري من هذا القيد الوحشي، وقذف به بعيداً، حتى لا تراه العين مطلقاً، ثم قام بوضع الدهون المعقمة، والتي توقف النزيف الدموي فوق الجروح على حوافر الرهوان، وفي أماكن الكدمات النازفة في مناطق مختلفة من جسمه، ثم قادته جايدار إلى مربط الخيل، بينما حملت البنت الكبرى أختها الصغرى على ظهرها، وتوجهت بها إلى اليورتا.

أما تانباي فقد تابع جلوسه حتى يرتاح قليلاً بعد التعب المضني، ثم جمع الأدوات، ودخل إلى اليورتا، ولم ينس أن يأخذ القيد عن الأرض، فمن الضروري إعادته، وإلا ستوجه إليه التهمة بسرقته، وأخذ يتفحصه، فوجد أن الصدأ قد اعتراه من كل جانب، وأعجب جداً بالتقنية الميكانيكية القديمة، فكل شيء كان مصمماً حسب الأصول وبذكاء، وكان هذا القيد من صناعة الحدادين القرغيز القدامى، ولقد فُقدت الآن مثل هذه المهارة المكتسبة تاريخياً، وتم نسيانها كلياً، فلم تعد القيود ضرورية الآن، ولقد اختفت أشياء كثيرة مع الزمن؛ فهذا شيء مؤسف، فقد اختفت بعض الإكسسوارات التجميلية من الفضة والنحاس والأخشاب، وكذلك المصنوعة من الجلود! ولم تكن غالية الثمن نسبياً، ولكنها كانت أشياء جميلة حقاً، وكل قطعة منها، لها جمالية متميزة، فالآن لا يوجد شيء من هذا، حيث أخذ الصناع يصنعون الآن كل شيء من الألمنيوم دون تفريق: الأكواز، والأقداح والملاعق، والأقراط، وغيرها،

وأينما ذهبت، وإلى أي محل، تجدها نفسها، حتى يعتري الملل والضجر الإنسان الذواق، ولم يبق من الحرفيين للحلي والتحف الخلابة إلا عدد قليل، وكم كان الحرفيون المتخصصون بتصميم السروج يتفاخرون بعملهم! وكل سرج له قصة تاريخية: فمن صنعه، وفي أي وقت، ولأي حصان، ولأي فارس، وما هو قدر المكافأة التي حصل عليها السروجي، وفي الوقت القريب، من المحتمل أن الجميع سوف يملكون السيارات كما في أوروبا، وهي متشابهة، ولا تختلف إلا بالأرقام، وفي الحقيقة، لقد تم دفن الحرف القديمة نهائياً، وخاصة الحرف اليدوية الإبداعية النادرة في أعين وأيدي وأرواح البشر.

في كثير من الأحيان، كان تانباي يخوض نقاشات في هذا المجال حول الفنون الشعبية وكان يكره جداً، ولم يعرف من يدين في هذا، لاختفاء هذه الفنون الشعبية، لأنه كان في مرحلة الشباب واحداً من هؤلاء المبدعين القدامى، وذات يوم، ألقى كلمة في اجتماع الكومسومول وطالب بإلغاء الدساكر القديمة، ولقد سمع كلاماً، نسب إلى واحد من القيادات مفاده، أنه حان الوقت لليورتات أن تنتهي من الوجود، وأن اليورتا - سكن للرعاة قبل الثورة. «فلتسقط اليورتات» ويكفينا العيش على الطريقة القديمة، وهكذا تم القضاء على بعض اليورتات، وصودرت بعض الحبوب المخزنة فيها، وأخذوا ينون البنايات والبيوت الحديثة، وقاموا فعلاً بتخريب اليورتات، فمزقوا القماش السميك القديم، الذي يستخدم في تصنيعها لبعض الأغراض، كتغليف الأخشاب، كما استخدم منه في إقامة السياج لزرائب الحيوانات، واستخدموا أخشابها المهشمة للتدفئة...

لكنه تبين فيما بعد أن التنقل والترحال للرعاة من غير الممكن بدون اليورتات، فهي موزعة حسب الطلب في السهوب والجبال، وفي

كل مرة، كان تانباي يستغرب من نفسه، كيف تمكن أن يتكلم يوماً ما ضد اليورتات التي لم يكن أفضل منها حتى الوقت الحاضر للرعاة، واستغرب كيف كان بإمكانه أن لا يرى إيجابيات اليورتا، كمسكن مؤقت للرعاة، وأنها شيء رائع من صنع الشعب حسب ضرورات حياة الرعاة، حيث إن كل شيء فيها، كان له أهمية بالنسبة للحياة، وتم تصميمها حسب الضرورة للأجيال المتعاقبة، وخاصة الزاوية للأطفال.

ها هو تانباي يعيش الآن في يورتا عتيقة، وذات خروق كبيرة، بقيت له من الكهل تورغوي، وعاش فيها تورغوي ومن بعده أجيال عدة! وما زالت تقف بفضل صبر ورعاية واهتمام جايدار التي كانت تمضي الكثير من الأيام في إصلاحها وصيانتها حتى تبقى صالحة للحياة، وبعد مدة هطلت أمطار غزيرة وبعض الثلوج، فاضطرت جايدار أن تعمل على إصلاحها وترقيعها بقطع اللباد فوق الأماكن الممزقة، وهكذا إن حياة الرعاة كانت تتطلب الاهتمام باليورتات دائماً.

إلى متى سوف تتعذب جايدار؟ كانت تشتكي، وتشتكي دائماً لجاراتها قائلة: - انظرن، هذا ليس لباد، بل صوف تالف، يتفتت كالرمل، أما الأخشاب الأساسية في اليورتا، فقد تحولت إلى أخشاب منخورة لا تتحمل أية صدمة! ولا أريد أن أصفها بكلمات سيئة... وكانت غالباً ما تخاطب تانباي قائلة:

- حبذا لو تمكنت أن تحصل على قطعة لباد جيدة، لقمت بتصليح الأماكن البالية في اليورتا، فهل أنت صاحب بيت، أو لا علاقة لك بهذا؟ وهل سنعيش في يوم من الأيام كالبشر!...

في بداية الأمر، كان تانباي يطمئن زوجته، أن كل شيء

سيتحسن، وعندما طالب بيورتا جديدة، وكان آنذاك في القرية، كان المهنيون القدامى قد ماتوا، والجيل الشاب، لا يملك تصوراً عن هذه الصناعة، وكيف سيقومون بتصنيعها في الوقت الذي لم يعد للباد أثر في الكولخوز، وأمام ضغط جايدار، ألح تانباي على المسؤولين قائلاً:

- حسناً، أعطونا الصوف ونحن سنقوم بصنع اللباد! فيجيبونه مستغربين ما يطلب:

- عن أي صوف تتحدث! فهل سقطت أنت عن سطح القمر؟ فكل الصوف يقدم لتنفيذ الخطة الموضوعة لتصديره للخارج، ولا يجوز حجز أي غرام من الصوف للحاجات المحلية.. واقترحوا عليه، أن يوفروا له خيمة مصنوعة من قماش الشوادر.

رفضت جايدار هذا العرض رفضاً مطلقاً وقالت:

- الأفضل أن نعيش في يورتا ممزقة عتيقة وذات خروق من أن نعيش في خيمة لا تتحمل نسمة هواء! والكثير من مربي الحيوانات، كانوا مضطرين في هذا الوقت أن يتحولوا إلى الخيمات، ولكن بئس الحياة في مثل هذه الظروف! إذ يصعب الوقوف كما يصعب الجلوس، ومن الصعب تعليق مصباح فيها، وفي الصيف حر لا يطاق، وفي الشتاء قرٌ لا تتحمله الكلاب، وليس من مكان حتى يعلق الإنسان عليه ثيابه وأغراضه، وليس من زاوية لتحضير الطعام، ولا من مكان لتخديم الأطفال في حاجاتهم الضرورية، وإذا أراد الإنسان أن يحسن فيها، فيصعب عليه ذلك، وإذا حل ضيف، فلا تجد له مكاناً، ولا نقدر أن نتكلم، وخاصة إذا أراد أن ينام ليلته للضرورة، فقالت جايدار محتجة على هذه الخيمة الجديدة:

- كلا، كلا! إنني أرفض هذه الخيمة، أما أنت، فكما

تريد، وبالنسبة إليّ لن أعيش فيها فالخيمة للشباب غير المتزوجين، حتى إنهم لا يطيقون العيش فيها مدة طويلة، أما نحن فلدينا أطفال، ومن الضروري الاعتناء بهم، وغسل ثيابهم، وتربيتهم كما يجب. كلا، لن أوافق!

ذات يوم، ذهب تانباي إلى صديقه تشورا، وحدثه بكل هذا، وما يعاني الكولخوز من مشكلات، وهو يقول له مستغرباً:

- كيف يحصل هذا أيها الرئيس؟

هز تشورا رأسه بألم ومرارة، وتمعن قليلاً، وقال بحسرة:

- كان علينا أن نفكر بكل هذا في تلك الأيام التي عملنا فيها معاً، وكان لدينا رفاق في القيادة يصغون إلى مطالبنا، أما الآن، فما الذي يحصل يا رفيقي! نكتب الرسائل ولا نعرف ماذا سيجيبون، بالطبع أنهم يقدمون الحجج المختلفة، كحجة أن الصوف مادة ثمينة ونادرة، وهي مادة للتصدير، ومن غير المجدي هدر هذه المادة في السوق الداخلي.

التزم تانباي الصمت، وهو يستمع إلى رفيقه تشورا، وأدرك أنه كان مخطئاً في قدومه لتقديم الشكوى لرفيقه، وابتسم ساخراً من غبائه الذاتي، وفكر في قرارة نفسه: «من غير المجدي! ها- ها- ها-! غير مجدي!!» وأخذ صدى هذه الكلمة «غير مجدي» يقرقع في دماغه، ولم يقتنع بصحة هذه الكلمة وغرابتها، وعدم تطابقها مع واقع الأمر، ومتطلبات الحياة.

هكذا عاش تانباي في اليورتا العتيقة، والمحروقة في أماكن عدة منها، وتحتاج لبعض الصوف العادي لإصلاح اللباد. وبالمناسبة أن الصوف موجود، وبكميات كبيرة، فقد جمع عند قص صوف الأغنام في بداية الصيف، وما زال في المستودعات يتعفن للتصدير!

اقترب تانباي من اليورتا التي يعيش فيها وهو يحمل القيد في يده، وبدت الدنيا في عينيه سوداء قاتمة ضبابية لا معنى لها، وهذه اليورتا العتيقة المحترقة من نقاط عدة فملأ رأسه الشيطان بالشر، وكان على استعداد أن يفعل كل شيء سيئ، وحتى ضد ذاته بالدرجة الأولى، وعندما أتى المرسلون من قبل رئيس الكولخوز لإعادة غولساري بعد أن عالجه، وقف تانباي أمامهم، وهز القيد في وجوههم، وهو يقول بحدة ومن بين أسنانه:

- خذوا هذا القيد! واعطوه لرئيسكم، وقولوا له: إن تانباي يقول لك، لو تجرأت، ووضعت هذا القيد على يدي الحصان الرهوان، لكسره فوق رأسك!...هكذا قولوا له!...

من العبث لفظ هذه الكلمات، حقاً من العبث! إذ كانت هذه اللحظات التي لم يتمالك نفسه فيها هي سبب البلاء اللاحق في حياته...

9

كان نهاراً مشمساً لطيفاً مشبعاً بنسمات الربيع، بينما كانت السماء موشحة بغيوم رمادية شفافة، وتران إلى الأسماع حفيف الأوراق الندية، يلامس شغاف القلب بهدوء، وكان الدخان يتصاعد هادئاً من المداخن الآجرية، وفي السهول نمت الأعشاب، وخاصة على طرقات المشاة، مما جعلهم ينعمون بالمسير، وبالقرب من إسطبل الخيل، كان الأولاد يلعبون لعبة الـ «تشجيك»(*) (السميلي) حيث يقذفون في الهواء

(*) تشيجيك طائر من الطيور المنتشرة في آسيا الوسطى، ونسبة له كانت هناك لعبة تسمى هكذا «تشجيك»، وتشابهها لعبة الأطفال العربية «العصفورة» حيث يختار الأطفال قطعة خشبية تشبه العصفور ثخينة في الوسط، ومدببة من الطرفين، إذ يقوم الولد بنقر القطعة على رأسها فترتفع، ثم يقذفها بدقة في يده بعيداً قدر استطاعته.

عصفورة خشبية، ثم يقوم ولد بارع باللعبة، فيقذف بها بقطعة خشبية في يده بعيداً عن الطريق، ثم يأخذ يقيس المسافة بينه وبين المكان، الذي سقطت فيه بقطعة خشبية أخرى كمقياس، وهو يعد - واحد، اثنان، ثلاثة... سبعة، عشرة، خمسة عشر... أما اللجنة المختارة كحكام يسيرون إلى جانب الولد، الذي يقوم بالقياس، ويدققون حتى لا يخدع بتحريك المقياس في يده، ويعلن عن النتيجة، اثنان وعشرون.

كان هناك ثمان وسبعون، والآن اثنان وعشرون - أخذ يحسب الولد، وهو يجمع النتيجة، فيصرخ صاخباً وفرحاً خارجاً عن طوره: المجموع يساوي مئة! لقد وصلنا إلى المئة وربحنا! فيصرخ الفريق الرابح:

- أورا - أورا، لقد بلغنا المئة!

هذا يعني أنه حقق النتيجة المطلوبة، وسجل هدفاً، وهنا من دون جدل ولا نقاش، كان على الفريق الخاسر أن يُزمر حسب قواعد اللعبة، فذهب المنتصر إلى الحصان، ومن هناك قذف العصفورة على قدر استطاعته، وركض الكل إلى المكان، الذي ستسقط فيه، ومن هناك قام الشاب نفسه بقذفها مرة أخرى، وهكذا كرر الضربة ثلاث مرات، حتى ظهرت الدموع في عيون الخاسرين، فعليهم أن يُزمروا مدة طويلة! وقانون اللعبة لا يرحم الخاسرين، ويقول الحكم للخاسر عند تردده:

- «ماذا بك تقف، ابدأ بالتزمير!». فيأخذ عبر المزمار كمية من الهواء في صدره ويركض وهو يقول:

أكباي، كوكباي

لا تسوق العجول إلى الحقل

وإذا أطلقتها فلن تلحقها

وسيكون لك عقاباً - دو- و- و- و!

أخذ رأسه يدور، ورغم ذلك كان عليه أن يتابع التزمير من دون توقف، ولكنه رغم الاجتهاد الذي بذله، لم يتمكن من الوصول إلى الحصان، وكان عليه أن يعود إلى البداية، ويكرر مرة أخرى، وفي هذه المرة أيضاً، لم يتمكن من الوصول إلى الحصان، فلم يكف الهواء في صدره، وآلمه رأسه، أما المنتصرون، فكانوا يزيدون الضجيج. طالما لا يكفي الهواء في صدرك، فعليك أن تحملنا على ظهرك! وهكذا يلقي الفائز بنفسه على ظهر الخاسر، وهكذا وافق أن يحمله حتى النهاية كالحمار، بينما أخذ الفائز يركله برجليه قائلاً:

- سر إلى الأمام بسرعة - أسرع أكثر! انظروا أيها الشباب هذا حصاني غولساري، انظروا كيف يمشي، كما يسير الرهوان...

أما غولساري فقد كان يقف خلف الجدار في الإسطبل منهكاً حتى إنه لم يتحمل أن يضعوا عليه السرج اليوم، ولم يطعموه ولم يقدموا له الماء منذ الصباح. لقد نسوه كلياً، فالإسطبل قد فرغ، والعربات قد انطلقت، وذهب الخيالة كلّ في مهمته، وبقي غولساري وحده واقفاً في مكانه...

أخذ ساسة الخيل بتنظيف الإسطبل من الفضلات، بينما تابع الأولاد الصراخ خلف الجدار. كان يحلم غولساري بأن يكون مع القطيع الآن فوق الهضاب الفسيحة، ويتخيل كيف ترعى الخيول هناك في أماكن متوزعة، وتطير من فوقها أسراب الإوز الرمادي، وهي ترف بأجنحتها، وتنادي أسرابها للالتحاق خلفها...

أخذ يشد غولساري محاولاً أن يقطع الرباط، ولكنه عجز عن ذلك، وكان من غير الممكن أن يفلت، فقد أمكنوا رباطه بشكل

جيد بسلسلتين حديديتين، وخطر له أن يستنجد بأصدقائه وصديقاته من الخيول؟ فرفع رأسه عالياً إلى النافذة تحت السقف، وأخذ يضرب بحوافره المهشمة على الأرض بشدة، ويصهل بصوت متقطع وطويل: «أين أنتم- م- م؟»، فهب السايس الذي يعمل في الإسطبل وهوى عليه بالرفش من دون أن يضربه:

- قف أيها الشيطان! ثم توجه بالكلام لأناس خلف الباب، سائلاً: هل أخرجه لكم؟ فأتاه الجواب من الخارج:

- أخرجه حتى نرى وضعه!

وهكذا قام السايسان في الإسطبل بحل أربطة الرهوان وإخراجه إلى الساحة، فأبهر الضوء عينيه، أما الرياح فقد كانت قوية، وهنا حرك الرهوان أنفه متحسساً الجو للتأقلم مع كمية الهواء المنعش في فصل الربيع. بينما جاءت رائحة البراعم الربيعية مع شيء من المرارة، وفاحت رائحة الطين برطوبة قوية، وأخذ الدم يغلي في جسمه حتى تمنى أن ينطلق ويعدو وهو يرقص في مكانه رقصته المعهودة، فصرخ عليه عدد من الرجال كل واحد منهم حسب مزاجه حتى جعلوه يجمد في مكانه:

- قف، قف أيها المجنون، اجمد في مكانك، يكفيك رقصاً!

ما الذي حدث اليوم، إذ تجمع الكثير من الناس حوله؟ وقد شمروا عن سواعدهم القوية، المغطاة بالشعر، ومن بينهم كان رجل ضخم في رداء رمادي، قام بوضع أدوات معدنية براقة على قطعة قماش بيضاء تلمع تحت نور الشمس بقوة، أما الآخرون فقد أمسكوا بعض الحبال، وفجأة شاهد الجميع رئيس الكولخوز الجديد يقف أمامهم مبعداً المسافة ما بين رجليه الثخينتين والقصيرتين في بنطال خيالة واسع. كان ذا حاجبين كثيفين، ولكنه لم يشمر عن ساعديه

كالأخرين، فألقى التحية رافعاً يده اليمنى، ثم سلم على البعض، وبيده الأخرى كان يمسك أزرار ياقة سترته الرسمية، ولقد شاهده البعض البارحة، ورائحة الفودكا تفوح منه، وهنا جاء صوت إبراهيم سائلاً رئيس الكولخوز:

- هل نبدأ يا جوركول ألدانوفيتش؟

أما الرئيس فقد اكتفى بإماءة من رأسه بالموافقة، قائلاً:

- ماذا، ما بكم تقفون! باشروا بالعمل، فأعطى إبراهيم أمره لهذه المجموعة من الرجال مرتبكاً:

- باشروا. وأخذ يحل أزرار قميصه، ثم علقه على مسمار في بوابة الإسطبل، ووضع قبعته المصنوعة من فرو الثعالب فوق المسمار، ولكنها سقطت على الزبل، فتناولها بتقزز، ونفض الأوساخ عنها، ثم أعاد تعليقها ثانية، وقال لرئيسه: حبذا لو تأخذون حذركم يا جوركول ألدانوفيتش، لأن هذا الحصان، من الممكن على حين غره، أن يضرب بإحدى قوائمه، ويصيب واحداً منكم، فهو حيوان، وعلى الإنسان أن ينتظر أي شيء مفاجئ منه.

انكمش جلد غولساري، حيث أحسّ بحبل مجدول من الشعر يشد على رقبته، ولقد حبكوا هذا الوهق بأنشوطة سلسة على صدره، ودفعوا الحصان إلى الجانب الآخر، فلماذا يلزم كل هذا؟ ولماذا يلف هؤلاء الرباط على رجليه الخلفيتين، ولماذا يكبلون حركته فأصيب الحصان الرهوان بحالة من الهلع، وأخذ يشخر بقوة، وينظر متحفزاً لأية مفاجأة تهدد حياته، ويتساءل: لماذا يفعلون كل هذا؟

- أخذ إبراهيم باستعجال، يطلق الأوامر على هذه المجموعة:

- لفوا الحبل جيداً حول قوائمه، ولندفع نحن به من هذا الصوب، حتى يقع على الأرض!

تقدم اثنان من اليمين واثنان من اليسار، وكانوا رجالاً أقوياء من ذوي السواعد المكشوفة والمكسية بالشعر، وشدوا الوهق إليهم، فوقع غولساري على الأرض كأنه قد صعق، فأصدر صوتاً غير طبيعي «كخا» - آ- آ! متألماً من سقوطه على الأرض، وارتطامه بها بقوة، ولمعت الشمس في عينيه، وهو لا يعرف لماذا يقوم هؤلاء بهذا العمل؟ ولماذا رموه على جانبه؟ ولماذا تطاولت وجوه البشر في عينيه إلى الأعلى، يا للغرابة ولماذا امتدت الأشجار حتى وصلت أعلى السماء؟ ولماذا أبقوه مرتمياً على الأرض، وماذا سيفعلون به؟ لا، لا يجوز هذا.

أخذ غولساري يحرك رأسه يمنة ويسرة، وهو يضغط أعصابه بكل ما أوتي من قوة، فحزت الأنشوطة في جسمه ثلماً مؤلماً، والتصقت رجلاه ببطنه حتى الأخير. حاول الرهوان أن يفلت من هذه الأنشوطة، وعبثاً كان يحاول بكل قوته، إذ كان يريد أن يحرر، ولو قائمة واحدة من قوائمه، ويرفس هؤلاء المعذبين له من حوله، ولكنه لم يتمكن من ذلك رغم كل محاولاته، لأن الوهق مع الأنشوطة، كانا يشدان أكثر وأكثر، ويشلان حركته، وهنا جاء صوت إبراهيم متابعاً أوامره:

- شدوا الأربطة، واضغطوا على الحبل الذي يحيط بقوائمه، واحكموا سيطرتكم عليه!

هجم الكل على الحصان، وأخذوا يضغطون عليه بركبهم، وخاصة على رقبته ورأسه بقوة حتى يلتصق بالأرض.

عاد إبراهيم يكرر: اربطوه جيداً! أوثقوا الأنشوطة، أما الطبيب البيطري، فأخذ يسرع في العمل، ويتأكد من أربطة قوائم الحصان، فشد كل واحد الحبل من جهته حتى لم يعد الحصان قادر على الحركة مطلقاً، وتم جمع نهايات الحبال في عقدة واحدة فوق

صدر الحصان، فأخذ غولساري يشخر ويتأوه، ويطلق صيحات غريبة غير مفهومة، حتى يتحرر من هذه الأنشوطة القاسية، ويتمكن الرهوان من أن يقذف وبالدرجة الأولى أولئك الذين يجلسون على رقبته ورأسه، ولكنهم يعودون من جديد ويغرسون ركبهم فوقه، فأخذ الرهوان يرتجف بعد أن بلله العرق كلياً، وأصبحت القوائم عاجزة عن الحراك، وعند ذلك استسلم. فأخذ كل واحد يتنفس الصعداء، ويعبر عن غضبه اتجاه هذا الحصان:

- فوه! أخيراً، هدأ بعد أن تم تثبيته بشكل جيد! ويقول آخر: يا له من حصان قوي لا يقهر!. ويقول ثالث: ها هو الآن قد استسلم، ولم يعد قادراً على الحراك، حتى لو كان بقوة الجرار!

هنا اقترب رئيس الكولخوز الجديد من الحصان، وهو مرمي على الأرض، فجلس القرفصاء عند رأسه، وعبر عن حقده المكبوت من البارحة، وابتسم ابتسامة ملؤها الكراهية الصارخة له، متظاهراً بالقدرة التي لا معنى لها، وكأن أمامه قد اضطجع، وكبل بكل أطرافه، حيوان لا على التعيين، وليس الحصان الذي كان يركبه ويستخدمه كيفما شاء، وتعامل معه كأنه عدو لدود له، قد أوثق الوهاق عليه في الأسر.

جلس إبراهيم بالقرب من رئيس الكولخوز، وهو يمسح العرق المتصبب على وجهه، متظاهراً بالتعب والإعياء أمام رئيسه، ثم أخذ كل منهما سيجارة، وبدأ ينفث الدخان فوق رأس الرهوان، منتظرين ما سيتبع ذلك من أمور.

خلف الجدار كان يلعب الأطفال في لعبة «العصفورة».

أكباي، كوكباي.

لا تسوق العجول إلى الحقل.

وإذا أطلقتها - فلن تلحقها.

وسيكون لك العقاب - دو- و- و- و!

كانت الشمس ترسل أشعتها بقوة، ولقد شاهد غولساري، السهل الواسع مؤخراً، وكيف ترعى قطعان الخيل بحرية في المراعي الفسيحة، وشاهد الطيور في السماء، بألوانها وأشكالها المتنوعة، وخاصة طيور الإوز الرمادية تحرك أجنحتها وتنادي أفراد جماعتها كي تلتحق بها...

وعلى شفاه الرهوان التي كانت جميلة قبل أيام، تجمع الذباب الآن، وهو يمتص من دمه وعرقه بحرية، طالما لا يقدر على طردها والدفاع عن نفسه.

وأخيراً، استأذن إبراهيم رئيسه جوركول ألدانوفيتش ببدء العملية، فوافق الرئيس على الفور بإشارة من رأسه، فهب إبراهيم من مكانه على الفور، وهجم الجميع خلفه، وصبوا ثقلهم فوق الحصان من جديد، وهم يغرسون ركبهم وصدورهم فوق جسم الحصان الرهوان المصفد، وضغطوا على رأسه حتى يلتصق بالأرض كلياً، وثمة أيدٍ امتدت إلى ما بين قائمتيه الخلفيتين.

صعد الأولاد إلى جانب المدخنة كما تفعل العصافير، ويقول بعضهم للآخر:

- انظروا يا أولاد، انظروا ماذا يفعلون! فأجاب آخر:

- إنهم ينظفون حوافر الرهوان، فعلق ثالث قائلاً:

- إنك لا تفهم شيئاً، ولا تدرك ماذا يحدث، تقول إنهم ينظفون الحوافر؟ وما علاقة الحوافر هنا!. فصرخ بهم إبراهيم مهدداً:

- إيه! ما الذي يلزمكم هنا، اذهبوا، وإلا جئتكم بالسوط، اذهبوا والعبوا بعيداً، فليس لكم هنا مكان للعب!.

هدأ الصخب قليلاً.

انقبض غولساري على نفسه عندما أحس بشيء بارد يلامس خصيتيه، أما صاحب الرهوان الجديد، فقد جلس القرفصاء عند رأسه، وأخذ يتابع العملية التي انتظرها، وخطط لها مع الطبيب البيطري وإبراهيم، وفجأة أحس الحصان بألم شديد وحاد فجر النور في عينيه، وكأنه قد هبت فيهما شعلة نار قوية، وعم الظلام على الفور أسود دامساً...

بعد فترة من الزمن، وتقطيب مكان العملية، قال إبراهيم، هكذا يا جوركول ألدانوفيتش، كل شيء تم على ما يرام، وأخذ يمسح يديه قائلاً:

- إنه لن يذهب بعد اليوم إلى أي مكان، فكل شيء قد انتهى بالنسبة إليه، أما بالنسبة لتانباي فلا يهمكم أمره، وابصقوا على ما يقوله، فهو دائماً كان هكذا، وهو لم يتسامح حتى مع أخيه نهائياً، فلقد صادر بعض ممتلكاته، ونفاه إلى سيبيريا، فلن يتمنى الخير لأحد، ويحسد الجميع...

كان إبراهيم يشعر بأريحية، وتنفس الصعداء، ثم أخذ قبعته، التي كان قد علقها فوق المسمار، ونفض الغبار عنها، ومسح على وبرها، ووضعها بعناية على رأسه المبلل بالعرق.

أما الأولاد فقد استمروا باللعب في لعبتهم:

أكباي- كوكباي.

لا تسوق العجول إلى الحقل.

وإذا أطلقتها - فلن تلحقها.

وسيكون لك عقاباً - دو- و- و- و!

وهنا يقول رئيس الفريق المنتصر: آها، أنك لم تركض حتى

النقطة المحددة، ولذلك جهز ظهرك للحمل كالرهوان، وامش يا غولساري مسرعاً! أورا- أ، هذا هو حصاني!

أخذ الجو يصبح صافياً، والشمس تزيد من شعاعها...

10

آه، يا لتلك الليلة الطويلة المظلمة، فالرجل الكهل والحصان العجوز وحيدان، وهناك كانت تشتعل شعلة على حافة المنحدر، تخبو وتلتهب حسب الريح...

تجمد جانب الرهوان فوق الأرض المتجمدة القاسية، بينما كانت مؤخرة رأسه تحاول إزاحة الثقل الحديدي من الألم، والرأس تعب من الحركة إلى الأعلى والأسفل، كما كان يقفز هو في تلك الأيام، وهو يتلوى تحت العذاب، والآلام المبرحة، ويريد أن يحرك رجليه بحرية، ولكنه لم يتمكن من ذلك بسبب آلام العملية، وقد عجز عن ذلك، ولم يتمكن من السير. إنه كان يرغب أن يعدو كعادته بسرعة حتى تسخن حوافره من الركض، ويحلم أن يطير فوق الأرض، ويتنفس الهواء ملء صدره. كان يتحرق حتى يعدو بأقصى سرعته نحو المرعى الذي ألفه منذ صغره، وحتى يقف على رجليه، ويرفع رأسه عالياً، ويصهل بكل استطاعة حنجرته، وهو ينادي القطيع لتأتي الإناث والأمهار إليه، ولكن القيود لم تسمح له، فهو الآن وحيد، ويعاني من قرقعة السلاسل كالأسير الهارب في قيوده. يسير ويقفز خطوة بعد خطوة، ولكن كل شيء كان بلا أمل، فأخذ يعاني من الوحدانية القاتلة، وها هو القمر يلمع في الأعالي فوق الغيوم، وكأنه أمام الأعين، عندما كان الرهوان يقفز، وهو يشمخ برأسه، ولا يبالي بما حوله.

تناوب النور والظلام في لحظات متعاقبة، فأحياناً يعم الضوء، وأحياناً تعود الظلمة، ... وتعبت عيناه من النظر.

كانت السلاسل تقرقع، وتلطخ قوائم الرهوان بالدم قفزة، ثم أخرى، ثم ظلام، وفراغ، فكم من الوقت يمكن أن يسير في هذه القيود، فكم هو من الصعب السير في قيود السلاسل!

هناك كانت تشتعل شعلة على حافة المنحدر... ويتجمد جانب الرهوان فوق الأرض المتجمدة القاسية...

11

بعد أسبوعين، حان الوقت للتوجه إلى مرعى جديد، ومن جديد إلى الجبال لفترة الصيف المقبل والخريف وكل الشتاء حتى الربيع القادم، فكم يجد الإنسان من صعوبات عندما ينتقل من شقة إلى شقة أخرى! ومن أين تتجمع هذه الأغراض الكثيرة؟ ومن هنا، يوجد مَثلٌ في قرغيزيا منذ القدم مفاده: إذا كنت تظن أنك فقير، جرب أن تنتقل من مكان إلى آخر.

كان من الضروري الاستعداد إلى الرحيل، ومن اللازم أن يقوم بأعمال كثيرة ومختلفة، وخاصة أنه كان يجب عليه الذهاب إلى المطحنة، لجرش الحبوب، وكذلك إلى السوق، وإلى مصلح الأحذية، وكذلك إلى المدرسة الداخلية لرؤية الابن... أما تانباي فقد كان يسير، وكأنه يغرق في الماء، وبدا لزوجته غريباً كلياً في تلك الأيام، إذ كان ينهض في الفجر المبكر، ويسرع في الخروج، ولم يتمكن الإنسان من الحديث معه، أو يسأله سؤالاً ما، ويسرع إلى القطيع، ويعود عند الغداء كئيباً قلقاً، وكأنه ينتظر شيئاً رهيباً، حتى لم يعرف الهدوء لساعة ما، فهو قلق متشنج باستمرار، فحاولت جايدار أن تعرف شيئاً مما يعاني، ولا يجيب عن الأسئلة، فسألته ذات يوم:

- ماذا يحدث معك؟ أخبرني ولو بجملة واحدة. فأجاب منزعجاً:

- لقد رأيت في نومي مناماً مزعجاً منذ عدة أيام. فردت عليه جايدار:

- تجيب هكذا، حتى تتخلص من الإجابة الحقيقية، ولا تريد الإجابة عن سؤالي؟

- كلا، هكذا في واقع الأمر، ولم أستطع التحرر من الأفكار التي جاءت في ذلك الكابوس.

- عشنا، وشفنا، ألست أنت الذي كنت قائداً ومرشداً للملحدين في القرية؟ ولست أنت الذي كانت العجائز يلعنوك لكفرك؟ إنك قد كبرت يا تانباي، وها أنت تتخبط في مكانك بالقرب من القطيع، والرحيل أصبح قريباً، وأنت كأنك لا تفكر بالأمر، فهل بإمكاني وحدي أن أقوم بكل هذه الأعمال، والاعتناء بالأولاد؟ لو قمت بزيارة لصديقك تشورا، فالناس المحترمون لا ينسون الأصدقاء، وزيارة المرضى شيء ضروري قبل الرحيل لفترة طويلة، فأجاب تانباي:

- لدينا الوقت الكافي. سنقوم بهذا لاحقاً.

- متى لاحقاً؟ ماذا حصل لك، تخاف أن تذهب إلى القرية؟ فلنسافر غداً معاً. نأخذ الأولاد ونذهب فأنا سأذهب لقضاء بعض الوقت وشراء بعض الأغراض. في اليوم الآخر، اتفق تانباي مع جاره الشاب أن يرعى الخيول في القطيع، وركبوا حصانين مع بناتهما، إذ ركبت جايدار مع البنت الصغرى على حصان، بينما ركب تانباي مع البنت الكبرى، ولراحة البنتين قاما بوضعهما فوق مقدمة السرج.

ها هم يسيرون في طرق القرية، ويحييون كل من يلتقي بهم ويعرفهم، وبالقرب من شركة الحديد، أوقف تانباي الحصان، ثم قال لزوجته:

- توقفي! ثم نزل عن الحصان، وأجلس البنت الكبرى خلف أمها، فسألته زوجته:

- ماذا حل بك، إلى أين أنت متجه؟ فأجابها على عجل:

- قريباً سأعود يا جايدار، اذهبي أنت وقولي لتشورا، إنني الآن سأحضر بسرعة، ففي الإدارة توجد بعض الأعمال قبل أن يذهبوا إلى الغداء، وكما توجد بعض الأعمال في شركة الحدادة، فمن الضروري المرور لاستلام حدو الخيل الاحتياطي اللازم خلال فترة الغياب بعد الرحيل، فقالت له:

- ليس من المستحب أن يدخل كل منا على حدة، فأجابها على عجل:

- لا بأس، فلا ضير في الأمر، اذهبي الآن، وسأحضر بسرعة.

لم يذهب تانباي إلى الإدارة، ولا إلى شركة الحدادة، بل ذهب مباشرة إلى إسطبل الخيول، وطالما أنه لم يكن لديه الوقت، ولم يلتقي بأحد عند الإسطبل، فقد قرر الدخول إلى إسطبل الخيل بمفرده. انتظر عند المدخل قليلاً، حتى تأقلمت عيناه على الظلمة في الإسطبل، وكان فمه قد نشف كلياً، أما الإسطبل فكان خالياً وهادئاً، وكل الخيول خارجه في العمل. نظر تانباي من حوله، وتنهد متحسراً. خرج من الباب الجانبي عله يرى أحداً في ساحة الإسطبل من الساسة العاملين، وهنا شاهد ما كان يخاف أن يراه كل هذه الأيام، فقال في ذاته:

هكذا، كنت أعرف، أيها الأوغاد! وهو يشد قبضة يده، إذ شاهد غولساري يقف إلى جانب عربة محملة، وتم شد رباطاً من ذيله إلى رقبته، وبين قائمتيه الخلفيتين، كان هناك ورم بحجم الإبريق، وقد بدا عليه الالتهاب المحتقن. وقف الحصان بلا حراك ذليلاً وهو

يحني رأسه في العليقة يقضم ما أنعموا عليه من علف. لاحظ تانباي كل شيء، وكان يعض على شفتيه ألماً وحزناً. أراد أن يقترب من الرهوان، لكنه لم يجرأ، إذ ساء وضعه جداً، وأصابه شيء من الدوران والغثيان نتيجة هذا الوضع في الإسطبل الفارغ، حتى بدا كالصحراء الجرداء، ولم يوجد فيها إلا الرهوان الوحيد المخصي، فاستدار تانباي، وولى الأدبار مندحراً. لقد فات الأوان، ولم يعد بالإمكان إصلاح أي شيء.

في المساء، وعندما عاد مع أسرته إلى اليورتا، قال تانباي بحزن لزوجته:

- لقد تحقق الكابوس، الذي تكلمت لك عنه، فسألته:

- وماذا علمت؟

- لم أرغب بالحديث عن هذا في بيت تشورا، فإن غولساري لم يعد يأتي إلينا ثانية، فهل تعلمين ماذا فعلوا به؟ لقد أفقدوه ذكوريته! إذ قام الأوغاد بخصيه، فردت جايدار:

- إنني أعرف هذا، ولهذا أحببت أن آتي معك إلى القرية، فأنت كنت تخاف أن تعرف بهذا؟ولماذا تخاف من هذا؟فأنت لست بالصغير! وهل ترى أن هذه هي المرة الأولى التي يقوم بها بني البشر بخصي الأحصنة؟ وهل ستكون هي المرة الأخيرة؟فهكذا كان الأمر منذ قديم الزمان، وهكذا سيكون في المستقبل، وهذا معروف لكل واحد.

- صمت تانباي ولم يقل شيئاً، تعقيباً على ما قالت، وبعد برهة قال لها:

- كلا، ولكن يبدو الأمر لي، بل أصبحت مقتنعاً أن رئيس كولخوزنا الجديد إنسان سيئ، وهذا ما تنبأ به قلبي مسبقاً، فأجابته جايدار:

- كف عن هذا يا تانباي، فهل لأن رئيس الكولخوز أمر بخصي حصانك أصبح رجلاً سيئاً على الفور؟ لماذا تفكر هكذا؟ فرئيس الكولخوز إنسان جديد، والملكية واسعة، وعليه إدارتها، وهي مهمة صعبة، وصديقك تشورا يقول، إن الوضع في الكولخوزات صعب، وستكون الرقابة مشددة، وسوف يقدمون المساعدة، ويضعون الخطط السنوية للعمل، وأنت تصدر الأحكام قبل الوقت، فنحن لا نعرف إلا القليل...

بعد العشاء توجه تانباي إلى القطيع، وبقي هناك حتى الهزيع الأخير من الليل، ولقد تكلم مع نفسه كثيراً، وأنب ذاته محاولاً أن يغير طرق تفكيره، وأراد كبح نفسه حتى ينسى كل شيء، ولكن هذا كان من العسير أن يخرج كل هذا من رأسه، وخاصة ما شاهده ظهراً في الإسطبل من وضع سيئ لحصانه، وأخذ يفكر وهو يدور حول القطيع، ويلتف حوله في السهل: «ربما حقاً أنه لا يجوز الحكم على الإنسان فوراً؟ يا للغباء طبعاً، فهي تفكر أنني أرعى الخيول وأسوسها، وقد أصبحت كهلاً، وأنني لا أعلم شيئاً، ولكن السؤال الذي يعذبني هو: إلى أي وقت ستبقى الحياة صعبة هكذا؟... ولنفرض أنني مخطئ، وعسى أن أكون مخطئاً، ولكن الآخرين يفكرون هكذا أيضاً...».

لف تانباي في السهل حول قطيعه عدة مرات وهو يفكر، ولكنه لم يجد إجابة على استفساراته وشكوكه، وتذكر كيف كانت بداية الكولخوز وكيف كانوا يعدون الناس بالسعادة القريبة في الحياة، وهو كان من أكثر الناس تحريضاً على إنشاء الكولخوز، ونشر الأفكار الواعدة بالخير بين الناس، وفعلاً، يا للأحلام الوردية التي كانت تدور في عقول الناس والشباب خاصة،

وكيف حارب الناس وعملوا من أجل الوصول إلى هذه الأمنيات. لقد قلبوا وقضوا على كل شيء كان: لقد عشنا في بداية الأمر في وضع ليس بسيئ، وكان من الممكن أن نعيش أفضل من ذلك، لو لم تحدث هذه الحرب اللعينة، وماذا الآن؟ فكم من السنين قد مضت بعد الحرب، ونحن نرقع الملكية ترقيعاً، كما نصلح اليورتا القديمة، إذ نصلح جانباً منها، فتتمزق من مكان آخر، لماذا؟ فتانباي يفكر، أن بعض الناس يعتقدون بأن الكولخوز ليس لهم، كما كان سابقاً، كأنه أصبح غريباً؟ وسابقاً كان ما يقر في الاجتماع يصبح قانوناً، ويجب أن ينفذ، ويعرفون أن القانون قد وضع من قبلهم وعليهم تنفيذه، أما الآن، أصبح الاجتماع مجرد مكان للأحاديث الفارغة، فليس لأحد شأن بأمورك، فالكولخوز كما يتضح ليس للكلخوزيين، الذين يديرون إدارته وشؤونه، بل أنهم قادمون من خارجه. كان من المفيد لو صدقت المقولة: «الذي يشاهد من الخارج، يرى بدقة أكثر من أولئك الذين داخل الدائرة»، فما العمل، كيف من الأفضل أن تتم الأمور، وكيف من الأفضل إدارة الملكية، ويكفي دوران وتمحيص بهذه المسألة! أما النتيجة فهي لا شيء، وحتى لو أردت أن تلتقي بالناس، وتتحدث معهم، فإنك تخاف من ذلك، فأحياناً يسألونك: أنت إنسان حزبي، وبدأت العمل في إنشاء الكولخوز، وكنت ترهق حنجرتك أكثر من أي إنسان آخر، فاشرح لنا كيف تتم هذه القضايا الآن؟ وماذا تقول للناس؟ فحبذا لو جمعوا الناس وحدثوهم عن حقيقة الأمر، وماذا يرتبط بماذا، وسألوهم، ماذا يدور في خواطرهم، وما هي همومهم، ولكن للأسف يحصل العكس، إذ يأتي المسؤولون من قيادة المنطقة، وتلاحظ أنهم يختلفون عن أولئك الأقدمين، فسابقاً كان المسؤول من أوساط الشعب، والجميع يملكون الحق بالدخول

إلى مكتبة، أما الآن، فيأتي المسؤول ويرفع صوته عالياً على رئيس الكولخوز في مجلس الإدارة، أما مع المجلس الريفي فلا يتحدث مطلقاً، وفي اجتماع الحزب يتم الحديث عن الوضع الدولي، أما عن الوضع في الكولخوز، فهو ليس مهماً، فاعملوا ونفذوا الخطة، وانتهى الأمر...

تذكر تانباي، أن شخصاً مسؤولاً جاء إلى الكولخوز منذ فترة قصيرة، وكان حديثه عن علم جديد في مجال اللغة ودراستها، وحاول تانباي أن يلفت نظره إلى أعمال الكولخوز، وإلى الحياة الصعبة، ولاسيما تأمين السكن، ولكنه كان يفكر أن هذه الطروحات لأمثال تانباي، مشكوك بها، ولم يهتم بها مطلقاً، فكيف بهذا من الممكن إحداث الإصلاحات في حياتنا؟

قرر تانباي عندما ينهض تشورا من مرضه، سوف يطلب منه لدرجة الإجبار، أن يذهب إلى القيادة، ويتكلم كل ما يجول في خاطره، ورأي تشورا، يتطابق مع رأي الأكثرية من الشعب، وأنا أيضاً سأقول له كل ما في قلبي، فإذا كنت مخطئاً فليقل لي، أما إذا كنت على حق، فكيف لي أن أسكت؟ كلا، كلا، لا يجوز هذا، بالطبع فإذا كنت أنا أخلط في الأمور، فمن سأكون؟ إنني راعي بسيط، مجرد راعي، وهناك أناس حكماء، وأذكى مني بكثير...

عاد تانباي إلى اليورتا، ولم يقدر على النوم مطلقاً، إذ كانت خلايا عقله تتصارع فيما بينها: فما يدور هنا في واقع الأمر؟ ومرة أخرى لم يجد إجابة.

وهكذا لم يتمكن من الحديث مع تشورا، فقبل الرحيل إلى المراعي كانت الأعمال كثيرة، ومرة أخرى تحرك الرعاة مع قطعانهم على اختلاف أصنافها طوال فترة الصيف، وكل الخريف والشتاء.

جاءت قطعان الأغنام، والخيول وقوافل الجمال الحاملة للأغراض ومواد التموين، وكذلك قطعان الإبل الحرة، وفي الهواء اختلطت الأصوات على اختلاف أنواعها، ولقد تزخرفت مسيرة الرعاة بالمناديل والفساتين النسائية الملونة، بينما أخذت الفتيات يغنين أغاني الوداع.

ساق تانباي قطيعه عبر الهضبة الكبيرة متجهاً نحو شعاب الجبل من جانب القرية، فكان كل شيء على أطرافها كما كان: هناك البيت، وإلى جانبه الساحة، وبيوت الجيران، حتى بدت تفاصيل البيت، الذي كان يأتي إليه فوق صهوة حصانه الرهوان، معروفة بكل دقائقها، فأنّ قلبه، واعتصرت روحه ألماً، فلم تعد تلك المرأة، ولم يعد الرهوان غولساري، فلقد غرق كل هذا في الماضي، وعصفت تلك المرحلة كتغريد سرب أوز رمادي، يشق طريقه في أعالي السماء خلال موسم الربيع...

... ركضت الناقة أيام عدة تبحث وتفتش في كل منحدر وزاوية ومغارة عن ابنها، وهي تنادي: أين أنت يا أسود العينين، يا حواري الصغير؟ فالحليب يتصبب من الثدي المحتقن جداً، كخيطان بيضاء على قائمتي الخلفيتين! أين أنت، أجب، ولو بصوت واحد! فالحليب ينصب من الثدي المحتقن، أبيض كالثلج الدافئ!.

12

في خريف ذلك العام، تحول مصير تانباي باكاسوف بصورة مفاجئة، بعد أن عاد من المضيق الجبلي، توقف عند بداية الجبل في مراعي الخريف من أجل أن يتوجه قريباً مع قطيعه لقضاء فترة الشتاء في أحضان الجبال.

في هذه الأيام، جاء رسول من الكولخوز، وأبلغ تانباي قائلاً:

- لقد أرسلني تشورا يبلغك، بأنه عليك أن تأتي غداً إلى القرية، ومن هناك، ستذهبان معاً لحضور اجتماع في المنطقة.

في اليوم التالي، حضر تانباي إلى إدارة الكولخوز، وكان تشورا هناك في انتظاره في غرفة المسؤول الحزبي، وسر تانباي أن تشورا كان في وضع صحي جيد، وأحسن من أيام الربيع بكثير، رغم أن لون الزرقة كان يغلب على لون شفتيه، وكان جسمه نحيفاً، مما يدل على أن المرض ما زال كامناً في داخله، ولكنه كان يتحرك بنشاط، ولقد كان لديه الكثير من الأعمال، والشعب كان إلى جانبه، أما تانباي، فكان دائماً يقف إلى جانبه كصديق، وفرح لوضع صديقه، لأنه تمكن من الانتصار على المرض، وأخذ ينشط من جديد.

عندما بقيا وحدهما، نظر تشورا إلى صديقه تانباي، وهو يمسك إبهامه الأيسر بكفه الأيمن، إذ شعر ببعض الآلام القاسية، وابتسم قائلاً:

- أما أنت، يا تانباي، لم يبدو عليك الكبر، فما زلت على حالك، وكم من الوقت قد مضى من دون أن نلتقي منذ الربيع الماضي؟ فالكوميس والهواء في الجبال شيء مهم، أما أنا فأسلم أوراقي وأموري تدريجياً، وكما يبدو أن الوقت قد أشرف على نهايته...- صمت تشورا قليلاً، ثم قال بخصوص العمل: - هكذا إذن يا تانباي، إنني أعرف بأنك ستقول: - أعط الوقح ملعقة، فيطلب بدل الواحدة خمس ملاعق، والآن مرة أخرى، أطلب منك أن تذهب معي وأعتقد أنك لا تعارض ذلك في داخلك إلى الاجتماع في مركز المنطقة، ومن جديد، أعلمك بشيء يسر روحك، فغداً سنذهب معاً إلى الاجتماع الذي سيحضره مربو المواشي في المنطقة على اختلاف أنواعها

وأماكنها، وخاصة تربية الأغنام، وأنت تعلم يا تانباي، أن كولخوزنا متخصص بهذه المسائل، وينحدر الآن إلى الفشل الكامل، ولهذا توجهت اللجنة المنطقية للحزب بالنداء التالي: إلى الشيوعيين والكومسومولين في المناطق المقصرة في مجال تربية المواشي! عليكم أن تهبوا للمساعدة! ولقد سبق لك أن دعمت التوجهات الإيجابية لإنقاذ الوضع وتحسينه في مجال تربية الخيول، فشكراً لك، والآن فالوضع بحاجة لمساعدتك، ومساعدة أمثالك، فناضلوا من أجل تربية قطعان الأغنام، ونطالب بالتطوع للقيام بعمل الرعاة، وهنا صمت تانباي قليلاً، وأجاب صديقه تشورا قائلاً:

- إنك إنسان سريع البديهة يا تشورا، إنني تعودت على تربية الخيول، والعمل مع الأغنام سيكون بالنسبة إلي عملاً مملاً! فأنا أعشق الخيول... وأنت تعرف كيف تسيّر الأمور في الكولخوز، وتصرف كما تشاء. توقف تشورا ثانية، وقال من جديد:

- لن أسرحك من العمل يا تانباي، ولكن ليس باستطاعتك أن تقوم بشيء، فالأمر بيد المنظمة الحزبية، والقرار من عندهم، فلا تغضب، وعلى كل حال، سوف ترى كصديق، أنني سأتلقى الضربة على نفسي مباشرة، فضحك تانباي، وقال من دون أن يشك في هذا الامر:

- نعم، سوف أتذكر دائماً يا صديقي، ولكن لن تكون فرحاً في الوقت القريب، وحتى يحين الوقت، ستتذكر يا تشورا كل شيء... وأضاف تانباي:

- أما بخصوص تربية الأغنام، فمن الضروري أن أفكر جيداً، وأتحدث مع زوجتي...

إذن، اتفقنا، ففكر بالأمر، ولكن عند الصباح أعلمني

بالقرار، فغداً من الضروري أن أقدم تقريراً أمام الاجتماع، ومع جايدار سوف تتحدث فيما بعد، وتتشاور معها، وسوف تشرح لها كل شيء، وأنا سوف أعرج إليكم، وأحدثها عندما أجد وقتاً مناسباً لذلك، فهي امرأة ذكية - تفهم حقيقة الأمور، ولو لم تكن هي معك، لكنت قد وقعت في شرك ما، وكسرت رقبتك - قال تشورا ممازحاً - فكيف صحتها، عسى أنها على ما يرام؟ وكيف الأولاد؟

وهكذا تحدثا قليلاً عن أسرتيهما، وعن المرض، وعن مسائل متنوعة ومختلفة، وكان تانباي يستعد لبدء حديث مهم وكبير مع تشورا، ولكن الرعاة أخذوا يتوافدون بعد أن طلبوهم من الجبال، وتشورا كان يسرع وهو ينظر إلى ساعته، قائلاً:

- هكذا إذن، عليك أن تسلم حصانك إلى محطة الخيول، وعلينا أن نسافر غداً في الصباح، فلقد استلمنا سيارة للخدمة، وسنستلم الثانية قريباً. سنعيش ونرى! أما أنا، فسأذهب الآن، فلقد استلمت أمراً بالحضور إلى اللجنة المنطقية في الساعة السابعة، فرئيس الكولخوز أضحى هناك، وأنا أفكر بأنني سأصل عند المساء بواسطة الرهوان، فهو ليس أسوأ من السيارة، فاستغرب تانباي، وسأل:

- كيف، وهل ستذهب راكباً غولساري؟ وهل قرر الرئيس أن يلاطفك؟ فأجاب تشورا:

- لا أعلم ما أقول لك، فهل لاطفني أو لم يلاطفني، فهو قد أعطاني الحصان، وهل تفهم ما سر المصيبة، قال تشورا ضاحكاً، وهو يفرد يديه:

- إن غولساري قد كره الرئيس لسبب ما، لأن هذا الأمر لم يتحمله حتى الحيوان بكل بساطة، فهو يتوحش عندما يقترب الرئيس منه، ولقد حاول بشتى الطرق، فلم يتوقف الحصان عن ذلك! حتى لو

قام بقتله، أما أنا فأركبه كلما أردت ذلك - إنه يسير بشكل مريح وممتاز، وهو حصان قدير، وقد أحسنت أنت في تدريبه، وهل تعرف أن قلبي يؤلمني أحياناً، وعندما أجلس فوق صهوة الرهوان، ويسير هو على طريقته، أحس أن الألم قد فارقني كلياً، ولهذا السبب، إنني على استعداد أن أعمل مسؤولاً حزبياً حتى أبقى مع الرهوان، إذ إنه يعالجني! وأخذ تشورا يضحك مسروراً، أما تانباي، فلم يبتسم، وقال بامتعاض:

- بالمناسبة، أنا لا أحبه أيضاً، فسأل تشورا وهو يمسح دمعة تدحرجت بسبب الضحك؟

- من لا تحب؟ فأجاب تانباي على عجل:

- رئيس الكولخوز هذا! - أخذ تشورا مظهر الجد، وسأل:

- لأي سبب لا تحبه؟

- لا أعرف، ربما لأنني أراه إنساناً فارغاً، وليس فارغاً فقط، بل هو شرير حقود، فانتقده تشورا قائلاً:

- أنت تعرف، بأنه من الصعب معرفة مزاجك، لقد كنت تنتقدني لأنني أتصرف بليونة، والآن تنتقد هذا الرئيس أيضاً، وتقول إنك لا تحبه... فلا أعلم ماذا أقول لك، والآن بعد أن خلصت من المرض مؤقتاً، عدت لمتابعة العمل، وكان هذا منذ فترة وجيزة، فأنا لا أعرفه جيداً حتى الآن.

صمت الاثنان برهة، أما الشيء الذي أراد تانباي أن يخبر تشورا به، هو ذلك القيد، الذي كبلوا به غولساري، وكادوا يقتلوه، وكيف قاموا بالقضاء على ذكورته، وأطلقوا على ذلك تصرفاً متميزاً وناجحاً، ولكن تانباي، رأى أن هذا الحديث لا فائدة منه الآن، ولا داعي له، حتى لا يطيل الحديث، فتحدث تانباي عن سروره بما تكلم فيه تشورا خلال حديثه من أخبار جيدة، وقال:

- شيء جيد، أنهم أعطوك سيارة، هذا يعني، أن السيارات ستأتي إلى الكولخوز تباعاً، فهذا ضروري، وحان الوقت، وهل تذكر فترة الحرب، عندما استلمنا السيارة الشاحنة الأولى، وكيف اجتمع الناس فرحين، أما الآن، ستكون عندك سيارة خاصة في الكولخوز، وتذكر كيف وقفت ذات مرة في صندوق الشاحنة الخلفي، وألقيت كلمة: «نعم أيها الرفاق، هذه هي بشائر الاشتراكية!» ولكن وبعد فترة أخذوها إلى الجبهة، فقال تشورا:

- نعم لقد كانت تلك الأوقات عسيرة وصعبة... حقاً إنه زمان غريب وقاس، والآن أصبح عادياً كشروق الشمس، فما الغرابة في أن يكون في الأرياف سيارة ميكانيكية! فعندما عدنا من شق قناة تشويسكي، وحملنا معنا أول مذياع، وكيف هرعت كل القرية لتسمع الأغنية الأولى التي كانوا يحبونها، ويكررونها! كان ذلك في نهاية الصيف، وفي الأمسيات كان الناس يجتمعون عند ذلك الشخص الذي يملك المذياع، وكان صاحب البيت يحمل مذياعه إلى الطريق، كي يسمعهم الأخبار والأغاني. كما يسمعون الاسطوانات، التي تمجد بطلة العمل في منديل أحمر. «إيه أيتها البطلة في منديل أحمر، حبذا لو أعددت لي الشاي، كما كنت تفعلين سابقاً؟» وهذا كله من بشائر نتائج الاشتراكية... وهنا قال تانباي:

- أما نحن، ألا تذكر يا تشورا، عندما كنا نركب كلنا بعد الاجتماع في سيارة الشحن، وتكتظ بنا حتى النهاية! أما أنا، فقد كنت أقف إلى جانب حجرة القيادة التي يرفرف فوقها العلم الأحمر، كما لو كنا ذاهبين لواحد من الاحتفالات الوطنية في عرض رسمي، ومن دون عمل إلى المحطة، ومن هناك كنا نسير بمحاذاة السكك الحديدية إلى محطة أخرى في كازاخستان، ونشرب البيرة في

الحديقة، وخلال الطريق ذهاباً وإياباً، كنا نغني الأغاني الوطنية بصوت عالٍ، فمن أولئك الرجال الشجعان، لم يبق إلا عدد قليل جداً، لقد استشهد معظمهم في الحرب، نعم... وطوال الليل، وأنا أستمع للأخبار، ولم أترك من يدي هذا العلم الأحمر، ففي الليل وفي تلك الظلمة، بإمكان من يريد أن يرى هذا العلم؟ ولكنني على أي حال لم أنزل العلم من يدي... إنه كان علمي، وكنت أغني حتى البحة القوية، أذكر...

- ولماذا نحن لم نعد نغني الآن يا تشورا؟

- إننا كبرنا، وعجزنا تقريباً، ولم نعد في وضع يخولنا أن نغني بصوت عالٍ... فعلّق تانباي:

- كلا، إنني لا أتكلم عن هذا - لقد غنينا بما فيه الكفاية خلال حياتنا، أما الشباب الآن، فلماذا لا يغنون؟ فأنا أذهب إلى المدرسة الداخلية، وأزور ابني، فهو يدرس هناك، ومنذ الآن أصبح يعرف كيف يتعامل مع القيادة، إذ يقول لي أحياناً، بابا، كلما جئت إلى هنا، اصطحب معك كوميس لمدير المدرسة، ولماذا يلزمه هذا؟ إنه يدرس بشكل لا بأس به... ولو سمعت كيف يغنون! وفي الطفولة عملت عاملاً زراعياً عند يغريموف في ألكسندروفسك، وذات يوم أخذني معه للاحتفال بعيد الفصح، وهناك كان بعض الشباب من جيلنا يقفون على خشبة المسرح، ويسبلون أيديهم إلى جنباتهم، وبوجوه جامدة خشوعاً، ويغنون كما في الكنيسة الروسية، وكانوا يكررون الشيء نفسه... ولم يعجبني هذا نهائياً، وبشكل عام أرى بعض القضايا غير المفهومة لي الآن، ويجب أن أتحدث معك بكثير من هذه الأمور... يبدو أنني تأخرت في فهمي للحياة، ولم أعد أفهم كل شيء.

- لا بأس، يا تانباي سوف نتحدث في مرة أخرى، وسنجد الوقت المناسب - أخذ تشورا يجمع أوراقه ويضعها في حقيبته الميدانية، ولكن عليك يا تانباي أن تفكر كثيراً، فأنا على سبيل المثال، أثق بالناس كثيراً مهما كانت المصاعب، وسوف نتطور ونزيد من إنتاجنا، ونذلل الصعوبات، وسنعيش كما كنا نحلم سابقاً. كان يتحدث وهو يستعد للخروج، وبعد أن قطع العتبة، تذكر أن ينبه تانباي: - اسمع يا تانباي، مررت ذات مرة في الشارع قرب بيتك، لقد أصبح منظره كالخراب المهجور، فأنت لا تهتم به، وتمضي وقتك دائماً في الجبال، والبيت من دون صاحبه، يصبح خراباً، وعندما كانت جايدار خلال الحرب وحدها من دونك، كان البيت في وضع جيد.

- اذهب وانظر، ولو تطلب الأمر شيئاً، فإننا سوف نقدم لك مساعدة للإصلاح، حتى بادر ابننا سامنصور عندما أتى في العطلة الصيفية ولم يتحمل هذا، فأخذ المنجل وقال: سأذهب وأحصد الحشائش المختلفة في ساحة بيت عمي تانباي، وأخبرني أن الطينة الخارجية قد تساقطت، وتكسر زجاج النوافذ، وأن العصافير تسرح وتطير من زاوية لأخرى في الغرف، كما وكأنها في البيادر.

- بالنسبة للبيت - أنت على حق، وشكراً للحبيب سامنصور. وبالمناسبة كيف دراسته؟

أصبح في السنة الثانية في الجامعة، ويدرس بصورة معقوله، وأنت تقول إن الشباب لا يعجبونك في هذه الأيام، أما أنا، فأحكم من خلال ابني، إن الشباب جيدون، ومن خلال الحديث والنقاش معه، أرى الكثير من المحبة والتعاون خلال الدراسة، والحياة مع زملائه، وسنرى في المستقبل، فالشباب مثقفون، ويتابعون دراستهم، ويفكرون بالمستقبل...

توجه تشورا إلى الإسطبل، أما تانباي فقد ذهب لينظر وضع بيته، إذ دار حوله في الحديقة، وتفحص كل شيء، وتحت أرجله كانت تتكسر الحشائش الطفيلية التي تكدس عليها الغبار، بعد أن حشها ابن تشورا الطالب في الجامعة الذي أيقظه ضميره، ورأى أن البيت مهجور من دون رعاية صاحبه، أما غيره من مربي الحيوانات والرعاة، لم يتركوا بيوتهم هكذا، فإما كانوا يتركون أقاربهم فيها، أو يوكلون أحداً برعايتها، أما تانباي فلم يكن له إلا أختان شقيقتان، كانتا تعيشان في قريتين متباعدتين عن بعضهما، أما أخوه كولوباي، فهو ليس في وضع سوي، أما بالنسبة لجايدار، فلم يكن عندها أقرباء قريبون، وهكذا قد حصل، وبقي البيت مهجوراً سائباً. زد على ذلك، كان من نصيبه أن يعمل بعيداً في تربية الحيوانات، أما الآن فقد قرروا أن يصبح راعياً، ولقد تردد تانباي في الموافقة، ولكنه كان يعلم، أن تشورا سوف يقنعه بأي شكل، وليس بإمكان تانباي أن يرفض طلباً لصديقه ورفيقه، فهو سيوافق، كما حصل من قبل.

☆☆☆

في الصباح انطلق الاثنان معاً بالسيارة من القرية متجهين إلى مركز المنطقة، ولقد أعجبت سيارة (غاز) ذات حمولة ثلاثة أطنان الجميع. جلسنا في السيارة كالقياصرة، وأخذ الرعاة يطلقون تعليقاتهم. وسُر تانباي، فهو منذ فترة بعيدة، لم يركب سيارة من أيام الحرب تقريباً، إذ كان له أن يركب عبر طرق سلوفاكيا والسويد مختلف السيارات، ومنها السيارة الأمريكية «ستوديبيكر» يا لها من سيارة قوية، ثلاثية المحاور. حبذا لو كانت لدينا سيارات مثلها - فكر تانباي آنذاك، وخاصة لنقل الحبوب من المناطق الجبلية وما خلفها، فهذه السيارات لن تغرق في الوحل، وكان على ثقة، عندما ستنتهي

الحرب، ستكون لدينا سيارات مثلها، وأحسن. بعد النصر سيكون كل شيء!..

في صندوق السيارة الخلفي المفتوح، كان الريح قوياً، ومن الصعب أن يتم الحديث كما يجب بين اثنين، فالتزم الجميع الصمت، حتى قام تانباي، وذكّر الشباب:

- إنكم أيها الشباب تنسون الأغاني الوطنية، فماذا بكم تنظرون إلينا نحن الكهلة، لقد ولت أيامنا؟ فغنوا، ونحن سنستمع.

أخذ الشباب يغنون في البداية، فلم يتم التجاوب معهم من الآخرين، ثم صدحت الأغاني حسب الطلب، وهكذا أصبح المزاج أحسن، وعم السرور خلال السفر، وأخذ يفكر تانباي في نفسه:

- هكذا أفضل، والمهم والجيد، أن القيادة ستجمعنا أخيراً، وسوف يتحدثون عن قضايا كثيرة، وربما عن مستقبل الكولخوزات، فالقيادة ترى الأمور بصورة أوضح مما نراها نحن، ونعرف ما يوجد عندنا، وليس أكثر، فسيبينون لنا، ونفكر فيما يقولون، ثم نقوم بتنفيذ العمل عندنا بطرق جديدة...

في مركز المنطقة كان عدد الناس كبيراً، والضجيج مرتفعاً، فالسيارات كثيرة والعربات أكثر، وعدد هائل من الناس قدموا على صهوات خيولهم حتى ملأوا الساحة حول النادي. هرعت إلى هنا جماعات من، الذين يحضرون الشواء والذين يجهزون الشاي ويقدمون بعض الحوائج كالسجائر وغيرها، وعم الدخان والنداءات من قبل القادمين.

كان تشورا ينتظر، ثم قال:

- انزلوا بسرعة ولنذهب. خذوا أماكنكم، فلنبدأ بعد قليل، فإلى أين أنت ذاهب يا تانباي؟ فأجاب تانباي وهو يشق طريقه بين

الخيالة، فقد لاحظ عندما كان في السيارة أن غولساري بين الخيول، فنزل وأخذ يبحث عنه، إذ لم يره من أيام الربيع الماضي:

- الآن سأعود!

كان الرهوان يقف والسرج عليه بين كثير من الخيول، متميزاً بلونه الأشقر المائل للأصفر، وبدا مختلفاً عن غيره بكبر عجزه ونفور عضلاته، وبأنفه الأحدب ورأسه المرتفع، وعينيه السوداوين، فاقترب منه تانباي، وهمس بتحبب:

- مرحباً يا غولساري، مرحباً! ثم تأرجح تانباي قليلاً، وانحى نحوه كصديق قديم، وأخذ يحاكيه قائلاً: - كيف وضعك الآن؟

أحنى الرهوان رقبته قليلاً، ونظر نحوه بتفاحتي عينيه السوداويتين، وهو يتذكر صديقه القديم، وأخذ يحرك قائمتيه الأماميتين كما كان يفعل سابقاً، ويشم يدي صديقه الذي قال له:

- إنني أراك هنا قد تحسنت يا غولساري عن قبل، فهذا صدرك قد اتسع وامتلأ، وكما يبدو من خلال عضلاتك أنك تعدو كثيراً، أما سابقاً، فقد كان وضعك أسوأ من الآن، أليس كذلك؟ إنني أعرف... حسناً أنك وقعت في أيدي أمينة وتقدرك. وما عليك يا غولساري إلا أن تكون معتدلاً، وكل شيء سيكون على ما يرام. هكذا تحدث تانباي مع الرهوان، أما الحصان، فقد أخذ يقضم بعض الشعير والقنبز في عليقته، وأخيراً قال له، هذا يعني أن تشورا يعتني بك، ولا يبخل عليك بالغذاء، ولا يمتك هنا من الجوع، فكن وفياً له، أما أنا. أقول لك وداعاً الآن، فإنني سأذهب.

عند المدخل إلى النادي، أخذ الريح يداعب اللافتات، التي كتب عليها: «الشيوعيون - إلى الأمام!»، «الكومسومول - طليعة الشباب السوفييت!».

سار الجمهور متزاحماً في بهو صالة العرض الواسعة. عند الباب التقى تانباي بصديقه تشورا، ومدير الكولخوز ألدانوف، الذي قال مخاطباً تانباي:

- إنني منذ زمن أنتظر أن ألتقي بك، فتعال نتكلم قليلاً،
- فأخذه من مرفقه، وأخذ يقول له: - لقد اتفقنا على أن تلقي كلمة، فخذ هذا الدفتر واكتب خطاباً عن تجاربك، فأنت حزبي قديم، وأفضل مربي للخيول في الكولخوز، وهنا سأل تانباي:

- عن ماذا سأتحدث، وما هي الموضوعات الأساسية للخطاب؟ فأجابه ألدانوف:

- قل إنك شيوعي قديم، قررت أنك على استعداد أن تعمل في الكولخوز في قطيع الأمهات، فاستغرب تانباي قائلاً:

- هذا كل شيء؟ فابتسم ألدانوف وأضاف قائلاً له، عليك أن تتعهد بالقيام بواجبك في العمل، كأن تقول، إنني ألتزم أمام الحزب والشعب أن أصون وأحافظ على مئة وعشرة خراف من كل مئة نعجة، وأن أعتني بصوف الغنم، وأعطي ثلاث كيلو غرامات من الصوف الجيد من كل نعجة، وهنا استغرب تانباي سائلاً:

- كيف لي أن أقول هذا، وأنا لم أر القطيع في حياتي؟! - فقال ألدانوف:

- هكذا، عليك أن تفكر! سوف تستلم القطيع قريباً، وهنا تدخل تشورا في الحديث إذ قال: «لا بأس، لا تخف من هذا، فإنك ستنتقي القطيع الذي يعجبك، فلا تقلق!»، وزد على ذلك أنك تتعهد بتدريب وتعليم اثنين من الرعاة الشباب الكومسوموليين. وهنا سأل تانباي:

- مَنْ؟

كان الناس يتزاحمون، بينما أخذ تشورا يتفحص القوائم، ثم قال:

- عليك أن تأخذ معك بولاتبيكوف، وإيشيم، وبيكتاي زارليكوف.

فاعترض تانباي قائلاً:

- إنني يا رفيقي لم أتحدث معهم سابقاً بهذا الخصوص، وكيف سينظرون لي عندما سأطلب منهم هذا؟ فأجابه تشورا بصوت جدي:

- ها أنت قد عدت إلى طريقتك السابقة في العمل! يا لك من إنسان غريب. وهل من الضروري أن تتحدث معهمٍ؟ أليس الأمر سواء؟ فهم لن يتنكروا لك ويخالفوك الأمر. لقد سجلنا أسماءهم معك، والأمر قد انتهى، وهنا استدار تانباي بظهره قائلا:

طالما أن الأمر قد تقرر، لماذا تتحدثون وتتشاورون معنا؟. فاستوقفه تشورا قائلاً:

- قف، هل حفظت ما قلته لك؟ فأجابه تانباي بصوت متهدج، وهو يسير:

- حفظت، حفظت عن ظهر قلب!

13

انتهى الاجتماع عند المساء، وبعد دقائق أصبح مركز المنطقة خالياً من البشر، إذ غادر كل إلى جهة: فتوجه البعض إلى الجبال، وآخرون إلى القطعان، والبعض إلى الشركة، وغيرهم إلى القرى والدساكر.

سافر تانباي مع غيره من المشاركين في قاطرة سيارة الشحن

عبر مرتفع ألكسندروفسك، وعبر السهل الفسيح، كانت الظلمة قد انتشرت في كل مكان، والريح قد اشتد جداً، حيث أخذ الخريف يعلن عن قدومه، فاضطر تانباي أن يغير مكانه، ويحشر نفسه في زاوية صندوق السيارة، إذ أخفى جسمه تحت القبة العريضة المرتفعة، واحتفظ بأفكاره في قرارة نفسه. هكذا انتهى الاجتماع، أما هو، فلم يقل أي كلام عملي، أما الآخرون، فقد نفذوا ما طُلب منهم، وهذا يعني أنه يوجد عدد كبير من المشكلات تحتاج إلى عمل مضني وطويل، حتى يصبح الأمر معقولاً، ويسير كما يجب. حقاً ما قاله هذا الشخص، الذي يضع نظارتين فوق عينيه، وهو سكرتير اللجنة المنطقية، إذ قال: «إن الطرق والشوارع لن تحضر إلينا جاهزة، فعلينا أن نشقها بأنفسنا» وإذا فكرنا بالفترة منذ الثلاثينات، فإننا نلاحظ أن الخط البياني صاعد أحيانا، وهابط أحياناً أخرى، وكما يتضح أن أمور ومعضلات الكولخوز ليست سهلة، وهو قد شاب شعر رأسه، رغم أنه عاش فترة الشباب بكل ألوانها وشاهد الكثير من مر وحلو، وجرب الكثير من الأعمال، وقام بأعمال وتصرفات غبية، وكان كل شيء يبدو له قريباً، ولهذه الأسباب، ساء العمل، وليس بإمكانه أن يقوّم كل الاعوجاج في الكولخوز...

فماذا من الضروري أن يعمل؟ حقاً قال السكرتير للمنطقية، «الحياة لا تسير وحدها ولا تتدحرج، كما فكر البعض في السنوات الماضية بعد الحرب، فمن الضروري أن يدفع الإنسان بكتفه عجلة الحياة، ما دام على قيد الحياة... وفي بعض الأحيان تنقلب الأمور بزاوية حادة، وتسقط بكل ثقلها على الكتفين، حتى يئن الشخص ألماً من شدة الكدمات، ولا يعير الرجال اهتماما لها». لو كانت الروح راضية عما تقوم به وتفعله، وتشارك في تنفيذه أنت، وأن تتوافق الروح مع ما

يفعله الآخرون، وحتى تكون سعادة ما لكل الناس في نتيجة العمل... فكيف سيتحول الأمر الآن عندما سيذهب راعياً لقطيع الأغنام؟ وماذا ستقول جايدار؟ حتى لم يتمكن أن يمر بطريقه إلى المخزن لشراء بعض الحوائج للبيت، وخاصة أن البنات ينتظرن الحلوى التي وعدهما بها، ومن السهل أن يقول مئة وعشرة خراف، ومن كل واحدة من النعاج، ثلاثة كيلوغرامات من الصوف، وهل كل حمل يُولد، سوف يعيش أكيداً، وهناك كل شيء ضد هذا الوليد: المطر، الرياح، الصقيع وغيرها من العوامل، التي تفني الأغنام كلياً. أما الصوف؟ تنظر إلى صوف الأغنام، فلا تفرق بين واحدة وأخرى، وعندما يأتي الجز، تجمع وتطرح، فلا تجد إلا القليل، فتحاول أن تجمع الأطنان، فلا تجد إلا الكيلوغرامات؟ آه، كم هي ذهبية تلك الكمية! وأتصور أن البعض، لم يروا، ولن يروا، كيف يتم الحصول عليها...

فقاطعه تشورا، وقال: نعم، هكذا تكلم تانباي بشيء من الصحة، وليس بإمكاننا أن نقول إنه أخطأ... ولكن كان عليه أن يتكلم باختصار عن مهامه، ولا يتكلم عن مشكلات الآخرين، فلا أنصح بهذا، أما تانباي فقد وافق، وتوجه إلى المنصة، وكان يخاف أن يعد من دون أن ينفذ شيئاً، ولم يكن يرغب أن يكرر ما تجمع في قلبه، فكرر تعهداته كما أملاها عليه تشورا، وعاد إلى مكانه، حتى أصبح من المخجل أن يتكلم الإنسان بهذه القضايا، أما تشورا فقد كان راضياً، أما السؤال، لماذا أصبح تشورا حذراً لهذه الدرجة؟ ربما أنه بعد المرض قد انهار كلياً، أم لأنه لم يعد هو الإنسان الأول في الكولخوز؟ لماذا كان عليه أن يحذر تانباي، ويلقنه ما عليه أن يقول؟ كلا، لقد تغير شيء في شخصيته إذ بدأ هذا التحول، فطوال حياته كان رئيساً للكولخوز، وصعد في عمله

تدريجياً، وكان يتلقى الدروس والنقد من القيادة، وكما يبدو قد تعلم الصيد...

«توقف يا صديقي، سأذكرك في وقت ما وجهاً لوجه ...».

- فكر تانباي وهو يلف نفسه بمعطف الفرو بإحكام، فكان الجو بارداً والرياح قوية، والمسافة إلى البيت ما زالت بعيدة، فماذا ينتظره هناك؟

***

امتطى تشورا الحصان الرهوان، إذ كان وحيداً، ولم ينتظر أحداً حتى يرافقه في الطريق. أراد أن يسرع قدر الإمكان للعودة إلى البيت، وكان قلبه يؤلمه قليلاً، فترك الحصان يسير حسب رغبته. إذ كان يقف غولساري طوال اليوم عند المربط، ولذلك أخذ يحث الخطى الطويلة حسب عادته الرهوانية، فيطبع الطريق بحوافره عند المساء كسيارة ذات موتور جديد، ولم يبق لديه من الماضي، سوى عشقه للركض، وكل النزوات الأخرى، والشهوات الجنسية قد ماتت فيه، وإلى الأبد، لقد حرموه من ذكرياته، حتى لا يعرف غير السرج والطرق. ففي الركض كان يجد نفسه، ويحيا من جديد، يركض من دون أن يحثه أحد على هذا، وكأنه كان يرغب بتعويض ما فاته من الركض خلال الفترة الماضية، إذ حرمه الناس من هذه المتعة. زد على ذلك، أن كل من يركبه كان سعيداً.

ارتاح تشورا خلال الطريق، وكان النسيم يعطيه حيوية خاصة، وخف الألم في قلبه، وبالنسبة للاجتماع في مركز المنطقة، فقد كان راضياً عن نتائجه، ولقد أعجب بخطاب أمين لجنة المنطقة الحزبية الذي كان يسمع عنه كثيراً، وكانت هذه المرة الأولى التي يراه

فيها، وعلى أي حال لم يكن المسؤول الحزبي راضياً حتى الأخير عن بعض الأمور، وكانت تضغط على روحه، فهو يتمنى لتانباي الخير، ولقد اكتسب خبرة طويلة، كيف يجب أن يتصرف الإنسان في مثل هذه الاجتماعات والمؤتمرات والاستشارات، وعرف ماذا يقال في المكان المناسب، وماذا لا يجوز الإفصاح عنه في أماكن أخرى. لقد أتقن عمله حتى الأخير، أما تانباي وبغض النظر عن أنه نفذ ما طلبه منه، ولكنه لم يرغب بهذه الموافقة، لأنه لم يفهمها حسب قناعاته، وبعد الاجتماع لم يقل كلمة واحدة مع تشورا، فجلس في قاطرة السيارة، وأدار ظهره، إذ كان غير راضٍ عما حدث. إيه! يا تانباي، تانباي!... أنت بسيط، لم تعلمك الحياة أي شيء للاستفادة منه. فأنت لا تعرف شيئاً ولم تلاحظ الأمور كيف تجري، وبقيت حتى الوقت الحاضر، كما كنت في شبابك، فلم تقدر على أن تكون مرناً، وتغير من عنادك قليلاً، وما زلت تريد تنفيذ القضايا بالقوة، فالوقت الآن قد تغير عن قبل، ولم تعد القوة هي المعيار، فالمهم الآن، وأكثر من أي شيء آخر - أن تقول ما يجب قوله في الوقت والمكان المناسبين، وحتى تعكس الكلمة روح العصر، كما يتحدث الجميع، فلا تكن نشازاً، ولا تتصادم مع الآخرين، ويجب أن يتم الكلام بسلاسة، كما تكتب حبراً على ورق، عند ذلك سيكون كل شيء في مكانه ومفهوماً للجميع، ولو تركتك يا تانباي حسب طبيعتك، وكما ترغب روحك، لكسرت الطاولة أمام المجتمعين، وأنت تضرب عليها، وكان عليّ أن أكون مسؤولاً عن هذا: «كيف تربون الكوادر في منظمتكم؟ ولماذا يُخرق النظام بهذا الشكل؟ وما وراء هذه الفوضى؟». إيه! يا تانباي، تانباي...

14

طوال تلك الليلة التي خيمت على الاثنين في الطريق: إنسان كهل، وحصان عجوز، وثمة شعلة نار تحترق على حافة المنحدر، يقف تانباي، كما فعل سابقاً مرات عدة ، ويحكم أزرار فروته جيداً على جسم حصانه غولساري الذي يلفظ أنفاسه الأخيرة، ويعود للجلوس من جديد بالقرب من الشعلة، وهو يمسك رأسه بكلتا يديه، ويفكر بحياته منذ بدايتها، حتى تلك اللحظة، طولاً وعرضاً، وخاصة السنوات، التي تتالت سنة بعد سنة كعدو الرهوان السريع... وماذا كان آنذاك؟ وفي ذلك العام بالذات، في أواخر الخريف، وفي بداية فصل الشتاء، عندما ذهب يعمل راعياً مع قطيع الأغنام؟...

15

مضى شهر تشرين الأول (أكتوبر) في جو صحو عم كل الجبال، وكان النور ذهبياً هادئاً، وفقط في بداية الشهر، ولمدة يومين، تساقطت أمطار غزيرة، وبرد الجو، وعم الضباب، وفيما بعد، وخاصة خلال الليل تعاظم البرد، واضطرب الجو، وفي الصباح عندما خرج تانباي من اليورتا، شاهد هذه اللوحة الثلجية الرائعة التي غطت الجبال بثوب أبيض ناصع، وكأن قمم الجبال قد اقتربت منه مسافة كبيرة، وأصبحت في متناول يده، وكأن الثلج كان يسير نحوه! وكانت القمم تبدو للمشاهد كأنها تعلقت بخيوط غير مرئية منسجمة مع بياض الثلج الرائع بين السماء والأرض، وهناك حيث تراكمت الثلوج بدت الزرقة اللامتناهية، وفي أعماقها انقشع اللون الأزرق، وغلب اللون الأبيض الشفاف حتى نهاية الكون.

استغرب تانباي سقوط الثلوج الكثيرة خلال ساعات الليل

الأخيرة، وهذه الشفافية البيضاء التي عمت الجبال، حتى أخذه الحزن في هذه اللحظة، فلقد تذكر الثلوج في السنة الماضية، حيث جاء إلى هذه المناطق، وكان يمتطي غولساري، وحبذا لو كان كما كان سابقاً بقوته لامتطاه، وكان هناك بعد وقت قصير أمام بيتها في الصباح الثلجي الجميل...

كان يعرف تانباي، أن كل هذه التخيلات مجرد أوهام وأحلام خيالية... وفي حقيقة الأمر، نصف الحياة تمضي في الأحلام، وربما لهذا بالذات إن الحياة حلوة لأنها زاهية بأحلامها، وربما لهذا هي غالية جداً، وأن نسبة بسيطة من الأحلام التي تخطر على بال الإنسان، هي مجرد تصورات وهمية. نظر هو إلى الجبال والسماء، وفكر أنه من الصعب جداً، أن يكون الناس جميعاً سعداء بالدرجة نفسها، فكل إنسان له مصير خاص به، وفي هذا المصير تنحصر عناصر سعادته، وعناصر بؤسه، كما يترافق النور والظل فوق الجبل الواحد، وفي الوقت نفسه، وبهذا نجد الحياة مليئة... أما هي، فمن المحتمل أنها لم تعد تنتظر، وهل تذكرتْ شيئاً ما، عندما رأتْ صباح اليوم، والجبال مغطاة بالثلوج...

آه، يا للحياة! يكبر الإنسان ويعجز، أما الروح لا ترغب بالاستسلام، كلا، كلا فهي تنبض حيوية، وتعلن عن ذاتها من جديد بصوت عالٍ، «ها أنا هنا، وإلى الأبد!... ».

أسرج تانباي الحصان، ثم فتح حظيرة الأغنام، وناد زوجته من اليورتا:

- جايدار، إنني سوف أُطلق الغنم إلى المرعى، وسأعود قريباً، قومي باللازم في غيابي!

انطلق القطيع بخطوات سريعة، مندفعاً إلى المرعى كسيل

عـارم تـبرز ظهـور الأغنـام ورؤوسـها مرفوعـة عاليـاً، والقطيـع يتجـه نحـو المرتفع، وكـان الرعاة المجاورون قد انطلقوا بقطعـانهم، وبـدت الأغنـام في الشعاب، وعلى السفوح الجبلية، وعند الالتـواءات، وفـوق المنحـدرات والوديـان، كانـت الأغنـام تعطـي لهـذه الأمـاكن جماليـة وحيويـة خاصـتين، وهـي تبحـث عـن معطيـات الأرض الأبديـة مـن مختلـف الأعشـاب والحشـائش، فانسـجمت مـع هـذا المرعـى المتميـز، وأخـذت تتجول حسب غريزتها الطبيعية بين أعشاب وحجارة الجبال الخريفية.

كل شيء كان يسير على ما يرام حتى الوقت الحاضر، وأخذ يتحسن قطيع تانباي مع كل يوم، وخاصة الأمهات الفتيـة، التي وَلـدت مـرتين أو ثـلاث مـرات، وعنـد الإنجـاب القـادم سـتكون هنـاك متاعـب خاصة، وكلما ظهرت مواليـد جديـدة، كلمـا زادت الأعمـال، ويصبح عـدد القطيـع أكـبر بمـرتين ونيـف، ومـا زال الوقت مبكـراً حتـى تبـدأ الولادات، ربما بعد شهرين أو ثلاثة.

إن العمل مـع الأغنـام أكثـر هـدوءاً مـن الخيـول بـالطبع، ولكـن تانبـاي لم يتـأقلم بسـرعة معهـا. لقـد كانـت تربيـة الخيـول عمـلاً رائعـاً بالنسـبة إليـه، أمـا الآن، فقـد فقـدت هـذه المهمـة أهميتهـا، وأخـذت السيارات دور الخيول، وبالتالي لم تعد تـدر أرباحـاً مـن تربيتهـا، والمهـم الآن هـو تربيـة الأغنـام وجمـع الصـوف واللحـوم مـن الضـأن، والجلـود القيمة، ولكن هذا كان يثير غضب تانباي، ويرى فيـه خطـأً كـبيراً، رغم أنه كان يرى في هذا شيء من الصحة.

فقطيـع الخيـول جيـد عنـدما يكـون فيـه الفحـل جيـد، ومـن الممكن أن يترك القطيـع نصـف نهـار مـن الوقـت، وربمـا أكثـر، حيـث كـان يلـزم الإنسـان أن يغـادر لقضـاء أعمـال أخـرى، أمـا بالنسـبة مـع الأغنام، فلا يوجد وقت نهائياً، حتى يغادر الإنسان لفترة قصيرة، ففـي

النهار يجب أن يبقى الراعي مع أغنامه، يتنقل بها من مكان لآخر حسب المرعى، وفي الليل من الضروري حراسة القطيع، وبالإضافة إلى الراعي، من الضروري أن يكون له مساعدون، ولكنهم لم يخصصوا له مساعداً، ولهذا كان من الضروري أن يقوم وحده بالعمل باستمرار، ومن دون أي مساعد، ومن دون استراحة أيضاً، وكانت جايدار تقوم بدور الحارس الليلي في بعض الأحيان، وفي النهار كان عليها الاعتناء بابنتيها، وبالأغنام معاً، وكانت تقوم في منتصف الليل بالحراسة، والسلاح بيدها بالقرب من الزريبة، وفيما بعد كان عليه أن يتابع الحراسة، أما إبراهيم، فقد أصبح مشرفاً على المواشي في الكولخوز كله، وكان يجد دائماً الأسباب لهذا، حتى يكون متميزاً، إذ يقول مكتئباً وحزيناً:

- أين أجد لكم مساعدين يا أحبائي؟ فأنتم أناس أذكياء، فالشباب كلهم يدرسون، أما أولئك الذين لا يدرسون، لا يرغبون بالتحدث عن الأغنام نهائياً، وهم يذهبون إلى المدن، والعمل على السكك الحديدية عند النبع، فما العمل، فليس عندي القدرة على التفكير فعندك قطيع واحد وها أنت تئن، أما أنا فما أقول، فأنا مسؤول عن كل المواشي في الكولخوز، وعدد القطعان كثير للغاية، ومسؤول أيضاً عن تربية الحيوانات الأخرى في الكولخوز، وكلها على رقبتي، وإذا أخطأت في شيء، فالمحكمة تنتظرني، فمن الخطأ أنني وافقت على القيام بهذا العمل. حاول أن تناقش أي فرد كان، ولو كان كصاحبكم (بيكتاي)، الذي يعتني بالمظاهر، إذ يقول لك: عليك أن تؤمن لي، راديو ترانزيستور، سينما، وصحف، ويورتا جديدة، وحتى تأتي السيارة المليئة بالمواد التموينية في الأسبوع مرة، على أقل تعديل، وإن لم تؤمن له كل هذا، لن يعمل - فإنني

سأغادرك إلى حيث ما تنظر عيناي، فحبذا لو تكلمت معه، يا عماه!...

لم يكذب إبراهيم، وهو غير مسرور، بأنه وصل إلى مرتبة قيادية، أما بالنسبة لبيكتاي أيضاً، فقد تكلم إبراهيم الحقيقة. كان تانباي يغتنم الفرصة، ويذهب إلى نائب المسؤول عن الكومسومول، ومن الممكن القول إن إيشيم بولاتبيكوف كان شاباً مرناً، وعلى الرغم من أن تجربته ليست بطويلة، أما بيكتاي فهو شاب ناعم ومتزن، ولكن في عينيه السوداويتين الحادتين، كان شيء من الشر، ويستقبل تانباي بتهجم إذ يقول له:

- أنت يا عم لا تُشتت نفسك لأقسام عدة، فمن الأفضل أن تبقى مع أولادك! أما بالنسبة للمراقبين والمدققين، فعندي غيرك الكثير.

- وماذا تريد أنت يا بيكتاي، فهل سيكون الوضع أسوأ؟

فأجاب بيكتاي:

- من الصعب أن تكون الأمور أسوأ من هذا. أما الرجال من أمثالك، فأنا لا أحب. لقد كنتم صارمين وتفعلون المستحيل من أجل مسألة ما، وتصرخون أورا، أورا! أما الشيء الإنساني في الحياة فلم ترونه، ولم توفروا لنا الإمكانيات لنعيش. بالكاد تمالك تانباي أعصابه، وهو يرشق كلماته من بين أسنانه:

- أنت، يا ولد، لا ترفع بأنفك عالياً، ولا أسمح لك أن تشير بإصبعك إلي، فهذه أموري ولا تخصك، فنحن الذين كنا حازمين وصارمين، وليس أنت، ونحن غير نادمين على ما فعلنا، ولا يهمنا رأيكم بنا، ولو لم نقف بصراحة وشجاعة لكانت الأمور مختلفة كلياً، وكنت أريد أن أرى، هل كان بإمكانك أن تتحدث الآن من خلف طاولتك، ولا تتحدث كما نرى في الأفلام أو الصحف التي

صنعت الحاضر، حتى إنك كنت تجهل اسمك، وكان اسمك يتكون من ثلاثة أحرف (عبد) للكولاك!

لم يحب تانباي الشاب بيكتاي، مع العلم أنه كان، وفي خلجات نفسه، يحترم ميزة العناد هذه فيه. لقد كانت تضمحل فيه قوة الإرادة والشخصية، وكان تانباي يشعر بمرارة أليمة، أن هذا الشاب يقود العمل، ليس بشكل سليم، بل بصورة عوجاء... وفيما بعد، عندما افترقت طرقاتهم، والتقيا مصادفة في المدينة، لم يقل له شيئاً ولم يستمع له نهائياً.

☆☆☆

في ذلك الشتاء المبكر...

انطلقت هي مسرعة، على الناقة البيضاء الشرسة ذاهبة إلى الرعاة حتى تنبههم لسوء تصرفاتهم، وتكاسلهم في العمل.

كان شهر تشرين الأول (أكتوبر) جافاً أصفر بلون الذهب، وفي شهر تشرين الثاني (نوفمبر) حل الشتاء مباشرة بكل ثقله.

ساق تانباي عند المساء الأغنام إلى الزريبة وأغلق عليها، وكان كل شيء على ما يرام، وفي منتصف الليل أيقظته زوجته:

- قم يا تانباي، لقد تجمدت كلياً. الثلج يتساقط، فتلمس يدي جايدار، فوجدهما باردتين كلياً، وتفوح منهما رائحة رطوبة الثلج، والسلاح في يدها، كان رطباً وبارداً.

في الساحة كان الجو وكل شيء فيها أبيض ناصعاً، والأغنام كانت في الزريبة تثغو، وتلوح برؤوسها يمنة ويسرة، وهي لم تتعود بعد على الثلج، فاعتلى ثغاؤها، وهي تنتفض من حين لأخر لتزيح الثلج العالق فوق صوفها، وتسقطه إلى الأرض، فقال بصوت عالٍ للأغنام: «قفي، وانفضي صوفك! فهذا أقل ما سترينه في الشتاء». ارتدى تانباي

فروته وأحكم أزرارها جيداً، وأخذ يفكر بنفسه، «لقد أتى الشتاء مبكراً، فهل هذا شيء جيد أم سيئ؟ ربما أنك ستنتهي مبكراً في آخر الموسم؟ وعسى أن تعطينا فسحة صحو في فترة الإنجاب. هذا هو رجاؤنا الوحيد لك، أما الآن فاعمل عملك ولا تبال، هذا هو حقك الفعلي، وتملك الحق أن لا تسأل أحداً...».

صمت الشتاء الذي ولد في هذه الليلة، وبهدوء وسرعة، عمل تانباي كل ما في وسعه لينجز ما عليه، وحتى بروز الفجر. نهض الجميع، وهللوا بعد أن غرقوا طويلاً في نومهم، وأخذوا يقومون بواجبهم. بردت الجبال خلال الليل، وعمت ظلمته المترامية الأطراف، كل أنحاء البلاد، أما الشتاء، فهو صديق وفي لهذه الجبال، وأيضاً للرعاة مع قطعانهم رغم أنهم يخافون منه، ويحسبون له ألف حساب، ويجتهدون بالعمل والحذر، أما الجبال فقد كانت تقف بجبروتها صامدة، وهكذا ستقف، وتبقى إلى الأبد.

ابتدأ الشتاء المذكور في ذلك اليوم المشهود، ولكن ماذا قرر أن يفعل حتى الآن لا أحد يعلم. بقي الثلج على الأرض، وتساقط بعد أيام عدة ثلج آخر، وفيما بعد تساقط ثلج آخر، حتى طرد الرعاة مع قطعانهم من مرابع الخريف، وأخذت القطعان تتحرك بين الشعاب، وتبحث عن مخبأ في ظل الانكسارات الصخرية، وفي الأماكن التي لا يطالها الثلج، وهنا ظهرت العبقرية التي تكونت خلال العديد من القرون لدى الأجداد الرعاة القدامى وأحفادهم حتى تكون لديهم ما يسمى بفن الرعي، كغيره من فنون المهن، وعلم الرعاة كيف يرتحلون من مكان إلى مكان، بحثاً عن المراعي للأغنام تحت الثلج. هناك حيث يشير الراعي للآخر بيده، معبراً أنه لا يوجد في المكان الذي يقف فيه أي شيء عدا الثلج، ولهذا كانوا يسمون بالرعاة...

وتذهب قيادة ما للاطلاع وتنظر، وتنظر، وتستفسر من الرعاة، وتعد بالكثير من الوعود ثم تعود بسرعة من الجبال، أما الراعي، فيبقى هناك وحيداً وجهاً لوجه مع الشتاء القارس.

لقد أراد تانباي، أن يذهب إلى الكولخوز في أقرب وقت، إذ كان يرغب بالاطلاع، كيف ستفكر القيادة عند بدء الولادات، وهل سيكون كل شيء منظم، وهل جهزت الاحتياطات لذلك، ولكن لم يكن لديه أي وقت فراغ، حتى التنفس بهدوء! ولقد فكرت جايدار طويلاً حتى قامت بزيارة لابنها في المدرسة الداخلية، ولم تتأخر كثيراً، إذ كانت تعرف أن الأمر صعباً للغاية، حيث كان تانباي يعتني بالقطيع مع ابنتيه: كان يُجلس الصغيرة أمامه على سرج الحصان، ويلفها بفروته من الأمام، ولذلك كانت تشعر بالدفء والهدوء، أما بالنسبة للكبرى فلقد تجمدت وهي تجلس خلفه، ولم يكن في اليورتا موقد للنار بغياب جايدار، وإذا كان هناك شعلة صغيرة فإنها لا تُدفئ ولا تنقذ من البرد، وبدت اليورتا كلها كالخراب المهجور.

عندما عادت الأم في اليوم الآخر، فماذا كان! فقد تعلقت الطفلتان برقبتها، ولم تتخلص منهما إلا بالقوة. آه! لا، من غير الممكن هذا، فالأب يبقى أباً، ولكن من دون الأم إنه لا يكفي ولا يدفئ.

هكذا سار الزمن، فالشتاء كان متقلباً، فيشتد البرد أحياناً، ويهدأ أحياناً أخرى، ويهطل المطر أحياناً، ويتساقط الثلج بصورة متقطعة، وتحتدم العواصف ثم تهدأ تدريجياً، وكان كل هذا قد أقلق تانباي قلقاً شديداً، وسيكون الأمر جيداً إذا حصلت الولادات في أيام دافئة، وإذا لا، فماذا سنفعل؟

أخذت بطون الأغنام تزداد كبراً يوماً بعد يوم، وبالطبع يزيد وزنها، وتختلف النعاج عن بعضها، فمنهن تحملن أجنة كبيرة، فتبدو بطونها كبيرة، وبعضهن يحملن توائم، فتبدو بطونها كبيرة جداً، وأصبح مسير الأغنام صعباً، إذ تنتقل القائمة تلو الأخرى بصعوبة، حتى إن بطون بعض الأغنام قد اقترب من الأرض، وانحنى الظهر للأسفل مع البطن من ثقل الحمل، ولا عجب في هذا، فالأجنة نمت في ظروف حسنة، وارتوت بعصائر الأعشاب الغنية، وهنا كانت الأغنام تنبش الحشائش المغذية من تحت الثلج، وكان الرعاة يقدمون العلف للأمهات في الصباح والمساء من كل يوم، إذ يجب نقل الأعلاف اللازمة من مستودعات الكولخوز إلى الجبال، وكانت توزع حسب المخصصات المحددة لكل قطيع، وتوزع معها حبوب الشوفان لخيول الرعاة، ولقد خفت الكميات المخصصة بشكل كبير.

وفي كل صباح، عندما يقوم تانباي بإخراج الأغنام إلى المرعى، كان يتحسس بطون الأمهات وأثدائها، وهو يفكر إذا تم كل شيء على ما يرام، فإنه سوف ينفذ تعهده أمام الاجتماع من حيث عدد الخراف، أما بخصوص الصوف، فكان يفكر أنه من الصعب تنفيذ الخطة، فالصوف قد نما بصورة ضعيفة في الشتاء، وتساقط بسرعة في الربيع المبكر بعد ولادتها وتحسن صحتها، وهنا كان من الضروري تقديم العلف اللازم الذي يساعد على نمو الصوف. تجهم وجه تانباي، واحتدم مزاجه، ولكنه لم يكن قادراً على فعل أي شيء، وأخذ يشتم نفسه بأسوأ الكلمات، إذ قبل من تشورا ما اقترحه عليه، وقطع عهداً على نفسه في كلمته على المنصة، وأخذ يصف نفسه بأنه كذا وكذا: إنني طليعي، وأعطي كلمة تعهد أمام الحزب والوطن قبل الآخرين، فحبذا لو لم أتكلم هكذا! وما دخل الحزب

والـوطن هنـا! فهـذه مسـألة تخـص ملكيـة الكولخـوز وحـده، لـيس هكـذا... أو مـن الـلازم هكـذا! ولمـاذا نحـن في كـل مكـان، وكـل خطوة نقول لازم وغير لازم، ولماذا نطلق هذه الكلمات؟

وأخيراً، يؤنب نفسه: - لماذا ألوم ذاتي، وأنا المخطئ، فلم أفكر كما يجب، وأصبحت أعيش بإملاءات الآخرين، فبالنسبة إليهم الأمر سيان، يكذبون كل دقيقة، ولكن الوحيد الذي أخاف عليه هو تشورا، فهو غير محظوظ، فيوم بصحة جيدة، ويومان يكون مريضاً. عمل وكدح طوال حياته. يحاول إقناع الآخرين، وزرع الأمل في نفوسهم، وما النتيجة، لقد أصبح حذراً، ويختار الكلمة المناسبة، وطالما أنت مريض، عليك أن تخرج إلى التقاعد وترتاح...

تتابع الشتاء حسب سجيته، ففي بعض الأحيان يزرع الأمل في نفوس الرعاة، وأحياناً أخرى يقلق راحتهم، أما في قطيع تانباي، فقد نفقت نعجتان من الضعف والوهن، وعند قطعان الشابين اللذين تحت إشرافه، نفقت رؤوس عدة من الأغنام، ومن دون هذا لا يمكن أن تسير الأمور، وإذا فُقدت عشر أمهات خلال الشتاء من القطيع، فإن هذا ضمن المعقول، وشيء طبيعي والمهم كان فيما بعد، عندما نقترب من الربيع.

فجأة، أخذ يعم الدفء بالتدريج، وأخذت أثداء الأغنام تمتلئ بالحليب، فتنظر إلى بعض الأغنام الضعيفة، وهي بالكاد تحمل بطونها، أما الأثداء فبرزت ملأى بالحليب بلون وردي وزاهي، وأخذت تتحسن ليس بالأيام، بل بالساعات، ومن أين هذه القوة؟ وما هي الأسباب لهذا كله؟ وانتشرت أخبار عن بعض الولادات عند الرعاة، وهذا يعني أنه في القريب ستكون الولادات في القطعان الأخرى، وبعد أسبوع آخر سوف تظهر الخراف كالأجاص عند النضوج، فيسقط

الثمر بلا قطف، وهكذا تبدأ مرحلة الموسم العظيم للرعاة! وعليهم جمع الثمار، وهنا تجد كل راع يجتهد ويرتجف من أجل ولادة سليمة لكل خروف وليد، ويلعن ذلك اليوم الذي وافق فيه أن يعمل راعياً لقطيع أغنام، أما فرصته ستكون بلا حدود، عندما يتمكن الراعي أن يصون الولادات الجديدة، وسيكون سعيداً أكثر عندما تقف الخراف على قوائمها، وتأخذ تركض وتلعب ملوحة بذيولها للشتاء غير عابئة به.

حبذا لو انتهت الأمور بخير، وبنتيجة معقولة كي يمتلك الراعي الشجاعة، بأن ينظر إلى الناس من دون خجل...

ولقد أرسلت إدارة الكولخوزات مساعِدات من الكولخوز. أغلبها كانت من النسوة الكبار بالسن، وليس لهن أولاد. فقد تم جمعهن من القرى، وذلك من أجل مساعدة الرعاة خلال فترة الولادات، ولقد خصص لتانباي اثنتين للعمل مؤقتاً. وصلتا مع خيمتهما والفرش والحوائج. أصبح الجو أفضل، وكان يلزم سبعة أشخاص من المساعدين، ولقد وعد إبراهيم بإرسال أعداد كبيرة من المساعدين خلال فترة الولادات للأغنام، وأنهم سوف يؤمنون مركزاً لقرى خمس من أجل خدمة الأغنام عندما تلد، أما الآن فلقد اكتفوا بهذه المساعدات.

تحركت القطعان، وأخذت تنزل تدريجياً إلى الأسفل على منحدرات الجبال، وإلى محطات الولادة، ولقد طلب تانباي من إيشيم بولاتبيكوف، أن يساعده في إرسال النسوة إلى المكان الجديد المقرر، ويساعدهن في نصب الخيام، ويتم الاعتناء بالأغنام كما يجب، فقام تانباي بإرسالهن منذ الصباح في قافلة، أما هو فقد جمع الأغنام ووجهها بتمهل إلى الأسفل، وحسب الطرق المنبسطة نسبياً،

حتى لا تعاني الأغنام الحاملة قبل الولادة. ثم كان عليه أن يقطع هذه المسافة في الوادي، بمحاذاة قرى خمس، وأكثر بمرتين، مع مساعدة المعاونين.

سارت الأغنام على مهل، ولم يكن بالإمكان استعجالها، حتى الكلب المخصص للحراسة، قد مل من السير البطيء، فأخذ يركض بلا معنى ذهاباً وإياباً على حافة الطريق.

أخذت الشمس تقترب من المغيب، ولكنها ما زالت ترسل دفئها، وكلما انحدرت الأغنام نحو الأسفل، كلما شعرت بالدفء أكثر، وحتى العشب الأخضر أخذ يظهر في الأماكن الدافئة تحت وقع أشعة الشمس.

خلال الطريق، حصلت بعض التأخيرات، فوَلدت نعجة، وكان هذا في وقت غير مناسب، مما أزعج تانباي، إذ كان عليه أن ينفخ في أذني ومنخري الوليد، وبعد أسبوع ستحصل أربعون ولادة دفعة واحدة، وليس قبل ذلك، وكل هذا كان من مهمته!

ربما ستحصل بعض الولادات الآن في الطريق؟ علينا أن نتفحص النعاج الأخرى، فحتى الآن، لم تتبين أية علائم تشير إلى قرب الولادات، إلا هذه الأربعون نعجة. هدأ تانباي ثم أصبح مرحاً، وهكذا فرحت المعاونات بقدوم الخروف الأول، فأول وليد هو أغلى من الآخرين، وكان هذا الخروف جميلاً أبيض، عدا رموش عينيه، فقد كانت سوداً، وكان في القطيع كله نعاج عدة بهذا الشكل، ومن ذوات الصوف الطويل، وكانت هذه النعجة التي ولدت هي الأولى من هذه الأمهات، وتكون الخراف من هذه السلالة قوية وصوفها طويل، أما مواليد النعاج قصيرات الصوف، فالخراف تكون قصيرة الصوف. لكن وطالما ولد هذا الخروف، فعلينا أن نتوجه بالدعاء إلى الله،

فقال تانباي في نفسه، وهو يرفع الخروف فوق رأسه عالياً: احرس لنا، يا حامي الأغنام، مواشينا، وعسى أن يأتينا مثل هذا الخروف الكثير حتى لا يعود يتسع المكان لموطئ قدم، وحتى يرتفع صوت ثغاء القطعان عالياً، ويدوي في الآذان، وحتى تعيش جميع الأغنام بصحة جيدة، كما يعيش أي خروف سليم!

أصغت الجبال صامتة واجمة من كل الجهات، إذ كانت تقف بهدوء وعظمة!

أخفى تانباي الخروف تحت فروته، وسار سائقاً الأغنام، أما النعجة الأم فقد أخذت تركض على أثر تانباي تثغو قلقة على وليدها، أما تانباي، فكان يخاطبها:

- تعالي، تعالي! هذا هو لم يذهب إلى أي مكان، فهو ينعم بالدفء تحت فروتي، وقد نشف صوفه.

وصل تانباي مع قطيعه عند المساء إلى المحطة.

الجميع وصلوا إلى المكان الجديد، وفوق اليورتا كان يرتفع الدخان عالياً، وإلى جانب الخيمة كانت النسوة المعاونات منشغلات بأعمالهن، لقد أنجزن العمل، وتمت عملية الرحيل، أما إيشيم، فقد أعاد جمل الرحيل، حتى يقوم غداً بترحيل من تبقى بصورة نهائية.

ولكن الشيء الذي شاهده تانباي فيما بعد هز كيانه، فقد قصف الرعد فجأة، وكان هذا شيء سيئ، ولن يؤدي إلى الراحة، ولم يكن ينتظر منه أي شيء جيد، وكل ما تمناه، أن يكفي الغطاء للمواليد الجديدة، ولاسيما أن بناء الزرائب، شبه مهدم تقريباً، والأخشاب عتيقة، والغطاء من القصب الواهن، وتوجد الكثير من الفتحات في الجدران، وهو بلا نوافذ، ومن دون أبواب، حتى تتم التهوية من جوانبه - كلا فهو لم ينتظر شيئاً من هذا القبيل. لم يبق

ثلـج علـى الجبـال مـن حـولهم، أمـا ﴿ الزريبـة، فكـان الكـثير مـن الأكوام الثلجية المتراكمة.

لقـد تم بنـاء هـذه الزرائـب قـديماً مـن الحجـارة في أمـاكن منخفضـة، ولقـد انـزعج تانبـاي جـداً، حتـى إنـه لم يرغـب بـالنظر إلى العـاملات، وكيـف يفـرحن بـالخروف الجديـد، فـأخفى يديـه في جيبي الفـروة، وذهـب يـتفحص كـل شـيء مـن حـولهم، وفي كـل الأمـاكن حيثمـا نظـر وتجـول، كـان يـرى الفوضـى، الـتي لـيس لهـا شـبيه في الـدنيا، فمنـذ الحـرب، كـان مـن الضـروري أن يعـاد بناؤهـا، وتصـحح أوصـافها، ويـتم ترميمهـا بشـكل مـا، حتـى تـتم ولادة الأغنـام بصـورة معقـول، كـي تتقـي شـر الأمطـار والريـاح. بينمـا كانـت أسـقف الزرائـب تـذكر بسـنوات الـدمار، فـالفجوات في الأسـقف تـذكر بالقصـف الجـوي، والقـش فوقهـا قـد تعفـن واسـود في كومـات تالفـة، فهـذا هـو العلف المحظر للشتاء، وهو لا شيء في واقـع الأمـر، وفـرش القـش تحـت الخراف والأمهات، لا شيء يذكر، أما العلـف، فكـأنـه لم يحسـب لـه حسـاباً، فلـم يوجـد إلا كيسـان مـن طحـين الشـعير، وصـندوق ملـح في زاويـة المسـتودع، وكـان هنـاك مصـابيح عـدة ذات زجاجـات مكسـرة، وحديـدها قـد صـدأ كليـاً، وخاليـة مـن الكـيروسـين، وثمـة رفشـان وشـاعوب مكسـور العصـا، وحبـذا لـو كـان يوجـد كـيروسـين، لأحرقت كل شيء حولي! وأن أغـادر مـن هنـا حيثمـا تبصـر عيني، ولـو لآخر الدنيا...

تـابع تانبـاي سـيره، فاصـطدم في طريقـه بكومـات متجمـدة مـن الزبل المتجمع من السنة الماضية مع قليـل مـن الـثلج الـذي سـقط في هـذه السنة، ولم يعرف ماذا يقول، لم يجد الكلمات المناسبة ولكنـه كـان يكـرر بعض الكلمات، وكـأنه أصيب بمس مـن الجنـون: «كيـف مـن

الممكن هذا؟ وكيف تعم وتنتشر هذه الفوضى؟ كيف من الممكن لهذا أن يكون؟!».

خرج من الحظيرة بعد هذا، وانطلق يضع السرج على حصانه، ويداه ترتجفان من الغضب. لقد قرر أن يذهب إلى هناك، إلى قيادة الكولخوز، وأن يستنهض همم الجميع، ويوقفهم على أرجلهم في وسط هذه الليلة، وأن يقيم الدنيا ولا يقعدها! وسوف يمسك إبراهيم من رقبته، ورئيس الكولخوز من صدره، وكذلك تشورا؛ ودعهم لا ينتظرون مني الرحمة! طالما يتصرفون هكذا، ولن يروا مني أي خير! هكذا، لقد انتهى كل شيء!...

إيه توقف! استطاعت جايدار أن تلحق به، وتمسك بمقود الحصان، وتصرخ به: إلى أين أنت ذاهب؟ لا، لن تذهب إليهم، انزل عن الحصان، اسمعني جيداً!

ولكن أين لها من القوة، حتى تُوقف تانباي، الذي صرخ بها، وانتزع المقود من يدها، وكأنه يريد دهسها، وهو يلسع الحصان بقوة:

- اتركيني! اتركيني! اتركيني أقول لك! اتركي مقود الحصان! سأقتلهم! سأقتلهم!

- لن أتركك! إذا كنت ترغب بقتل إنسان؟ اقتلني أنا، وهنا هرعت النسوة المعاونات للوقوف إلى جانب جايدار، وهرعت ابنتاه تبكيان.

- بابا! بابا! لا تفعل هذا!

- توقف تانباي، ولكنه كان يحاول الإفلات ليتابع طريقه إليهم وهو يقول ويكرر بعض الشتائم، ويصف هؤلاء القادة بأنهم أعداء الشعب:

- لا تمسكيني، اتركيني، دعيني أذهب، ألا ترين ماذا يجري

هنا، ولاسيما هذه النعاج الأمهات، من أين سنأتي لها بالعلف، وأين سنضعها غداً عندما تمطر وتثلج الدنيا؟! وأين الأسقف لهذه الزرائب؟ وأين العلف؟!

- ستموت كل الأغنام، فمن سيجيب عن هذا؟ أتركيني! فتعود جايدار، وتقول له:

- توقف أنت، لا تشتعل، حسناً، أنت ستذهب، وستصرخ هناك بأعلى صوتك، وتثير الشغب، فماذا سينجم عن هذا؟ فإذا هم لم يفعلوا شيئاً حتى الوقت الحاضر، هذا يعني أنه ليس لديهم مقدور على هذا، ولو كان لدى الكولخوز إمكانيات ومقدرة على هذا، ألم يقوموا ببناء زرائب جديدة؟ فاعترض تانباي قائلاً:

- أوليس كان من الممكن تنظيف هذه الأسطح، أو إصلاحها؟ وأين الأبواب؟ والنوافذ؟ وهي مهدمة من جميع النواحي، وداخل الزريبة تراكم الثلج والزبل، ولم ينظفوا هذه الزرائب منذ أكثر من عشر سنوات! أنظري، وكم من الوقت سيكفي هذا القش المعفن؟ وهل من الممكن إطعام الخراف الصغيرة به؟ ومن أين لنا أن نحصل على الفرش تحتها؟ فهل يسمحوا لنا أن تموت الخراف؟ هكذا ترين مناسباً؟ أبعدي عن طريقي!

- يكفي، يا تانباي، عد لعقلك، فهل أنت أحسن من الآخرين؟ سنعيش كما يعيش ويعمل الآخرون، ويحسبونك الرجل الأوحد!-خجل تانباي أمام النسوة - وهل أنت أفضل من غيرك، فماذا من الممكن العمل، ففكر جيداً طالما الوقت لم يفت. أبصق أنت على من يستحق، فنحن المسؤولون هنا، وسنقوم بالعمل، وخلال الطريق، لاحظت جايدار وجود أشواك طويلة وكثيفة قرب المستنقع، واقترحت عليه أن يقوموا بحصده بالمناجل، وفرشه فوق السطح، ونضع فوقه الزبل

وندعسه جيداً، حتى لا يسمح للماء أن ينزل على المواشي، أما بخصوص الفرش على الأرض، سوف نجمع الحشائش اليابسة ونفرشها، وعسى أن يساعدنا الجو على ذلك...

هنا تدخلت النسوة المعاونات، وأخذت كلّ منهن تتحدث مع تانباي عله يهدأ، وأخيراً نزل عن سرج الحصان، وبصق على الأرض غيضاً، ودخل إلى اليورتا. جلس وهو يحني رأسه حانقاً أسود الوجه، كأنه يعاني من مرض قوي. هدأ الجميع في البيت، وحتى البنات لم ينطقن بكلمة واحدة خوفاً، كان إبريق الشاي قد غلى فوق جمر الزبل اليابس، وعندما تخمر جيداً، جلبت جايدار إبريق ماء، وقدمته لزوجها حتى يغسل يديه، وفرشت شرشفاً نظيفاً، ووضعت عليه بعض الكراميل، لا يعلم من أين حصلت عليه، وصحن سمن جامد أصفر، ونادت النسوة المعاونات، وجلس الجميع يشربون الشاي. آه منكن أيتها النسوة! يشربن الشاي، ويقضمن حبات الكراميل، ويتحدثن عن كل شيء، ومن أين يأتين بالموضوعات الكثيرة، وكأنهن قد حلوا ضيوفاً من بعيد، فالتزم تانباي الصمت، وبعد شرب الشاي، أخذ ينقل الحجارة حتى يقوم بإصلاح جدار الزريبة المتهدم، وكان يلزم الكثير من العمل، ولكن لا بد من الأمر لضرورته حتى يؤوي الأغنام خلال الليل. خرجت النسوة وأخذن يساعدن تانباي بتقديم الحجارة، التي بإمكانهن حملها، حتى طفلتاه أخذتا تحملان بعض الأحجار الصغيرة، فقال لهما الأب:

- اذهبا أنتما إلى البيت، فالطقس بارد جداً.

لقد أحس بالخجل من تصرفه وانفعاله، فأخذ يحمل الحجارة، ويبنيها بعناية من دون أن يرفع ظهره أو عينيه، وينظر إلى واحدة من المعاونات، وحقاً ما قاله تشورا سابقا: لو لم تكن جايدار موجودة في حياة تانباي، لكان قد هلك نتيجة تهوره، وجرأته...

16

في اليوم التالي، ذهب تانباي لتوضيب الرحيل للرعاة الذين تحت إشرافه، ثم عمل أسبوعاً كاملاً من دون توقف، ولم يذكر أنه عمل بهذا الجد والمتابعة أثناء الفترة الماضية، إلا في أيام الحرب عندما كان من الضروري تجهيز التحصينات ليلاً قبل النهار، ويتذكر أنه كان عليهم أن يعملوا هناك مع كل الفوج واللواء، والفرقة، وكل الجيش، أما هنا فوحده مع زوجته وواحدة من المعاونات، أما الثانية فقد سرحت بالقطيع بالقرب منهم.

أما في هذا العمل، فقد كان أصعب شيء هو تنظيف الزريبة من الزبل اليابس، ومن بقايا العليق الشوكي، ولقد كانت هذه الأشواك كثيفة جداً، وذات إبر قاسية لها نهايات معقوفة كمناقير الصقور، وقد مزقت جزمة تانباي، رغم أنها مصنوعة من الجلد القاسي شر تمزيق بالأشواك، كما تمزق المعطف الحربي الوحيد لديه، وكأن هذه الأشواك تحب نوع القماش المصنوع منه، فتغوص فيه حتى النهاية لتصل إلى جلده، وبعد أن تم تحطيم العليق، قاموا بحزمه في حزمة كبيرة، وجرها إلى مسافة ما عن الزريبة، لأنه كان من الصعب تحميلها على الحصان، ولا يمكن حملها على الظهر لكثرة أشواكها، فأخذ تانباي يسب الشياطين والجن قبل البشر بشتى الشتائم والسباب، حتى عم صوته وادي (الخمس أشجار)، ومن هذا الوادي الخالي لا يمكنك أن تجمع منه قشاً لخمسة مكانس، وكان يعمل في حالة هيستيرية، وهو منحنياً في شكل مثلثي، والعرق يتصبب منه، وعانى أشد معاناة حتى أخرجوا هذا العليق الشوكي وأوصلوه إلى نقطة لا تزعجهم بعد اليوم، لقد تألم تانباي على وضع النسوة، ولكن للأسف لم يكن هناك من مخرج آخر، ولاسيما في

هذه الأيام القلقة، فالوقت كان يضغط بكل ثقله، وحتى أصبحت مسألة النظر إلى السماء مرتبطة بهذا العمل القاسي، ويحتار ماذا يسألها - كيف الأمور؟ ربما سيسقط الثلج قريباً، وهذا ليس ضرورياً الآن، وكان تانباي بين الحين والآخر يرسل ابنته الكبرى إلى المرأة التي ترعى القطيع وتسألها - هل ظهرت ولادات جديدة بين الأغنام..

أما الوضع مع الزبل المكدس من السنوات الماضية، فكان الأمر سيئاً للغاية. لقد كان كثيراً حتى يبدو الأمر من الصعب تنظيفه، وعندما يكون زبل الأغنام تحت سقف جيد، يكون الزبل يابساً مضغوطاً بأرجل الأغنام، والعمل يصبح سهلاً معه، وممتعاً لدرجة ما، حيث يتم نزع هذه الصفائح اليابسة عن وجه الأرض المستوية، ويتم رصفها حتى تجف لاستخدامها في التدفئة، لأنها تعطي حرارة قوية ولطيفة ونقية، وهي المادة الأساسية التي يستخدمها الرعاة لاتقاء شر برد الشتاء، وعندما يتعرض زبل الغنم المكدس للمطر أو الثلج يصبح ثقيلاً جداً، ومن الأفضل أن لا ينقل في هذه الأثناء من مكان لآخر، فهذا عمل شاق، ولكن الوقت لا يرحم، وعندما حلت الظلمة، أشعلت جايدار مصباح الكيروسين العجيب، واستمروا بالعمل، وهم ينقلون على الحمالات هذا الزبل الرطب والبارد، إذ استمروا في هذا العمل ليلتين.

تجمعت في الساحة كومة كبيرة من الزبل، وفي الزريبة بقي جانب كبير لم نبدأ به، فاجتهدنا بتنظيف زاوية من الزريبة للمواليد المنتظرة، وماذا تعني زاوية واحدة، عندما لا تكفي الزريبة كلها لاستيعاب الأمهات وخرافها الصغيرة، وخاصة إذا أنجبت النعاج في اليوم الواحد عشرين أو ثلاثين خروفاً، فماذا سيكون ساعتئذٍ؟- فكر تانباي بهذا، وهو يكوم الزبل على الحمالة حتى يخرجه من الزريبة،

ويرمي به فوق الكومة، ويعود ثانية من جديد حتى منتصف الليل، وليلة أخرى حتى طلوع الفجر. لقد كلوا من التعب والجهد، وعجزت الأيادي عن الحركة، وكان المصباح ينطفئ من الرياح ثم يعيد تانباي إشعاله، ولم يترك شتيمة إلا واستخدمها، وكان من الأمور الجيدة أن المرأتين المساعدتين استمرتا بالعمل مع تانباي وزوجته جايدار حتى الأخير.

مضت ليلة، ثم أخرى، وهم يحملون هذا الزبل الثقيل ويلقون به في الخارج، وقاموا بثقب الجدران من أجل التهوية، وكذلك في السقف، وفي الليل عندما خرج تانباي من الزريبة وهو يحمل الحمالة في المقدمة، سمع ثغاء وليد جديد في الحظيرة، ثم سمع ثغاء أمه في الإجابة على صوته، ودقت على الأرض بحوافرها. «لقد ابتدأ الشغل!» وثمة ضغط تعاظم على أسفل قلبه، فالتفت تانباي إلى زوجته سائلاً:

- هل سمعت؟

قذفا الحمالة على الأرض مباشرة عند أرجلهم، وأخذوا المصباح على عجل، وهرعوا إلى الزريبة.

أخذت المصابيح تتراقص حتى كادت تنطفئ فوق القطيع، فأين مصدر هذا الثغاء؟ هذا هو هناك في الزاوية! كانت النعجة تلحس القشرة المخاطية اللزجة العالقة على صوف الخروف الصغير. أخذت جايدار الخروف ولفته بثوبها، وحسناً أنهما لاحظا هذه الولادة في الوقت المناسب، وإلا كان من الممكن أن يتجمد حتى الصباح، أو ترفسه الأغنام بأظلافها، وإلى جانبها كانت نعجة أخرى قد ولدت توءمين، فقام تانباي بوضعهما تحت معطفه الشتوي، وهناك بين الأغنام كانت توجد خمس نعاج أخرى تثغي بشدة، وهي في حالات الولادة، وهكذا فهم تانباي، أن الصعاب قد باشرت وستلد هذه

الأغنام حتى الصباح، فنادى المساعدتين، فأخذتا النعاج التي ولدت، والتي ستلد قريباً، وهما تلفان الصغار بكل ما تجدان من قماش أو رداء أو ثوب أو أكياس في طريقهما، وهكذا تم وضع هذه النعاج في تلك الزاوية من الزريبة حتى يتمكنوا من تنظيفها بشكل ما.

فرش تانباي القش إلى جانب الجدار، ووضع الخراف عليه. ثم أرضعت المعاونات الخراف اللبأ من أثداء أمهاتها، وغطوها بأكياس خيش مصنوعة من ألياف القنب. فالجو كان بارداً، أما تانباي، فقد اقتاد الأمهات إلى الزاوية النظيفة، وأخذ يفكر بعمق وهو يعض على شفتيه. فماذا كان يدور ساعتئذ في رأسه؟ إنه كان يأمل أن تتم الأمور على خير، وعليه أن ينجز الأعمال التي فكر بها، ويتخلص من الهموم العالقة في تفكيره، وحان الوقت لمتابعتها... كان يتمنى أن يتوفر بعض القش لإطعام الأمهات، التي ولدت لتوها، وبحاجة إلى طعام، ولم يكن للتبن أثر. أما إبراهيم فإنه سيجد الذرائع لتبرير هذه الأمور، فسيقول من بين الحجج: جرب أن تنقل التبن إلى تلك المناطق الجبلية التي لا توجد فيها طرق للسيارات ولا للعربات!

ذهب تانباي، وهو يكلم نفسه: «إيه! فليكن ما سيكون!» وحمل علبة معدنية فيها حبر محلول، فوضع أرقاماً على صوف ظهر النعاج بعدد الخراف، التي تلدها، ثم يضع على صوف ظهر كل خروف رقم أمه، وهكذا وضع الأرقام نفسها على ظهور الأمهات، وقام بهذا حتى لا تكون هناك مصاعب في معرفة الأم وأبنائها، عندما سيكون هنا ثغاء لمجموعة نعاج، وهذا سيحصل قريباً، حيث بدأ القطيع بالإنجاب.

لقد بدأت الولادات مباشرة بعدد جيد، وبهجمة عالية، وكأننا في حرب دفاع عندما لا يكون لديك سلاح فعال لتقاوم به، بينما ترى

الدبابات تهاجمك من كثب وأنت في الخندق، ولا يمكنك مغادرته، لأنه لا يوجد مكان آخر تهرب إليه، فالأمر هنا واحد من اثنين؛ إما أن تقهر الأعداء بأعجوبة، وإما أن تستشهد.

وقف تانباي عند الصباح على هضبة صغيرة قبل أن يخرج القطيع إلى المرعى، وأخذ ينظر صامتاً من حوله، وكأنه يحسب ما قام به حتى الوقت الحاضر، وما تبقى عليه، وكانت حدود دفاعه وهمية ولا قيمة لها، ولكن، كان عليه أن يصمد، فليس لديه مكان يهرب إليه، فأمامه وادي متعرج صغير فيه نهير يتلوى مع الوادي، وينحصر بين المنحدرات، ومن خلفهم كانت سلسلة من التلال غير المرتفعة، وخلف السلسلة هذه كانت أخرى أعلى منها تراكمت عليها الثلوج، وفوق المنحدرات السطحية كانت تبرز بعض القمم من فوق الثلوج، وتظهر عليها صقور سود، وفوق الذرى العالية تراكم الجليد، إذ حل الشتاء الحقيقي، وبدت كأنها في متناول اليد قريبة، ويخيل للناظر لو أنها تدحرجت، فسوف تكون هنا على عجل، وستغرق هذه الوديان البسيطة في الظلمة الأبدية حتى لم تعد تجدها مهما بحثت عنها.

كانت السماء رمادية، ويغطيها لحاف رمادي قاتم، أما الرياح فكانت تصب من علٍ إلى الأسفل، ومن كافة الأطراف كان الفضاء الصحراوي خالياً كلياً، والجبال تحيط بالمكان من كل الأنحاء، حتى تجمدت الروح من القلق والمصاعب، وهناك في الزريبة أصوات خراف ظهرت إلى الحياة الآن، وكنا قبل قليل قد عزلنا من القطيع عشر أمهات جاهزة للولادة.

خرج القطيع بهدوء يبحث عن بعض الغذاء بين الحجارة، وهناك من الضروري أن يتابع الراعي بدقة وضع كافة الأمهات، لأنه وفي

عـالم رعـي الأغنـام، لم يحـزر الراعـي علـى نعجـة مـا، ويفكـر أنهـا ستسـافر لأيـام عديـدة، ولكنهـا فجـأة تختفـي عـن أعـين الراعـي، وتضـطجع إلى جانـب صـخرة أو شـجيرة، وتبقـى هنـاك فتلـد في الـبرد وتمرض، ويصاب وليدها بالحمى، وغالباً ما يموت.

وقف تانباي طويلاً فوق التلة، ولاح بيده ثم ذهب نحو الزريبة، فهناك ما يزال الكثير من العمل، ومن الضروري أن يتم إنجاز شيء ما، مما عليه أن يقوم به.

جاء فيما بعد إبراهيم، وأتى بالطحين، وعيناه خاليتان من الخجل والحياء كلياً.. وقال: من أين أجد لكم القصور؟ عن أية حظائر تتكلمون، وهل كانت في الكولخوز حظائر سابقاً؟ هذه التي كانت سابقاً وهي أمامكم موجودة باقية حتى الوقت الحاضر، وليس من حظائر أخرى، وحتى إلى مرحلة الشيوعية، لم نصل بعد.

بالكاد تمالك تانباي أعصابه، وكان على استعداد أن يهجم عليه ويحطمه بكلتا يديه، وقال له من بين أسنانه:

- لمن تلزم طُرفك الآن، وهل المجال يتسع هنا لسخريتك؟ أنا أتكلم عن العمل، وأفكر به، وأنا مسؤول عن النتائج.. فأجبني عن هذا. فرد ابراهيم بصوت متردد:

- وهل أنا حسب اعتقادك لا أفكر؟ فأنت مسؤول عن قطيع صغير واحد، أما أنا فمسؤول عن كل شيء، وعنك وعن الآخرين، وعن كل تربية الحيوانات في الكولخوز. هل تفكر أن الأمر سهل! وفجأة، - و يا لاستغراب تانباي - أخذ هذا المحتال يبكي بمرارة ككل الشطار، ويغطي عينيه براحتي يديه، وأخذ يهمس من بين أصابع يديه، والدموع تتدحرج: سوف يحاكمونني! سيزج بي في السجن وأحاكم! لا يوجد أي شيء، ومن الصعب أن نحصل على

الأعلاف، والناس لا يرغبون بالعمل، ونحن لا نجد مساعدين مؤقتين، فاقتلوني وقطعوني، لم أعد أستطيع أن أفعل شيئاً، ومن العبث أنني وافقت على أن أقوم بهذا العمل...

ومع هذه الدموع الهستيرية غادر إبراهيم، وأبقى تانباي في حيرة، وبعد ذلك، لم يعد إبراهيم يظهر في هذه المنطقة.

☆☆☆

وَلدت المئة الأولى من النعاج، أما في قطيعي إبشيم وبكتاي، اللذين يرعيان قطيعهما في الجبال فوق الوادي، لم تبدأ الولادات بعد. ولكن تانباي شعر بأن المأساة تقترب منهم، وجميع الذين كانوا موجودين - ثلاثة نساء كبيرات، إذ لم نحسب المرأة العجوز التي ترافق القطيع في المرعى، والبنت الكبرى ولها من العمر ست سنوات، بالكاد كانتا تشرفان هناك على الولادات، وتقومان بتنظيفها وإرضاعها وتغطيتها حتى يكون شيء من الدفء، وكان من الضروري أن يُنقل الزبل من الزريبة كل يوم، وفرش القش والأعشاب اليابسة تحت الأمهات التي تلد، ولكن المؤلم أن ثغاء الجوع الذي ألمّ بالقطيع، أخذ يصم الآذان ويقطع نياط القلوب، فالخراف لا تجد في أثداء أمهاتها الحليب الكافي، ونحفت النعاج كلياً ولا توجد أية أعلاف تقدم لها، وماذا كان ينتظرنا في المستقبل القريب؟

تعاقبت الليالي والنهارات الرعوية، وتراكمت الولادات بكل ثقلها على هذا العدد القليل من البشر، ولم يكن لديهم الوقت حتى يلتقطوا أنفاسهم، أو يجلسوا لدقائق.

أما في المساء، فقد أخافتهم الطبيعة خوفاً كبيراً! لقد برد الجو جداً وتلبدت الغيوم تباعاً وأخذت تتساقط حبيبات البرد القاسية، التي تسمى بفراش الثلج، وغرقت الدنيا في محيط مظلم ليس له بداية

ولا نهايــة... وأخــذ تانبــاي يفكــر بامتعــاض وهــو يحمــل علــى رأس الشاعوب الحديدية مشيمة إحدى النعاج التي ولدت لتوها.

فجـأة تفرقت الغيـوم وأخـذ الـدفء يعـود تـدريجياً حتـى عمـت في الهواء رائحـة الربيـع القـادم بكـل مـا فيـه مـن رطوبـة. «عسـى الله، أن يقترب الجو من الربيع، وحبذا لو يتدعم الدفء قليلاً، ويظهر العشب، وإلا ستحل المصيبة الكبرى عندما تضعف الأغنام، ويأخذ القطيع بالتأرجح في مهب الريح، لا حول له ولا قوة».

هكذا جاء الربيع، ولكن ليس كما كان ينتظر تانباي. بدأت ليلة ليلاء على حين غرة بالمطر الغزير، ثم تحولت إلى ضباب كثيف، ثم ثلج، وبدا كأن الأمطار والثلوج تصب وتتساقط على الزريبة وعلى اليورتا بكل ما تحمله من رطوبة وبرد، وعلى ما يحيط بهما، وتكونت بسرعة الجداول والقنوات وبرك المياه الكبيرة في الأماكن المنخفضة المستوى، وذلك فوق الأرض المتجمدة، مما جعلها ترتفع في منسوب مائي، وهكذا اخترقت مياه الأمطار السقف التالف لليورتا، فعمت الجدران، وسالت المياه باتجاه الزريبة حتى تطرد الأغنام، التي تعيش فيها، وهكذا أوقفت كل الأغنام على أرجلها، وتجمعت الخراف الصغيرة في كومة متراصة في المياه، بينما أخذت الأمهات تثغو بغريزتها الحيوانية أمام الكارثة، وهي تسير مبللة بالمياه من الخلف، وهكذا لقد عمّدت المياه الربيعية الولادات الجديدة بالمياه الباردة.

ارتبـك النـاس شـر ارتبـاك، فخـوفهم علـى أنفسـهم مـن جهـة، وخـوفهم علـى الحيوانـات المسـؤولين عنهـا الـتي تحتـاج لمـن يوجههـا وينقذها، فحملوا المصابيح وأخذ تانباي يركض كأنه هو وزوجته زوج مـن الحيوانـات المفترسـة المطـاردة، إذ يركضـون مـن مكــان إلى مكــان في الظلمـة، وهـو ينتعـل جزمتـه الكـبيرة الممزقـة في الـبرك،

وكذلك في المخاضة التي تكونت من الزبل والأمطار الغزيرة، بينما كانت جنبات معطفه تصفق على جنبيه، كأجنحة مكسرة لطير هوى من علٍ، وأخذ يصرخ بصوت أبح منادياً الآخرين:

- أين العتلة، أعطوني بسرعة! أعطوني الرفش! يجب وضع هذا الزبل هنا حتى يمنع الماء من الدخول إلى الزريبة! سدوا من هناك...!

كان من الضروري تحويل سيل المياه حتى لا تدخل إلى الزريبة، وتكسير الأرض المتجمدة، وفتح قناة لعبور المياه بعيداً، وتابع تانباي صراخه:

- هاتوا الضوء! هاتوا الضوء إلى هنا! إلى أين تنظرين أيتها المعاونة!

أخذ الضباب ينتشر في الليل، وتساقط الثلج والمطر، ومن غير الممكن كان منع هذا، ركض تانباي إلى اليورتا، وعندما أشعل المصباح، وجد أن المياه تدخل إليها من كل جانب، ولكنها كانت هنا أخف منها في الزريبة. بينما كان الأولاد نائمين، واللحاف من فوقهم قد تبلل كلياً، فحمل تانباي ابنتيه مع فراشهما، ونقلهما إلى زاوية لا يسيل منها المطر، وهكذا وسع المكان في اليورتا أيضاً، ووضع على الأولاد قطعة لباد من الأعلى، وصرخ منادياً النسوة، اللواتي كن في الزريبة ينقذن الخراف من الغرق:

- هاتوا الخراف إلى هنا، إلى اليورتا! وركض هو إلى هناك ليساعدهن في النقل، ولكن السؤال، الذي يطرح نفسه: كم من الخراف من الممكن أن تتسع تلك الفسحة الضيقة في اليورتا؟! في الوقت، الذي كان عدد الخراف يزيد عن المئة! وهكذا كان من الممكن حماية عشرات عدة، ليس أكثر، واحتاروا كيف سينقذون الباقي! بينما كان يكرر تانباي:

- آه، علينا أن نعمل لإنقاذ ما نقدر عليه...

هذا هو الفجر قد بزغ. بينما استمرت الطبيعة على حالها، ولا تبدو نهاية قريبة لهذه الأمطار، وعسى أن لا تتطور الأمور وتسقط الثلوج، وبعد الثلوج تعود الأمطار للهطول من جديد، وهكذا...

ملأ تانباي والنسوة اليورتا بالخراف حتى الأخير، وهي تثغو بأصوات قوية، وانتشرت الروائح الكريهة والنتنة، إذ قامت النسوة بجمع الأغراض والثياب في زاوية واحدة، ووضعوا عليها غطاء من قماش الشوادر السميك، أما هم فقد رحلوا إلى الخيمة، التي تعيش فيها المعاونات، وأخذت البنتان تصرخان من آلام البرد المبرحة، وتبكيان بصوت عالٍ.

هكذا حلت الأيام السود للرعاة، وأخذ تانباي يلعن قدره ومصيره البائس، ويشتم كل شيء، وكل من أرسله إلى هنا، فلا يقدر على النوم، ولا على تناول الطعام. يناضل بكل ما لديه من قوة بين هذه الأغنام المبللة من رأسها، والملطخة بالوحل والزبل حتى كل أطرافها، وبين هذه المخلوقات الوليدة حديثاً، وهي تثغو بأعلى أصواتها. بينما أخذ الموت يحصد عدداً منها في الزريبة التي دخلتها المياه، وخارجها في الساحة، وتحت الأمطار والثلوج تقف الأغنام التي لم تلد بعد، وهي بين ساعة وأخرى ستلد، واليوم أو غداً، سيهطل المطر عليها قوياً، وترتجف برداً، حتى لا ينطبق فكاً على الآخر من شدة الارتجاف، بينما النباتات الشوكية معلقة في أكثر من مكان في صوفها المبلل، آه، يا لهذه الأشواك المعذبة!...

رغم الجوع الشديد، لم ترغب الأغنام بالسير نحو المرعى، وعن أي مرعى يجري الكلام بالنسبة إليها في مثل هذا الطقس الماطر؟ أما المرأة العجوز المعاونة، فقد كانت تسوقها نحو المرعى، بينما تعود

الأغنـام نحـو الزريبـة، وكـأن الجنـة قـد جهـزت لهـن بكـل الطيبـات، فأخذت المرأة تبكـي، وتجمعهـم وتطـردهـم إلى المرعـى، فتعـود الأغنـام بالعكس. ركض تانباي غاضباً، وكان جاهزاً أن يضرب هـذه النعـاج الطيبة بالعصا، التي حملها في يده، ولكنه أحجم عن ذلك وهـو يـدرك أن النعاج تعود لأولادها، لأن الأولاد بالنسبة إليها حسـب غريزتهـا، أهـم بكثير من الطعام والشراب، وهنا كان عليه أن ينادي زوجته والمعاونـة الثانية حتى يتمكنوا من إبعـاد الأغنـام عـن الزريبـة نحـو المرعـى، ومنـذ ذلك الوقت الذي بدأت فيه هذه المصيبة، أضـاع تانبـاي حسـاب الـزمن، وعـدد الخـراف الـتي ماتـت أمـام أعيـنهم، وكـانـت بعـض النعـاج تعـوض نسـبياً، فمـنهن مـن أنجبـت تـوءمين، ومـنهن ثلاثـة تـوائم، وكـل هـذه الثـروة كـانـت تضـيع سـداً، والعمـل ذهـب هبـاءً. كـانـت الخـراف تظهـر إلى الحيـاة كـالزهور، وفي اليـوم نفسـه تمـوت مـن الـبرد والرطوبـة، ويضطر تانباي إلى رميها في حفر أو في بركة الزبل، أما الخـراف الـتي تبقى على قيـد الحيـاة، تصـاب بالسـعال بعـد الـولادة مباشـرة، وتُضـرب الرئتان حتى يصعب عليها التنفس، وتموت لاحقـاً، ولقـد جـرت العـدوى مـن واحـد لآخـر، أمـا الأمهـات الـتي فقـدت أولادهـا، لم تنقطـع عـن الثغـاء، وهـي تـركـض مـن مكـان لآخـر باحثـة عنهـا، وعنـدما تشـم رائحتها في البركة، أو تشاهدها تطفو على سطح الماء، تحاول سـحبها بيـديها، وكـأنهـا تنقـذهـا مـن الغـرق، ويبـدو هـذا كلـه أنهـا تعـاكس كل شيء منطقي ويؤمن به العقل، جائراً بحق الطبيعة والأرواح الحيـة. آه، كـم كـان يرغـب تانبـاي لـو أن ولادة الأغنـام المتبقيـة قـد تـأخرت قليـلاً، حتـى تـذهب هـذه المصيبة! وأراد أن يصـرخ بهـذه الأغنـام الغبيـة: «توقفن! لا تلدن الآن! توقفن، انتظرن قليـلاً حتى يظهر العشب!...».

لكـن هـذه الأمهـات اسـتمرت بـالولادة، وكـأنهن اتفقـن بـين

بعضهن، الواحدة تلو الأخرى، وبالتتابع، تلد الثالثة والرابعة، وبعد قليل أخرى!...

وهنا تزاحمت في نفسه مشاعر الشر الأسود المخيف، ولقد تصاعدت الظلمة في عينيه، حتى طمست معظم حدقتيها بسواد دامس، غطى على كل شيء حدث هنا في هذه الزريبة المميتة، وطمست معالم الأغنام، ووصلت إلى ذاته، والحياة التي كان يحلم بها، والأهداف التي كان يسعى إليها، وقاتل بشراسة، وأصبح يتحرك كما تتحرك السمكة بين حطام الجليد، وقد غطى عليه شعور من الضياع والتشتت، حتى وصل به الأمر لدرجة من الجنون، ولم يعد يرى أي شيء إيجابي في أفكاره، فأخذ يطرد الأغنام بعيداً، ولكنها لم تنصاع له، وتعاود لتقتحم روحه، وتدخل إليها رغماً عنه، وتندس في رأسه مع ثغائها الحزين: «آه! لماذا كل هذه المعاناة؟ ولمن يلزم هذا؟ لماذا نعمل في تربية الأغنام وإكثارها، طالما أننا لا نستطيع أن نحافظ عليها؟ فمن هو المخطئ في كل هذا؟ من؟ أجيبوني، لم أعد أفهم شيئاً، وقولي من المخطئ؟! فأنت يا تانباي وكل من على شاكلتك، ثرثارون! فتتفاخرون أنكم أنتم بالذات ستحققون المعجزات، وترفعون أرقام نجاحاتكم، وتقولون سنعوض عن التقصير، وننطلق في المقدمة وننتصر، وكلها وعود تتحطم أمام بعض القيادات من أمثال إبراهيم، الذين يعطوننا وعوداً براقة، ونحن نعطي وعوداً بالاعتماد عليها، ولكن هم لا ينفذون وعودهم، ونحن نتكلم كلاماً جميلاً مشابهاً لوعودهم، ونقع في الأزمة. تعال ارفع الآن يا حامل الأثقال هذه الخراف النافقة، واخرجها من الزريبة، واحمل تلك النعجة الأم، لقد نفقت في بركة الزبل، وهي تحاول إنقاذ وليدها. أرني نفسك كما أنت في واقع الأمر!...».

غالباً ما كان تانباي، ولاسيما في الليالي، يغوص حتى ركبتيه في الأوساخ والوحول والنقع المليئة بزبل وبول الأغنام، لينقذ بعض المواشي، وهو يتعذب وحيداً، حتى أخذ يختنق من هذه الأوضاع، والحالات المعذبة والمرة التي أخذت تتصارع في دماغه، وكثيراً ما كان ينسى النوم، ولا يعرف طعمه في الكثير من الليالي، وكان من الضروري عليه أن ينتبه إلى الولادات الجديدة، ويرضع الخراف الضعيفة التي لا تجد حليب في أثداء أمهات من نعاج أخرى نفقت أولادها، وتجد بعض النعاج رغم احتقان الحليب في أثدائها، كانت ترفض أن تُرضع خراف غيرها من النعاج النافقة، وبالطبع، فالحيوان في بداية الأمر لا يعرف شعور اليتم، وربما تحن على هذه الخراف اليتيمة بعد أن تتعود عليها.

كانت الولادات مستمرة ومتتابعة! وتحت الأقدام مستنقع الزبل المختمر برائحته العفنة الحامضة، ومن الأعلى لليورتا ينزل الماء من كل الجوانب، والرياح تلعب على هواها في الزريبة كما في البرية العارية، ويشعر الإنسان أن كل شيء ينطفئ في الأرواح من كل شيء إنساني، ويبحث تانباي عن المصابيح المنطفئة حتى يشعلها، ويسير متخبطاً، يتعثر ويقع، يزحف على أطرافه الأربعة حتى لا يطأ على المواليد الجديدة، وتحت نور المصباح يرى يديه السوداوين المتورمتين ملطختين حتى الرسغين بالزبل والدم.

منذ أمد بعيد لم ير نفسه في المرآة، ولم يعرف أن شعره قد شاب وأنه أصبح كهلاً وكبر عمره سنوات عدة خلال أيام، والآن أصبح ينطبق لقب الكهل عليه، وليس لديه الوقت للتفكير بهذا، ولا بنفسه، ولم يكن لديه الوقت حتى يتناول أي طعام كان، ولا أن يغسل يديه ووجهه، ولم يعط لنفسه ولا للآخرين دقيقة من الوقت حتى

يستريحوا، وعندما رأى الأمر يسير إلى الكارثة الكلية والساحقة، أجلس المعاونة الشابة على الحصان، وقال لها:

- انطلقي، واذهبي بسرعة إلى تشورا، وقولي له أن يأتي إلى هنا بأقصى سرعة، وإذا لم يأت معك، بلغيه: أن لا يظهر أمام عينيّ في يوم من الأيام!

عادت المرأة عند المساء تعدو على الحصان مسرعة، وعندما وصلت إلى اليورتا، هبطت عن السرج، وبدا وجهها أزرق، وقد تبللت ثيابها حتى آخر خيط على جسمها، وقالت:

- إنه مريض أيها المحترم، ونائم في الفراش، وقال إنه بعد يوم أو يومين، سيأتي إليك، ولو كان على حافة الموت! فأجاب تانباي حانقاً من صديقه ورفيق عمره، وهو يشتمه:

- عسى أن لا ينجو هذا السافل من المرض!

أرادت جايدار أن تنبهه من التورط بالكلام، ولكنها لم تجرؤ، ولم يكن بالإمكان إيقافه. أخذ الطقس يتحسن في اليوم الثالث من بدء الكارثة، وتفرقت الغيوم بكسل بطيء، وارتفع الضباب فوق الجبال، وهدأت الرياح، ولكن كان كل شيء قد انتهى، فالنعاج التي ولدت، بدت في منظر بائس بعد هذه الأيام من البرد والجوع، حتى أصبح من المرعب النظر إليها، فبالكاد تقف وتسير مترنحة، وبطونها قد غارت تحت أضلاعها فوق قوائم مخيفة.

فأية نعاج هذه، وأمهات مرضعات! ولم يبق من أولاد هذه الأمهات إلا بقية قليلة على قيد الحياة، وعسى أن تعيش حتى ينمو العشب، وتتمكن من الرعي حتى تتحسن صحتها، وعاجلاً أم آجلاً سوف يلحق بها السقم، لأنها لم ترتو من حليب أمهاتها، وسوف تنهيها علة الجوع، التي ألمت بها منذ صغرها، وإذا لم تمت، ستبقى ضعيفة:

لا صوف عليها، ولا لحم...

ما إن هدأت الكارثة، وتحسن الطقس، حتى بدأت مصيبة أخرى، إذ تشكل الجليد السميك فوق الأرض، و يا لهذا الجليد القاسي، يصحو الجو قليلاً عند الظهيرة، وباقي الوقت، يكون برد قارس ورياح قوية، ورغم كل هذا، سُر لهذا تانباي، عسى أن يمنحهم الجو فرصة لتنظيف الزرائب قليلاً، ومن جديد أمسكوا بالعتلة والرفوش، والشاعوب، والحمالة، وشدوا الهمة، علهم ينفذون بعض الأعمال، وخاصة تنظيف الطرق للوصول إلى الزريبة، وخروج القطيع منها من دون مخاضة، لأنه في هذا الوضع من الصعب أن يخطو الإنسان ولو خطوات عدة من دون أن يقع، ولذلك ركزوا عملهم على تحسين وضع الطرق، وحققوا ذلك بصورة جيدة، ثم تحولوا للاهتمام بالخراف اليتامى، وإرضاعهم من النعاج التي فقدت أولادها، وكانت هذه الخراف الصغيرة تفتح أفواهها وتثغو جائعة، وكانت في بعض الأحيان تلتهم أصابع المعاونات، وكأنها تطلب قطرة من الحليب، وعندما يطردها الإنسان بعيداً عنه، كانت على استعداد أن تلتهم كل شيء على الأرض، حتى الأشياء الوسخة، وأطراف معاطف الرعاة، وتركض خلف هؤلاء البشر الآسفين على وضع هذه الخراف الصغيرة، التي ما زالت لا حول لها ولا قوة، إذ يقول لهم الرعاة والمعاونات:

- ماذا سنفعل لكم، فابكوا وتمزقوا حتى تبح حناجركم، فليس بإمكاننا نحن النساء أن نفعل لكم شيئاً، أو هاتان الطفلتان الصغيرتان، هل هما قادرتان على إطعامكم؟ فهما بالكاد تقفان على أرجلهما، وها هما تعملان معنا لبعض الوقت في هذه المعاطف المبللة،

والتي لم تجف خلال أيام عدة. أما تانباي، فلم يتكلم مع الخراف كلمة واحدة، وفقط ذات مرة خرج عن طوره، إذ أخرجت المرأة العجوز الأغنام من الزريبة في منتصف النهار، وأرادت أن تساعد تانباي في الرعي، فخرج هو من اليورتا، وتفاجأ كيف شرعت الأغنام تأكل من صوف بعضها بنهم، وكأنها أصيبت بمرض يصيب الكلاب عندما تجوع، ولا تجد ما تأكله، فتبدأ بنهش بعضها! وأخذت الحمى ما تبقى من عقله، لأن هذا يعني أن الأغنام في القطيع قد أشرفت على الهلاك من الجوع، فركض تانباي وأخذ يؤنب المرأة:

- ماذا أصابك أيتها العجوز! ألا ترين؟ لماذا تصمتين؟ أسرعي! واطردي القطيع، ولا تسمحي للأغنام بالوقوف دقيقة واحدة، ولا تسمحي لأي نعجة أن تنهش صوف نعجة أخرى، فانتبهي حتى تكون الأغنام في حركة دائمة في البحث عن الطعام، وإلا لقتلتك!

وثمة ظاهرة أخرى مؤلمة، فنعجة أنجبت توءمين، وبعد أن عانت من الجوع، أخذت تطرد وليديها، وتهرب منهما، وتدفع بهما بعيداً ولا تسمح لهما بالاقتراب من ثديها، وتضربهما بأرجلها. أما الخراف فلا تفهم هذا، فتقع وتتدحرج، وتثغو بشدة. ويحدث هذا عندما يسود قانون مؤلم جداً، يقوم على الاجتهاد حتى الموت، للحفاظ على الذات أمام الخطر المحدق، ويبلغ هذا القانون أشده عندما تتنكر الأم لأبنائها الصغار الرضع حتى تستمر هي في الحياة لأن جسمها لم يعد في حال يخولها من تغذية الآخرين كانوا من كانوا، وهذه الظاهرة تنتشر في القطيع كمرض معد، ويكفي أن تتصرف نعجة بهذا الشكل وتطرد أولادها حتى تسير بقية النعاج في إثرها وتفعل مثلها. غضب تانباي وقال:

- ساعدوني على أن نبقي هذه النعجة مع توءميها في الزريبة! فهبت ابنته وساعدته على ذلك، ثم أمسك النعجة المتوحشة وثبتها في مكانها حتى يتمكن التوءمان من الرضاعة، وحاولت البنت الكبرى أن ترضع الخروفين، ولكنهما لم يتمكنا، فقالت لأبيها:

- أبي، إنهما لا يقدران على الرضاعة. فأجابها محتداً:

- إنهما يرغبان بالرضاعة، ولكنك لا تعرفين!

كادت الطفلة أن تشرع بالبكاء، وقالت:

- كلا، كيف لا أعرف، انظر، إنهما يقعان من الضعف. فقال تانباي لابنته بهدوء:

- امسكي النعجة، وأنا سأقوم بإرضاعهما!

ولكن من أين للطفلة قوة، حتى تقهر النعجة، وتثبتها في المكان! فمجرد أن وضع الأب حلمات الثدي في فمي الخروفين، وأخذا بالرضاعة، حتى قفزت النعجة وقذفت الطفلة جانباً، وهربت بعيداً. فانفجرت قدرة تانباي على الصبر، فصفع الطفلة على وجنتها، ولم يضرب سابقاً أحداً من الأولاد، ولكن هنا، قد خانته أعصابه. أخذت الطفلة تبكي، وهي تضع يدها على أنفها، أما هو، فقد استدار وغادر غاضباً، وهو يبصق على كل شيء.

سار بعض الوقت حانقاً على كل هذه الأمور، ثم عاد ولم يعرف كيف له أن يطلب السماح من ابنته، أما البنت، فقد ركضت إليه وهي تقول:

- تعال، انظر يا أبي، لقد حنّت النعجة على الخروفين، فأنا وأمي قمنا بكل هدوء بإرضاعهما، وهي لم تعد تطردهما مطلقاً، فأجابها والدها بكل رقة:

- حسناً، إذن هكذا، أنت رائعة يا ابنتي.

وعلـى الفـور حلـت بعـض الأريحيـة في عـالم تانبـاي، وبعـد هـذا المشـهد، كـان مـن الممكـن القـول إن الأمـور أصـبحت تسـير نحـو الأفضل، وعسى أن يتمكنوا من الحفـاظ على ما تبقـى مـن الخـراف، وأن تتعدل الأمور نسبياً. حتى الطبيعة أخذت تتحسـن تـدريجياً! وعسـى أن يحل الربيـع بقوتـه، ويتحسـن نمـو المراعـي، وتنتهـي الأيـام السـوداء، الـتي عاشـها الرعـاة مـع المواشـي في الشـتاء. عـاد تانبـاي لمتابعـة العمـل باجتهاد، وهـو يعـرف جيداً، أنـه بالعمـل، والعمـل وحـده، مـن الممكـن إنقـاذ مـا تبقـى مـن القطيـع، وخاصـة مـن الخـراف الصـغيرة، وتحسـين نتائج الكدح المضني...

على حين غرة جاء العداد الذي يحصـي عـدد المواشـي والأضـرار في القطعان، وهو شاب يمتطـي حصـاناً، وبعـد أن ترجـل، أخـذ يسـأل، ماذا، وكيف جرت الأمور، وهنا كـاد تانبـاي أن يشـتم أم هـذا الشـاب بأسوأ الكلمات، ولكن من هو هذا الشاب... فسأله تانباي بامتعاض؟

- أين كنت قبل الآن يا أستاذ؟ فأجابه الشاب:

- كيـف أيـن؟ كنـت في جولـة مـن قطيـع إلى آخـر، فأنـا أعمـل وحدي، ولا أستطيع أن أحصـي القطعـان بفـترة قصـيرة، فسـأله تانبـاي بهدوء:

- وكيف الأمور عند الآخرين؟

- ليس بأفضل مما هي عندكم، فخلال هذه الأيام الثلاثة، قد حصلت الكثير من الخسائر، فسأله تانباي:

- وماذا يقول الرعاة؟ فأجاب الشاب:

- ماذا سيعملون، إنهم يشتمون، والبعض منهم لا يريدون الإجابة عن أي سؤال، ولا التحدث، ولا يرغبـون بـالكلام، فعلـى سـبيل المثـال بيكتاي، فقد قام بطردي من أمام بيته. يسير غاضباً، يتخبط حانقاً،

فهو خارج عن طوره، فمن الصعب أن تقترب منه، وتتحدث معه بكلمة واحدة، فأجاب تانباي قائلاً:

- نعم، م، م. لم يكن لدي لحظة أتنفس فيها، حتى أذهب إلى ذلك السافل، ولكن ربما أجد الوقت، وسأذهب إليه، وأريه! أما أنت فماذا تريد؟ فأجاب الشاب بهدوء:

- ماذا، أنا؟ إنني أقوم بعملية إحصاء، فسأله تانباي:

- وماذا بخصوص المعونات، فهل سيأتينا شيء ما؟ فأجاب الشاب:

- ستكون معونات، إذ يقال إن تشورا خرج إلى العمل، وأرسل قافلة من العربات محملة بالتبن والقش اليابس من محطة الخيول، ويقول من الأهون أن تنفق الخيول، ولا تنفق الأغنام، ويقال إن القافلة قد تعطلت بسبب الظروف الطبيعية في مكان ما على الطريق، وأنت ترى حالة الطرق! فأجاب تانباي:

- الطرق! وبماذا كانوا يفكرون سابقاً؟ دائماً هكذا تمر الأمور عندنا، وهذا ما تعاني منه القافلة، فأين الحل؟ وعاد تانباي يرفع صوته وهو يهدد، سأجد الوقت المناسب حتى أصل إليهم! فلا تسألني عن شيء، فقم بالإحصائية، التي ترغب بها، وسجل ما تريد، فالأمر بالنسبة لي سيان! فاستدار تانباي، وذهب ليتابع أعماله في الزريبة، ويساعد في توليد النعاج، إذ ما زال هناك خمس عشرة نعجة ستلد قريباً، فتجول تانباي ذهاباً وإياباً، وهو يطلع على أوضاع الخراف. فجأة لاحظ وجود العداد، وهو يقدم له ورقة قائلاً:

- أرجو أن توقع على التقرير، وهو إحصاء النعاج والخراف النافقة.

وقع تانباي بشدة من دون أن ينظر إلى الأرقام، وضغط على قلم الرصاص، حتى انكسر بين أصابعه.

- إلى اللقاء أيها العم المحترم، وهل عندكم ما تريدون أن ترسلوه معي؟ قولوا. فرد تانباي:

- لا شيء عندي للقول، ولكن في طريق العودة، أبلغ بيكتاي، أنني سأكون عنده يوم الغد عند الظهر.

كان بإمكان تانباي أن لا يرسل رسائل إلى بيكتاي، فهو ذاته قد ظهر من دون دعوى، والأهم كيف جاء...

في تلك الليلة اشتدت الرياح ثانية، وتساقطت الثلوج، ولكنها كانت خفيفة، ولم تشكل سماكة على الأرض، وعند الفجر أصبحت الأرض بيضاء، ولذلك انتشرت الأغنام في الزريبة، وكانت كل نعجة تنفض نفسها من الثلوج العالقة بها، وبقيت طوال الليل واقفة على قوائمها، ولم تستلق مطلقاً، وبعد قليل، تجتمع النعاج في كومة، وتقف مكتظة من دون حراك، حتى تشعر بالدفء، وهكذا امتد الشتاء طويلاً من دون علف للحيوانات، وحاول الربيع نشر جوه، ولكن الشتاء لم يسمح له بذلك ببساطة، ولذلك تأخر الربيع، وحرمت المواشي من الرعي.

ففي الزريبة، عم الصقيع، وكان الثلج يتساقط من فوق الأسطح على شكل زوابع من خلال النور الخافت للمصابيح، وينزل إلى ساحة الزرائب، على شكل دوائر تتراقص في الفضاء، ثم تنزل بهدوء لتستقر فوق صوف الأغنام من أمهات وخراف، أما تانباي فقد كان يدور بين الأغنام، وينفذ مهمته على أحسن وجه، كالمقاتل الذي يعمل في مجموعة الدفن في أرض المعركة بعد التعرض للقصف. لقد تعقد تانباي من هذه الأفكار القاسية والثقيلة حتى تحول الاحتجاج والعنف عنده، إلى حالة من الصمت والاكتئاب الخانق، وكانت هذه المسألة «كالإسفين في روحه» الذي لم يسمح له أن ينحي. كان يسير

متخبطاً في البرك ومستنقعات الزبل بجزمته، فلقد قام بعمله، وها هو يتذكر بقايا صور من حياته في ساعات الليل هذه...

في صغره عندما كان ولداً مساعداً لراع، أخذ يرعى مع أخيه كولوباي الأغنام عند أحد أقاربهم، فمضت سنة كاملة، وتبين أنهما قد عملا مقابل إطعامهما فقط، فغضب صاحب الأغنام ولم يرغب بالكلام معهما، وهكذا غادر الأخوان مشياً على أرجلهما النحيفة، وعلى ظهريهما كانت تلوح قماطرهما الخاوية، وهكذا سار الأخوان فارغي الأيدي، وعندما غادر تانباي التفت إلى صاحب الأغنام وهدده: «سوف أذكرك بهذا فيما بعد، عندما سأكبر» أما كولوباي فلم يقل شيئاً، وكان هو الأكبر بخمس سنوات تقريباً، وكان يعرف أنك بهذا التهديد لا تخيف صاحب الأغنام، أما أن تصبح سيداً لعملك، وتملك المواشي كما تملك الأرض، فهذا أمر جيد، ويخلصك من الاستغلال «عندما سأكون صاحب ماشية، لن أستغل العامل» هكذا كان يتكلم مع نفسه آنذاك، وهكذا تفرق الأخوان في تلك السنة، فذهب كولوباي يعمل راعياً عند باي آخر، أما تانباي فقد غادر إلى ألكسندروفسك، وأخذ يعمل عاملاً زراعياً لدى أحد المهاجرين الروس يفريموف، ولم يكن هذا الرجل من الأغنياء جداً، فهو يملك زوجاً من الثيران، وزوجاً من الخيول، وأرضاً صالحة للزراعة.

كان يحب زراعة القمح، وعند الحصاد ينقل القمح إلى مطحنة فالتسوف في مدينة أولي آتا، ويعمل هذا المالك من الصباح حتى المساء، أما تانباي فقد كان يسير خلف الثيران والخيول في حراثة الأرض. كان هذا الملاك صارماً ولا يمتنع عن دفع الحق لصاحبه، ويناصر أي إنسان مظلوم.

وفي تلك السنين، كان فقراء القرغيز من خلال تجاربهم على

مـر العصـور، يفضـلون العمـل عنـد الملاكـين الـروس، وتعلـم تانبـاي الـتكلم باللغـة الروسـية، وكـان يـذهب مـع قافلـة العربـات إلى مدينـة أولـي آتـا، ولم يـر النـور إلا قليلاً هنـاك، وبعـد مـدة مـن الـزمن، قامـت الثورة، وقلبت كل شيء رأساً على عقب، وجاء عصر جماعة تانباي.

عـاد تانبـاي إلى القريـة، وبـدأ حيـاة جديـدة شملـت كـل شـيء، وعصـفت في الـرؤوس بـدوران سـريع، وجـاء كـل شـيء دفعـة واحـدة- الأرض، الحرية، الحقوق للعمال والفلاحين، ولقد تم انتخاب تانباي في لجنة الفلاحين، وتعرف إلى تشورا في تلك الآونـة، وكـان شـاباً واعيـاً، وقام بتعليم الشباب القـراءة والكتابة، وكـان مـن الضـروري أن يتعلم تانبـاي، وخاصـة لأنـه مسـؤول عـن الفلاحـين، ثـم دخـل إلى منظمـة الكومسـومول، وهنـا كـان في وحـدة متكاملـة مـع تشـورا، وكـذلك دخـلا معـاً إلى صفوف الحـزب، وكـل شـيء سـار علـى مـا يـرام، وأخـذ الفقـراء يسـتلمون المناصـب القياديـة، وعنـدما بـدأ العمـل في تنظـيم التعاونيـات، اجتهـد تانبـاي بكـل مـا لديـه مـن قـوة في العمـل لإنجـاح التعاونيات، فمن يهتم بهذا أكثر منه، وهو الأحق في النضـال مـن أجـل الحيـاة الجديـدة للفلاحـين، وحتـى يكـون كـل شـيء جماعيـاً تعاونيـاً: الأرض، الماشـية، العمـل، الآمـال والآلام، وليسـقط الكـولاك (الإقطـاعيون)! ولقـد عصـف الـزمن بـدورات سـريعة كزوبعـة الهـواء في السـهوب، ففـي النهـارات فـوق السـرج، وفي الليـل في الاجتماعـات والمـؤتمرات، تم تنظيم قـوائم إحصـائية بأسمـاء وأعـداد الإقطـاعيين في المنطقة، والبايات والدايات، وغيرهم من الأغنياء، وتم اجتثاثهم، كما يتم اجتثاث الأعشاب الضارة من الأرض، وكـان مـن الضـروري تنظيـف الأرض حتى تنتج مواسم جديدة، ومن بين الإقطاعيين، الذين كـان من الضروري مصادرة أملاكهم، كـان أخوه كولوبـاي، وفي الوقـت الـذي

كـان الأخ الأصـغر تانبـاي يناضـل مـن أجـل النهـوض بـالثورة مـع رفاقـه وحضور الاجتماعات والمؤتمرات، كان الأخ الأكبر قد جمع ثروة لشـق طريقه في الحياة مع الناس. تزوج من أرملة، ونظم بيتاً وملكية، وتربيـة حيوانات (أغنام وبقرة وحصانان وفرس حلابة مع مهر صغير)، محراث، سكك فولاذية، وكل ما يلزم للفلاح، وعند الحصاد كان يستأجر العمال الموسميين، ومن غير الممكن القول إن كولوباي قد أصبح غنياً، ولكن لم يعد فقيراً، وكان يعيش قوياً، ويعمل بثقة واجتهاد.

في اجتمـاع مجلس الريـف عنـدما وصـل الـدور لبحـث موضـوع كولوباي، قال تشورا:

- تعالوا أيها الرفاق نفكر جدياً هنا، هل سنصادر أملاكه، أم لا. هؤلاء من أمثال كولوباي يلزمون للعمل في الكولخوز، فهو ذو منبت طبقي فقير جداً، ولم يقم بأي عمل دعائي عدواني ضد الثورة.

تحـدث الموجـودون بـآراء مختلفـة. الـبعض كـان مـع، والـبعض الأخر ضد، والكلمة الأخيرة الفاصلة كانت لأخيه تانباي، أما تانباي فقد جلس نافشاً ريشه كالغراب.

وبغض النظر عن أنه أخ من أبيه فقط، فهو أخ على أي حال، وكان عليه أن يتخذ موقفاً ضد أخيه، ولقد عاش الاثنان معاً بسلام، وبحكم العمل، كانا نادراً ما يلتقيان، فكل منهما كان مشغولاً بأعماله، وإذ قال تانباي: - لا تعاقبوه، فكيف سينظر الآخرون له؛ فلكل إقطاعي أو ملاك كبير، يوجد من يدافع عنه، أو قريب له، وإذا قال: قرروا بأنفسكم؛ فسيفكر الرفاق به سوءاً، وأنه يخبئ نفسه بين الشجيرات والحشائش.

كـان النـاس ينتظـرون مـا سـيقوله تانبـاي، وخـلال هـذه الـدقائق من الشك والانتظار، تنامى فيه شعور قسوة وعنجهية، وقال واقفاً:

- أنت يا تشورا، دائماً تتصرف هكذا! في الصحف يكتبون عن أولئك أنهم أناس الكتب، ويسمونهم بالمثقفين، وأنت أيضاً مثقف كواحد منهم، ودائماً تشك وتخاف، وكيف تقول كلمة ما، وتحسب نتائجها، فلماذا هذا الشك؟ فطالما هو في قائمة المصادرة أملاكهم، فهذا يعني أنه كولاك! ولا تجوز الشفاعة له! ومن أجل السلطة السوفييتية، عليّ أن أقف ضد أبي، إذا كان مخطئاً، أما بخصوص أخي، فلا تخجلون من قول ما في خواطركم بصراحة، فإذا لم تقوموا أنتم بنزع الأملاك منه، فأنا سأقوم بذلك.

جاء كولوباي إليه في اليوم الثاني، فاستقبل تانباي أخاه استقبالاً بارداً، ولم يصافحه باليد، فسأله كولوباي:

- لماذا تمت مصادرة أملاكي؟ ألسنا أنا وأنت من كنا نعمل أجراء في حقول الملاكين؟ ألا تذكر كيف طردنا البايات من الساحة؟ فأجابه تانباي:

- كل هذا ليس له أهمية في الوقت الحاضر، فأنت بالذات أصبحت باياً، فاعترض كولوباي قائلاً:

- أي باي أنا؟ فهذا نتيجة عملي، كنت أجمع القروش قرشاً، قرشاً، وعلى أي حال، أنا لا أتأسف على شيء، خذوا ما ترغبون به، خذوا كل شيء، ولكن لماذا قمتم بجري في الشارع بالقوة؟ ألا تخاف الله يا تانباي؟!

- الأمر لا يهمني، فأنت من طبقة عدوة، وعلينا أن نصادر ملكيتك، وملكيات أمثالك حتى نبني الكولخوز، فأنت تقف في طريقنا، وعلينا أن نبعدك عن الطريق...

هذا كان الحديث الأخير بينهما، وقد مضى على هذا عشرون عاماً، ولم يقل واحد للآخر كلمة السلام عليك، وعندما نفوا

كولوباي إلى سيبيريا، كثرت الأحاديث عن هذا، ووجهت الكثير من الاتهامات إلى أخية تانباي، ومنهم من وقف ضد تانباي، والقسم الآخر وقف إلى جانبه.

لقد قيل الكثير، وثرثر كل واحد على طريقته، وانتشرت حكاية أنه عندما قادوا كولوباي من القرية تحت حراسة اثنين من شرطة الخيالة، خرج مطأطئ الرأس، ولم ينظر إلى أية جهة، ولم يودع أحداً كان، وعندما ابتعدوا عن القرية، ساروا في طريق عبر الحقول، فشاهد كولوباي القمح وقد نما بقوة ونظارة، فركض إلى القمح، وأخذ يقلعه من جذوره، وكان هذا أول موسم يزرعه الكولخوز من بين المزروعات الشتوية، وداس بجنون سنابل القمح برجليه كيفما استطاع، وبوحشية نادرة. وروي أن الحراس لم يؤذوه، بل قاموا بسوقه إلى الأمام، وعندما خرج من القمح، أخذ يبكي بمرارة وهو يلعن ويشتم تانباي، فلم يصدق تانباي هذه الحكاية، واعتبرها فتنة من جانب الأعداء، إذ يريدون الانتقام منه، بتصعيد الخلاف بينه وبين أخيه. فليأخذهم الشيطان حيثما شاء، ولم يعرهم أي اهتمام، وكان قد مل من الحوار والنقاشات معهم.

وقبل الحصاد بقليل، قام بالاطلاع على الأراضي، وتنعم برؤية القمح وهو في أحسن حال، إذ كان أفضل بكثير من عدة سنوات مضت، وكانت السنابل تتفاخر بجمالها الواحدة أمام الأخرى، وكشف عن ذلك المكان من الحقل الذي تكلموا عنه، أن كولوباي قد داس السنابل، وكسر بعضها، وقلع بعض عروق القمح الفريك من جذوره، ومن حوله كان القمح يتمايل كموج البحر، وهنا شاهد زاوية مهشمة، وكأن ثوران قد تعاركا عليها، واعتلت فوق القمح المهشم أعشاب القاقلي، (الغبيرة)، وعندما شاهد تانباي هذا، شد

سرج حصانه، وهو يقول ويهمس حانقاً والشر يملأ قلبه:

- آه، يا لك من وغد! لقد تطاولت يدك على قمح الكولخوز. هذا يعني، أنك إقطاعي حاقد، ومن تكون بعد هذا التصرف...

وقف في هذا المكان طويلاً، وهو فوق صهوة حصانه، صامتاً وحانقاً كئيباً، والأفكار الثقيلة تتعاقب في عقله، وتتقلب في حدقتي عينيه، ثم استدار بحصانه وانطلق من دون أن ينظر إلى جهة ما، وخلال مدة من الزمن، كان يبتعد عن هذا المكان، حتى لا يراه ثانية قبل الحصاد، وبعد الحصاد، تساوى السهل تحت حوافر وأظلاف الحيوانات المختلفة.

قليل كان عدد الناس الذين تعاطفوا مع تانباي، وتفهموا موقفه، والأكثرية قد أدانته، وتمنوا أن لا يكون عند الإنسان أخ مثله، ومن الأفضل أن يكون بلا أقارب؛ وآخرون عبروا عن رأيهم مباشرة، وقذفوا الحقيقة المرة في عينيه. نعم، ويجب القول بصراحة، لقد ابتعد الناس عنه في تلك الآونة، ولكن ليس بصورة صريحة ومباشرة، واتضح ذلك، عندما رشح تانباي نفسه للانتخابات، فلم يمنحه الناس أصواتهم كما يجب، وهكذا، وبالتدريج خرج من قيادة الكولخوز، وكان يتسلح في تصرفه هذا، أن الإقطاعيين قد حرقوا الكولخوزات، والآن يطلقون النار على القيادات، ولكن الكولخوز قد صمد، والأعمال بدأت تتحسن من سنة لأخرى، وبدأت الحياة تسير أفضل من قبل. كلا، لم يكن من الخطأ والعبث ما حدث آنذاك.

لقد تذكر تانباي كل ما كان آنذاك. حتى دقائق الأمور والقضايا، وكأن حياته كلها قد بقيت هناك في تلك المرحلة العجيبة، عندما كانت الكولخوزات تسير في خط بياني صاعد، ومن جديد عاد ليتذكر أغاني تلك المرحلة عن «بطلة العمل في منديل

أحمر» وتذكر أول حصادة آلية قُدمت إلى الكولخوز، وكيف وقف إلى جانبها طوال الليل وهو يحمل العلم الأحمر.

تجول تانباي طوال الليلة في الزريبة وحولها، إذ قام بخدمته الصعبة، وهو يفكر بتلك الأفكار المرة التي تصارعت في رأسه. لماذا الكل الآن يدخلون إلى داخل الإنسان عبر جروحه؟ وربما قد أخطؤوا، ولم يسيروا عبر الطريق الصحيح؟ كلا، هذا غير صحيح، لا يجب هكذا! بل بشكل آخر! فالطريق كان صحيحاً، فما يكمن خلف الأكمة؟ هل أخطؤوا الاختيار، وتاهوا عن الطريق الصحيح؟ متى وكيف حصل هذا؟ وحتى المسابقات الاشتراكية، أخذوا يضعونها تحت بند الواجبات، ولم يعد يهتم أحد بوجودك هنا، ولماذا أنت هنا وماذا حل بك، وسابقاً كانت اللوحات الحمر والسود، وفي كل يوم، كانت تجري الأحاديث حولها مع كثير من النقاشات: البعض إلى جانب اللوحة الحمراء، والبعض مع اللوحة السوداء كان هذا مهماً للناس، أما الآن فيقولون، إن كل هذا، قد أصبح من الماضي، وأكل الزمان عليه وشرب، فماذا من بديل؟ أحاديث فارغة، ووعود براقة، وفي واقع الأمر لا شيء. لماذا هكذا؟ فمن هو المخطئ بهذا؟

تعب تانباي من هذه الأفكار التي لا أساس لها، وغياب الاهتمام والمبالاة، وهنا خيم عليه اليأس والبلادة في التفكير، أما العمل فقد أخذ يتبعثر بين يديه، ورأسه يتصدع ألماً. أراد أن ينام، فشاهد كيف كانت المعاونة الشابة قد التصقت بالجدار، وكيف تورمت عيناها الملتهبتان، ولم تعد قادرة على الرؤية بهما، وكيف كانت تتصارع مع النوم الذي هجر عينيها، وكيف نهضت بهدوء مستندة إلى يديها بحذر، وأخذت تزحف ثم جلست على الأرض، وخلدت للنوم بعد أن استندت برأسها إلى حلقات اليورتا، فأدرك أنها

نامت فلم يحاول إيقاظها بعد ذلك. أما هو فقد انحنى إلى الجدار، وأخذ ينزلق بالتدريج، ولم يستطع أن يفعل شيئاً مع تلك المآسي الثقيلة التي هبطت على كتفيه، وكادت تكسر ظهره، وأحنته إلى الأسفل.

استيقظ على صوت صراخ مخنوق، وثمة شيء ثقيل قد وقع على الأرض من دون أثر، وهنا قفزت الأغنام من مكانها وركضت، وأخذت تدوس بأظلافها رِجلي تانباي، فنهض على عجل من دون أن يفهم شيئاً، وماذا حل في الأمر، وبعد لحظة تمالك أعصابه، فسمع ضجيج الماء يتساقط بغزارة من فوهة في سقف الزريبة، فجاء صوت جايدار مستنجدة:

- أسرع، أسرع يا تانباي، ساعدني.

فهرعت إليها المعاونات، أما هو فركض في إثرهما يتفحص ما في الأمر، فإذا بلوح من الخشب، قد وقع عليها من السقف، إذ سقط جانب منه، فانزلق لوح أخر، وهوى على جايدار، وهكذا لم يعد للنوم مكان، إذ طار من عيون الجميع، فصرخ تانباي بأعلى صوت:

- ماذا حدث لك يا جايدار؟ فوضع كتفه على الفور تحت اللوح الخشبي، وأخذ يرفعه عن جايدار، حتى حررها من ضغطه، وهربت وهي تتأوه، وأخذت المعاونتان تتفحصان ما ألمّ بها من جروح، فدفعهما تانباي جانباً، إذ أصابه الهلع خوفاً على زوجته عندما لاحظ أنهما في وضع ارتباك وخوف، فقام بتفحصها، ووضع الفروة فوقها، وهو يسألها:

- ماذا حل بك؟ أخبريني، ماذا؟

- أوي! ظهري! ظهري! فسألها تانباي قلقاً، وقذف بالمعطف إلى الأرض:

- هل وقعت عليك؟ تجاوبي معي! وهنا اقتربت المعاونتان،

ووضعتا جايدار على ظهره، وهكذا أخرجوها إلى اليورتا.

تبين عندما تفحصوا جسمها جيداً في الخيمة، أنه لم يتضح لهم أي جرح خارجي، ولكن هناك ثمة كدمة قوية، حتى جعلتها تعجز عن الحركة، فأخذت جايدار تنحب قائلة:

- ماذا سنعمل الآن في هذا الوقت العصيب، وأنا على هذا الوضع، وكيف ستتعذبون أنتم بدوني!. فأخذ تانباي يضرب رأسه، ويقول:

- آه، يا إلهي! - وأول ما شكر الله عليه: «حسناً أن زوجتي قد بقيت على قيد الحياة، أما هي، فبماذا تفكر؟ إنها قلقة على حالنا، فلتذهب كل هذه الأعمال إلى الشياطين كلها! ويكفيني أن تكوني بصحة جيدة يا زوجتي المسكينة...».

أخذ يمسح بيده على رأسها بحنان، وهو يقول:

- ماذا بك يا جايدار، أرجو أن تهدئي! وأتمنى فقط، أن تقفي على رجليك، وكل ما عدا ذلك شيء تافه، فنحن سنقوم بالعمل...

أخذ الجميع بعد أن تمالكوا أعصابهم، يطمئنون جايدار ويقنعوها بأن كل شيء سيكون على ما يرام، والمهم أن تهتم بصحتها، وهنا، وبفضل هذا الدعم المعنوي النفساني، أصبح وضع جايدار أفضل حتى إنها ابتسمت من خلال الدموع المتدحرجة، وقالت:

- لا بأس، لا تحزنوا، ولا تخافوا، فهذا ما حصل، ولن أطيل النوم في الفراش، فبعد يومين سأنهض، وسترون إنني على حق.

أخذت النسوة تحضرن لها فراشاً نظيفاً، ويشعلن النار بالقرب منها، أما تانباي فقد ذهب إلى الزريبة، وهو لم يصدق أن هذه الإصابة قد مرت بسلام.

بزغ الفجر، وظهر الصباح في ثوب ثلجي ناصع البياض، وفي

الزريبة وجد تانباي نعجة قد أصابها لوح الخشب الذي وقع من السقف، ولم تلاحظ النسوة هذه النعجة التي نفقت على الفور، أما ابنها الرضيع، فكان يمتص ثدي أمه بلا جدوى، ويضغط بفكيه علّه يجد قطرة من الحليب، وهو لا يدري أن الحليب قد انتهى مع موت أمه والذي أدهش تانباي أكثر هو أن هذا اللوح الخشبي الذي قتل النعجة كان من الممكن أن يقتل زوجته، ولهذا سر جداً، إذ كانت النعجة بمثابة الضحية عن زوجته، وكان هذا الأمر أكبر عيد بالنسبة إليه، فأخذ الخروف اليتيم، وذهب يبحث له عن نعجة تروم عليه من بين النعاج الثكالى، ثم وضع دعامة تحت هذه العارضة، ورفعها من جانب آخر على الجدار، ثم ذهب على عجل إلى زوجته، حتى يطلع على وضعها، وهو لا يصدق أنها مازالت على قيد الحياة.

خرج من باب الزريبة، وفجأة شاهد على مسافة قريبة قطيعاً من الأغنام وهي تسير ببطء فوق الثلج، وثمة راعٍ جديد قد ساق القطيع إلى تانباي، فأخذ يفكر، ما وراء هذا القطيع؟ ولماذا يقوده إلى هنا؟ وفي حال اختلط القطيعان، فمن الصعب فرزهما عن بعض، وهل هذا شيء ممكن؟ فذهب تانباي ليحذر هذا الراعي الغريب أنه قد دخل إلى منطقة ليست له.

عندما اقترب من القطيع، وجد أن الراعي هو بيكتاي.

- إيه، بيكتاي، هذا أنت يا ترى؟ - فاستغرب تانباي، وأخذ يتسأل: لماذا يضرب النعاج الحاملة بالعصا هكذا!

أما بيكتاي فلم يجب بشيء، واستمر بسوق القطيع نحوه، فعاد تانباي يسأله:

من أين قدمت أنت؟ وإلى أين تسير؟ وعلى كل حال، مرحباً.

فأجاب الراعي قائلاً:

- إنني من هناك، والآن لم أعد من هناك، أما أنك تسألني إلى أين، فأنت ترى بأم عينك. اقترب بيكتاي منه، وهو يشد العروة المربوطة بزناره وأكمامه حتى يحافظ على الدفء تحت المعطف، ويمسك عصاً بيده.

كان الراعي يمسك العصا خلف ظهره، فتوقف على مسافة خطوات عدة ، ولكنه لم يسلم، وكان الشر واضحاً على وجهه، وبحركة فيها شيء من الشر، داس على بصقته التي قذف بها على كومة الثلج وهز رأسه غاضباً. لقد كان أسمر لدرجة السواد، وشعر رأسه قد طال، ونمت لحيته، وكأن هذه اللحية قد ألصقت إلى وجهه الشاب الجميل، أما عيناه فقد كانتا تنظران من تحت حاجبيه بكراهية وتحدٍ، فبصق مرة أخرى، وهو يهتز غضباً، وأمسك العصا، وأشار بها إلى القطيع، وهو يقول من بين أسنانه:

- استلم الأغنام. وإذا رغبت، قم بعدها، وإذا لم ترغب، فكما تريد، فإن مجموعها، ثلاثمئة وخمس وثمانون رأساً. فسأله تانباي:

- وماذا تقصد بهذا الكلام؟ فأجابه الراعي:

- إنني مغادر. فسأل تانباي:

- وكيف هذا! إنني أغادر؟ - فإلى أين؟ فأجاب الراعي:

- إلى أي مكان كان. - فسأل تانباي:

- وأنا ما علاقتي في هذا الأمر؟ - فأجاب الراعي:

- لأنك أنت تعتبر رئيسي المباشر، واستدار مغادراً.- فقال تانباي:

- وماذا يعني هذا؟ توقف، توقف، أنت إلى أين؟ فإلى أين أنت مغادر؟ وفقط في تلك اللحظة، فهم تانباي ما أراد أن يقوله الراعي التابع له، وكاد أن يختنق من الدم الذي صعد إلى رأسه بغزارة،

وشـكل ضـغطاً غـير معقـول فكيـف هـذا؟ همـس تانبـاي كمـن فقـد عقله، فقال الراعي:

- يكفيني عـذاباً، فلـم أعـد قـادراً علـى التحمـل أكثـر، لقـد ضجرت حتـى الأخير، وشـبعت حتـى الحنجـرة مـن هـذه الحيـاة اللعينـة، فأجاب تانباي:

- نعـم، ولكـن هـل تفهـم مـاذا تقـول؟ فـالقطيع باسـتلامك اليـوم قبل الغد! فكيف تقول ما تقول، وتتصرف هكذا؟ فأجاب الراعي:

- بـالطبع ممكـن، طالمـا أنـتم تتصـرفون معنـا هكـذا، فكمـا تـرون أن الأمـور ممكنـة بالنسـبة إلـيكم، نحـن يمكننـا أن نتصـرف كما نشاء أيضاً، فإلى اللقاء، وهذا القطيع باستلامك! ورفع بيكتـاي العصـا فـوق رأسـه، ولـوح بهـا دورات عـدة، وقـذفها بعيـداً بقـدر استطاعته، وغادر على عجل.

حـاول تانبـاي أن يتمالـك أعصـابه حتـى أصـبح يشـعر وكأنـه مخـدر، ولم يجـد الكلمـات المناسـبة، بينمـا كـان بيكتـاي يسـير مـن دون أن يلتفت للخلف، فهرع تانباي يركض خلفه ويناديه:

- إيـه، يـا بيكتـاي، توقـف وفكـر بعقلـك! لا يجـوز هكـذا، ففكر بنفسك ماذا تعمل! هل تسمعني؟ فالتفت بيكتاي بحدة وقال:

- اتـركني وشـأني، فأنـت اقترحـت سـابقاً، وعليـك أن تفكـر الآن، أمـا أنـا، فأريـد أن أعـيش كمـا يعـيش النـاس، ولسـت أسـوأ مـن الآخـرين، فأنـا أيضـاً بإمكـاني أن أعمـل في المدينـة، وأن أحصـل علـى مرتب شهري، ولمـاذا علـيّ أن أعمـل هنـا، وأنتحـر مـع هـذه الأغنـام؟ مـن دون علف، ومن دون مأوى فوق رأسي، ومن دون حظائر لحماية الأغنـام من الموت، كفى! اتركني وحالي، واذهب واعمل كمـا تشـاء، وقطّـع نفسـك لعـدة أقسـام كمـا تشـاء، واغـرق نفسـك في الزبـل، وانظـر إلى

حالك، فمن أصبحت تشبه، ستموت هنا قريباً، وهل هذا قليل بالنسبة إليك، وما زلت تقوم بتوجيه النداءات، وتريد أن تجر الآخرين خلفك، كلا، فهذا غير ممكن! يكفي ما قدمته حتى هذا الوقت! وتابع طريقه وهو يطأ الثلج الأبيض النظيف قبل غيره، وكان أثر وقع خطاه فوق الثلج، يمتلئ بالماء فوراً... فلحق به تانباي منادياً بهدوء:

- توقف يا بيكتاي، واسمع ما سأقوله لك! وسأشرح لك كل شيء. فرد بيكتاي:

- اشرح لغيري، وابحث عن مجانين! فقال له تانباي منذراً:

- توقف يا بيكتاي سنتحدث.

أما بيكتاي، فقد سار غير راغب بالاستماع. عند ذلك قال له تانباي محذراً:

- إنك ستحاكم على تصرفك هذا! فأجاب بيكتاي بغضب، ولم يعد يلتفت مطلقاً:

- من الأفضل أن أحاكم، على أن أبقى هكذا! فقال له تانباي:

- أنت مخرب!

أما بيكتاي فلقد تابع سيره، فهدده تانباي قائلاً:

- في أيام الحرب، كنا نعدم على الفور من يتصرف مثلك الآن!

تابع بيكتاي سيره من دون أن يعيره أي اهتمام. فكرر تانباي:

- أقول لك توقف! - وأمسكه من كم معطفه، فنزع بيكتاي يده بحدة، وسار من دون أن يلتفت إلى تانباي، فغضب الأخير، واقترب منه وهو يمسكه من كتفه بحدة، قائلاً:

- لن أسمح لك بهذا، فأنت لا تملك الحق أن تغادر!

فجأة، لمعت السلسلة الجبلية البيضاء في عيني تانباي، وغابت

في الضباب، بعد أن وجه بيكتاي له ضربة مفاجئة تحت حنكه، ورماه على الأرض.

بقي تانباي على الأرض فترة، وعندما حاول الوقوف، شعر بالدوران في رأسه، وأخذ يترنح في مكانه. نظر في أثر بيكتاي، فكان قد اختفى خلف التلال.

ومشت خلفه أثار وقع قدميه القاتمة.

- اختفى الشاب، اختفى كلياً. - أخذ تانباي يئن، وهو يقف مستنداً إلى يديه اللتين تلطختا بالوحل والثلج.

التقط تانباي أنفاسه، ثم ذهب وجمع قطيع بيكتاي، وساقه إلى الزريبة.

17

انطلق خيالان يركبان حصانين من القرية متجهين إلى الجبال. أحدهما يركب على حصان أشقر، أما الآخر، فعلى حصان كميت. أما ذيلا الحصانين، فقد كانا مربوطين بعقد يصعب حلها؛ إذ كان الطريق أمامهما طويلاً، والوحل في كل مكان مخلوطاً بالثلج، وحوافر الخيل تغرق عميقاً، وعندما تخرج من الوحل، تنفض قطع الوحل بعيداً، وفي مختلف الجهات.

سار غولساري في المقدمة، رغم أن الخيال كان يشد مقوده حتى النهاية، إلا أن الحصان كان يرغب بمزيد من السرعة، لأنه بقي مربوطاً فترة طويلة خلال مرض تشورا، أما الخيال الآن الذي فوقه، ليس صاحبه الأول، ولا الثاني، وهو إنسان غير معروف بالنسبة إليه. كان يرتدي معطفاً شتوياً صنع من الجلود الطبيعية، وفوق المعطف، كان يلبس رداءً مشمعاً واقياً من المطر، ومن خلال ثيابه، فاحت رائحة عطور وكماليات. أما تشورا فقد كان على حصان آخر إلى

جانبه، إذ تنازل تشورا عن حصانه لزميله القادم من مركز المنطقة. أما بالنسبة لغولساري فالأمر عنده سيان من يركب صهوته، ومن تلك الأيام بعد أن أخذوه من قطيع الخيل، ومن صاحبه القديم تانباي، ركب عليه أناس متنوعون - خيرون وأشرار، مُريحون فوق السرج، أو ثقيلو الوزن، وحتى إن غولساري قد عانى من الأيدي الخشنة، وقاسية المعاملة. آه، يا لها من أياد قاسية ومجنونة بالنسبة إليه! فيعدون على الحصان بأقصى سرعة، وفجأة يوقفونه كلياً، ثم يجبرونه على الوقوف على رجليه إلى الأعلى، ومن جديد يضربونه لينطلق بسرعة خيالية، ومرة أخرى يوقفونه كلياً من دون أية حركة، والحصان لا يعرف ماذا يفعلون به والذي يهمهم، هو أن يراهم الناس يركبون فوق الحصان الشهير الرهوان غولساري، أما هو فقد تعود على كل هذا، وكل ما يهمه أن لا يقف بلا حركة في الإسطبل، فهذا أمر مضجر ومزعج بالنسبة إليه.

لقد حافظ غولساري على تلك الميزة الأساسية في عالم الخيول الأصيلة، وما زالت تشتعل فيه تلك النزعة الغريزية كباقي الخيول المشهورة، أن يكون دائماً في المقدمة عند المسير العادي، ورافع الرأس في مقدمة الخيول عند السباق، فإن السير بسرعة والعدو والركض هي من الصفات الأساسية التي يحبها ويعشقها، ويحبها في خياله، إذ كان يتفاخر بالحصان الذي يركبه، وعندما قدموا غولساري إلى المدير الجديد، أرادوا أن يعبروا عن احترامهم له، وكرم الضيافة، حيث يوجد مثل قديم: «من أقدس المقدسات عند الفارس الشجاع، الزوجة، والفرس، والبندقية»، وإذ كان مسؤولاً، فهذا يعني أنهم يحترمونه ويخافون منه، وعندما ركب المدير الجديد الحصان غولساري لأول مرة، شعر بعظم الهدية التي قدمت له من قبل تشورا،

فيا لـه مـن حصـان قـوي وجميـل هـذا الغولسـاري، فالخيـال فوقـه يشـعر بنفسه أنه في أوج عزه وراحته وأمانه.

في هـذه المـرة كـان الخيـال فـوق الرهـوان سـيغيزبايف - المـدعي العــام في المنطقــة، وتم إرســاله إلى الكـولخــوز كشــخص مفــوض الصـلاحية، ورافقـه المسـؤول الحزبـي في الكولخـوز آنـذاك، تشـورا- وهذا يعني أن المدعي العام قد نـال احترام المستقبلين لـه، إلا أن تشـورا قد التزم الصمت طوال الطريق وهو يفكر بأشياء كثيرة، وهـذا يعـني أنه قد أخذ يحسب حساب المسؤول الحزبي الجديد، فـالأمور أصبحت تسـير نحـو السـوء، لـيس في مجـال الـولادات الجديـدة السـيئة للأغنـام، ونفقـان الكـثير منهـا، ولكـن، وكمـا يبـدو، أن هنـاك الكـثير مـن الأخبـار السـيئة قـد وصلت إلى القيـادة، وهنـا اتخـذ قـراراً بأنـه سـيلتزم الصـمت حتـى الأخـير، طالمـا أنـه أخطـأ في تعهداتـه أمـام القيـادة، ولم يعمـل بسـبب مرضـه لتـأمين كـل شـيء حتـى تكـون الأمـور جيـدة الخاتمـة، والآن قـد تعلـم أن لا يتكلـم ثانيـة كلامـاً فارغـاً، وكـأن علـى المرؤوسـين أن يعملـوا، ويعملـوا لـيلاً ونهـاراً، لمصـلحة الرؤسـاء والمسـؤولين، وإلا لم تكـن الأمـور منتظمـة بصـورة جيـدة. ويوجـد أنـاس يتعاملون ببساطة مع مرؤوسيهم، وفيما بعد تـنجم عـن هـؤلاء المسـؤولين بعـض التصـرفات الـتي لا تطـاق، لا علـى الـبطن، ولا علـى الظهـر، وتكون المسؤولية بالنسـبة إلـيهم، أمـراً مهمـاً جـداً، ويعيشـون مـن أجـل الكرسي، الذي يجلسون عليـه، علمـاً أن بعضـهم لا يجيـدون اسـتخدام هذا الكرسي بصورة لائقة، ومن دون ارتباك.

لقـد سـافر سـيغيزبايف، ولكـن ثمـة أفكـاراً أخـذت تـدور في رأسـه، وهـو يهـتز فـوق سـرج الحصـان الرهـوان الـذي أعجبـه جـداً، ولا يمكـن القـول إنـه كـان في وضـع نفسـي ومـزاج حسـن، علـى الـرغم

مـن أنـه ذاهـب ليحقـق في الأمـر مـع الرعـاة، وكـان يعلـم أنـه لم يجـد هنـاك الكـثير مـن الأمـور الـتي ترضيه، فالشـتاء اخـتلط مـع الربيـع في فـترة حرجـة، ولم يسـمح فصـل للآخـر أن يأخـذ حقـه مـن التقـويم الطبيعـي، ولهذا السبب، قـد تضـررت الأغنـام وأولادهـا أكـثر مـن أي شـيء آخـر، فنفقـت أعـداد كـبيرة مـن الـولادات الجديـدة، ونفقـت الأمهـات الضـعيفة مـن دون الزرائـب الجيـدة، وغيـاب العلـف الـلازم، ونـدرة الأدويـة والعـلاج، وتـأخر المراعـي، والظـروف السـيئة للرعـاة والمعاونين، والراعي في هـذه الحالـة ليس بإمكانـه أن يفعل شيئاً، وفي كل سنة كان يحصل الأمـر ذاتـه، والكـل يعـرف هـذا، وطالما قامت القيادة بإرساله كمفوض صلاحية، هـذا يعـني عليـه أن يقـوم بـالتحقيق كمـا يجـب، ويطلـب محاسـبة المسـؤول، والإجابـة عـن كـل هـذا، وفي أعمـاق روحـه كـان يعلـم، أن نسـبة كـبيرة مـن هـذه الأزمـة للمواشـي معروفـة ومفهومـة منـذ زمـن طويـل، ولأي أسـباب حصـلت، ولهـذا مـن الممكـن أن تكـون مهمتـه ليسـت عسـيرة، زد علـى ذلـك، فهـو لـيس المسـؤول الأول في المنطقـة، وكـل مـا في الأمـر، أنـه واحـد مـن أعضـاء مجلس قيـادة المحافظـة، ويجـب أن يسـأل عـن هـذا الأمـر المسـؤول عـن تربيـة الحيوانـات في المنطقـة، وهـو الآن قـد أصـبح السـكرتير الأول الـذي يجـب أن يجيـب عـن كـل الأسـئلة، فهـو جديـد في المنطقـة، وبـدأ العمـل منـذ فـترة قصـيرة، فدعـه يجيـب كمـا يجـب، حتـى انـتفخ مـن الغيظ، أمـا بالنسـبة إليـه، «سـيغيزبايف» سـينظر في الأمـر، وهنـاك في القيـادة سيدرسـون الأمـر، ويناقشـوا: هـل أخطـؤوا بإرسـال مسـؤول للمنظمـة الحزبيـة مـن خـارج المنطقـة، وهنـا تعكـر مـزاج سـيغيزبايف عنـدما تـذكر هـذا، وتجـاهلوا رأيـه، وقـد بقـي فـترة غـير راض عـن هذا، فهو هنا منذ فترة طويلـة كنائـب عـام في المنطقـة، وبـرهن أكـثر

من مرة أنه على حق في الكثير من الأمور، ولا بأس من الأمر، فلديه الكثير من الأصدقاء وسيدعمونه إذا لزم الأمر، وكان من الضروري أن يتحول إلى العمل الحزبي منذ زمن طويل، إذ طالت فترة بقائه في كرسي النائب العام... أما الرهوان، فكان يؤرجحه كما لو كان يركب قارب صيد، ولا يؤثر فيه الطريق الموحل والوعر، وتراكم الثلوج، إذ كان غولساري أقوى من هذه المعوقات، أما الحصان لدى المسؤول الحزبي، فقد ظهرت عليه علائم التعب، وتبلل جسمه بالعرق، أما الرهوان، فبدا وكأنه لم يقطع مسافة تشعره بالتعب...

أما تشورا فقد بدا عليه الإنهاك، وبدا وجهه أصفر شاحباً، وغارت عيناه في محجريهما، فكم من السنين تعذب بآلام القلب، وكلما كبر بالعمر، كلما ساء أمره أكثر وأكثر، أما أفكاره فقد كانت قاسية ومؤلمة أيضاً، نعم، لقد كان تانباي على حق، فرئيس الكولخوز يصرخ ويضج، وليست من نتيجة ترجى من عمله، وهو دائماً في قيادة المنطقة بعيداً عن ساحة العمل، وكأن عنده عمل آخر، ومن الضروري أن تُبحث مسألته في اجتماع الحزب، ولكن قيادة المنطقة تطلب التمهل في الأمر، وماذا علينا أن ننتظر؟ وينتشر خبر الآن حول ألدانوف، ويقال إنه سيطلب الخروج إلى التقاعد، وربما أن القيادة تطلب التمهل لبحث هذا الأمر، فمن الأفضل أن يخرج ويترك العمل لغيره، وكذلك بالنسبة لتشورا، فقد حان الوقت لأن يخرج إلى التقاعد أيضاً، وأية فائدة من وجوده؟ فهو مريض بصورة دائمة، وجاء سامنصور لقضاء العطلة، ونصحه بالاستقالة، بالطبع بإمكانه أن يترك العمل، ولكن ضميره هل يسمح له بذلك؟ فبالنسبة لسامنصور فهو شاب ذكي، ويتفهم الأمور الآن أكثر من

أبيه، وفي كل القضايا التي تخص عمله، ويتفهم كيف من الأفضل أن يجري العمل لتطوير الريف في جميع مجالاته، فالآن يقومون بتعليمهم شتى العلوم، وربما مع الزمن، سوف تحصل نتائج إيجابية حسب ما يتكلم لهم الأساتذة في الجامعات، والآن ما زالت الأمور تدور حول المحكمة، وأمور أبيه، ومن الواضح أنه يضحي بروحه، ولا يخرج لأن مصيبته تنحصر في عدم وجود المكان لخروجه، فإلى أين يخرج الإنسان عن ذاته، والحقيقة لا تخفي نفسها. نعم، وماذا سيقول الناس؟ لقد وعد بالاطمئنان والراحة، ولم ينفذ شيئاً، ووضع الكولخوز في حالة العجز، والديون أصبحت أكبر من أن يفكر بإمكانية دفعها، والجهات المسؤولة تطالبه بتنفيذ الخطط، ولذلك فهو مضطر لأن يطلب الاستقالة ويخرج إلى التقاعد، وهناك في التقاعد، لن يشعر بالراحة، ويرى أنه من الأفضل له أن يصمد حتى الأخير، سيأتون لمساعدته، فمن غير الممكن أن يستمر الوضع على هذا الحال، حبذا لو أسرعوا قليلاً! ولكن عسى أن تكون المساعدة كافية، وكما يجب أن تكون، وليس الكلام عن طرق المحاكمة على فشل عمل الكولخوز، فإطلاق الأحكام لا يصحح الأمر، فقم وأطلق أية أحكام كانت، وهنا لا تحل الأمور بالأحكام المطلقة.
غرق في هذه الأفكار، وتابع طريقه قاطب الحاجبين، وكأن الأمور قد اختلطت في رأسه، فارتبك وأخذ يشعر كأنه في هذه الجبال يعيش حشد كبير من المجرمين، أما هو فوحده يصارع جميع قطاع الطرق من أجل الكولخوز... وفي الحقيقة، الأمر بالنسبة إليه سيان، هكذا تكون الأمور في نهاية المطاف، ولكن فكر جدياً أن تقول الحقيقة بصراحة.

18

شمخت الجبال بكل هيبتها في ظلمة رمادية بعد أن تناستها الشمس لعدة أيام، فتجهمت واسودت حانقة في ذرى مقامها، كما يغضب العمالقة في ساعات المحن. أحس الربيع بوعكة انتقامية من الشتاء، وانتشرت الرطوبة والضباب حوله في كل مكان.

عانى تانباي معاناة قاسية في حظيرته البائسة، البرد القارس، والعفونة التي لا تحتمل. ولدت نعاج عدة، فلم يكن من مكان للحفاظ على خرافها من البرد والمطر والثلج، فأخذت تثغو وتثغو بلا نهاية، فعم الصخب والثغاء والازدحام، وخاصة بعد ترك بيكتاي مواشيه لدى تانباي، فهي تريد أن تأكل وتشرب، وها بعضها ينفق كالذئاب. زد على ذلك، أن جايدار قد اضطجعت في فراش المرض بعد إصابتها، حيث انكسر ظهرها، ولم تعد قادرة على الوقوف، فليكن ما يكون، لم تبق أية قوة تذكر.

لم يخرج بيكتاي بعد من رأس تانباي، فالغضب الشديد كان يعميه عن كل شيء خيّر، وأطبقت أنفاسه على روحه في كآبة قاتلة، وليس لأنه غادر، ولم يرغب بمتابعة الرعي، فهو في نهاية المطاف سيترك العمل، وليس لأنه ترك قطيعه كما تفعل البوم، حيث تقذف ببيضها إلى عش طائر آخر، وفي نهاية المطاف سوف يرسلون شخصاً ما يستلم القطيع، ولكنني غضبت منه وعلى نفسي، لأنني لم أتمكن من الرد عليه كما يجب حتى أسلخ جلده عن عظمه من الخجل! وحتى لا يرى النور الأبيض، ولا يفرح به مرة أخرى. آه! يا له من ولد تافه، كيف يتجرأ أن يمد يده إلى تانباي الشيوعي القديم، الذي سخر كل حياته من أجل الكولخوز. لم يجد تانباي الكلمات المناسبة حتى

يجيبه كما يجب. قذف بالعصا التي تُعطى للراعي وغادر، يا له من ولد قذر، وهل فكر تانباي ماذا سيعمل عندما يحصل شيء من هذا القبيل كما فعل بيكتاي؟ وهل فكر ذات يوم بأن الآخرين سيضحكون ويسخرون منه، وعلى قضيته الحياتية المصيرية؟ وأخيراً أمر تانباي نفسه بالتوقف عن هذا التفكير المزعج، إذ قال:

- «يكفي!». وحاول أن ينهض إلى العمل، ولكنه وبعد دقيقة عاد من جديد إلى تلك الأفكار السود، التي سبق أن فكر بها مرات عدة. وها هي واحدة من النعاج قررت أن تلد، فأنجبت توءمين جميلين، ولكن أين سأضعهما مع أمهما حتى يرضعان اللبأ؟ أما ثدي النعجة فهو خال، ومن أين يأتي الحليب إلى الثدي؟ هذا يعني أن هذين التوءمين سوف يموتان قريباً! آه، إنها مصيبة يا لها من مصيبة! وهناك الكثير من الخراف النافقة، فجمع تانباي جثث هذه الخراف والأمهات النافقة، وعمل على نقلها، وفجأة أتت البنت الكبرى وهي تقول:

- بابا، أتى إلينا خيالان يرتديان ألبسة جيدة، فأجابها والدها هامساً:

- فليأتيا إليّ، أما أنت فاذهبي واعتني بأمك.

عندما خرج تانباي من الزريبة، شاهد خيالين، آه! إنه غولساري! فرح تانباي حيث دق في صدره وتر قديم، وكم من الوقت لم نر بعضنا يا غولساري! انظر كيف يسير، كما كان الرهوان في السابق! أحدهما كان تشورا، أما الآخر الذي يركب على الرهوان، وهو في معطف جلد، فلم يعرفه! ولكنه كما يبدو رجل محلي من المنطقة.

- «نعم.. نعم»، اقتربا، أخيراً أتيتما؟!، - فكر تانباي بشيء من الفرح الشرير، وهنا كان من الممكن أن يشتكي ويبكي نصيبه، ولكنه رفض الضعف، ولن يبكي كالنساء، فليخجلا هما، وليحمر

وجهاهما، فهل من الممكن أن يفعل البشر ببعضهم هكذا! لقد قذفوا بي إلى الموت، والآن يأتون إليّ...

لم ينتظر تانباي حتى يصل الخيالان، فذهب إلى خلف الزاوية الأخرى من الزريبة، وقذف بالخراف والأمهات النافقة في كومة، وعاد سائراً ببطء.

كان الضيفان قد وصلا إلى الساحة، بينما كان الحصانان يتنفسان وينخران بصعوبة. بدا تشورا في وضع حزين ومؤسف لما حدث، وعرف أن الإجابة من جانبه يجب أن تكون بصيغة الاعتذار، أما صديقه فلا أعرفه، بينما أخذ الرجل الذي يركب على الرهوان يتحدث بلهجة حادة، حتى بدا حانقاً، ولم يسلم كما يفعل البشر، وعندما شاهد هذه الخراف النافقة مع أمهاتها، خرج عن طوره على الفور، وقال مستغرباً ومندهشاً وهو يخاطب تشورا:

- يا للعار! يا للمصيبة! في كل مكان هكذا؟! ماذا أرى هنا من مصائب! ثم التفت الضيف المجهول نحو تانباي: لماذا يا ترى هذا الوضع أيها الرفيق، وأشار بيده إلى المكان، وكومة الخراف والأمهات النافقة التي جمعها تانباي فيه... ثم أضاف هذا الرجل المجهول:

- إذا كانت الخسائر هكذا عند راع شيوعي، فكيف سيكون الأمر عند الآخرين؟ فاحتد تانباي وفكر في قرارة نفسه:

ربما هما لم يكونا يعرفان أنني شيوعي في حقيقة الأمر، ثم رفع صوته عالياً، وكان قد حضر نفسه لمثل هذا اللقاء، وقد انكسر في عالمه المحور الأساسي، وخيمت على روحه البرودة والفراغ، وأصبح الأمر بالنسبة إليه سيان، وليس بذي أهمية.

- ماذا يعني هذا؟ - دمدم سيغيزبايف وصمت - إنك قطعت على نفسك عهداً، أن تنفذ الخطة الاشتراكية؟ ولقد وجد هذا الرجل

كيف يدخل إلى الحديث من زاوية مريحة له، وشد مقود الحصان بقوة، فارتفع رأس الرهوان، وكانت هذه الحركة منه لتأزيم الموقف، وإبراز سلطته كنائب عام، فأجاب تانباي بامتعاض:

- لقد قطعت عهداً على نفسي! فسأله سيغيزبايف:

- وعلى ماذا تم التأكيد هناك؟ فأجاب تانباي:

- لا أذكر ما كان! وهنا وصل سيغيزبايف إلى ما يريد قوله:

- ولهذا بالذات تموت الخراف عندك! - أخذ سيغيزبايف يحرك السوط في يده، ويلوح به بعض الأحيان، ويمده إلى الأخير حتى إنه وجد في نفسه القوة أن يقف مستنداً لبرهة على الركابين، ولقد انتعش، وتنشط، إذ شعر بأنه قد تفوق على المتمرد تانباي، وكسر شوكته على الفور، وفرح في داخله، أنه لقن راعياً متمرداً درساً لا ينساه، زد على ذلك، أنه مهد لكلامه هذا مع تانباي بهجوم مبطن على تشورا، إذ قال له قبل أن يتكلم مع تانباي: إلى أين تنظر يا رفيق تشورا؟ فالناس عندك لا يعرفون العهود الاشتراكية الملقاة على عاتقهم، ويخرقون الخطة ويقتلون المواشي! فماذا تعملون هنا؟ وكيف تربون الشيوعيين عندكم؟ وأي شيوعي هذا الراعي المتمرد؟ إنني أسألك يا رفيق تشورا.

صمت تشورا وأحنى رأسه، وهو يفرك مقود الحصان بيديه.

- إنني شيوعي كما تراني أمامك - أجاب تانباي بدلاً من أن يجيب تشورا، فقال سيغيزبايف:

- انظروا، يا له من شجاع، و يا لها من إجابة صريحة، نعم إنك مخرب؟ إنك تهدم الملكية الشعبية في الكولخوز، إنك عدو الشعب، فمكانك في السجن، وليس في الحزب! إنك تسخر من الخطط الاشتراكية.

هكذا بالذات كما تقول، مكاني في السجن، في السجن - أكد تانباي بهدوء، بينما أخذت شفتاه تتراقصان، وهو يضحك بهستيريا تعكس حالة الانفعال الكلي بلا حدود، وانفجر بر كان في داخله من الغبن القاتل، ومن المصائب المتلاحقة التي حلت بهم مؤخراً، ومن كل ما عانى منه خلال الفترة الماضية، وكل ما ساهم في امتلاء الكيل حتى طاف فوق الحد للصبر، فقال تانباي بحدة مخاطباً سيغيزبايف:

- قل كل ما عندك! فماذا ستزيد على ما قلت.

- لماذا تتحدث هكذا يا تانباي؟ - تدخل تشورا في الحديث. لماذا كل هذا؟ هل من الممكن أن تشرح الأمر بوضوح؟

فصرخ تانباي:

- إذن هكذا! هذا يعني، إنني ملزم أن أقدم لك أيضاً بعد كل هذا شرحاً مفصلاً؟ لماذا حضرت إلى هنا يا تشورا؟ فلماذا قدمت إلى هنا؟ إنني أسألك! فأنت قدمت حتى تحاكمني على موت الخراف؟ فأنا أعرف كل هذا! زد على ذلك، أقول لك إنني طوال هذه الفترة، أجلس هنا في الزبل حتى الحنجرة! وأقول لك أيضاً، أنني كنت مجنوناً طوال حياتي، وعملت حتى آخر رمق فيها من أجل الكولخوز، وأقول لك إنني أخطأت بأن قطعت عهداً على نفسي.

شحب وجه تشورا، ثم قال بامتعاض مخاطباً صديقه ورفيقه القديم:

- تانباي، تانباي! عد إلى رشدك يا تانباي! ثم قفز مترجلاً عن حصانه، فقال له تانباي:

- أنت مريض، فاغرب عن وجهي، ودفعه قليلاً كي لا يؤذيه، وهو يكرر: إنني أبصق على كل تعهداتي، وعلى حياتي أيضاً! اذهب

عن وجهي، وإلا سيكون مكاني في السجن أخيراً! ولماذا اصطحبت هذه الشخصية الجديدة في معطف جلد فاخر؟ حتى يسخر مني ويهينني هنا أمامك؟ ويزج بي في السجن أخيراً؟ فماذا بك أيها الوغد تنظر من بعيد، تعال وافتعل حركة حتى تزج بي في السجن! حاول تانباي أن يجد في متناول يده شيئاً ما حتى يضرب به، فوجد الشاعوب إلى جانب الجدار، فأمسك به وهجم بكل ما أوتي من قوة على سيغيزبايف، وهو يقول: أغرب عن وجهي بسرعة من هذا المكان أيها الحقير! أغرب عن وجهي قبل أن يفرغ صبري نهائياً، فلم أعد أطيق وجودك هنا، ولن أقدر على تمالك أعصابي طويلاً، وأخذ يهوي بالشاعوب على كل من يقف أمامه.

تجابن سيغيزبايف، وهو يرتجف بلا معنى، وأخذ يشد رأس الرهوان تارة إلى اليمين، وتارة إلى اليسار، ثم في اتجاه آخر، بينما كان الشاعوب الذي أخذ تانباي يحركه أمام وجهه، قد أفقد الحصان إمكانية المبادرة والتوجه إلى جهة ما، وفي حالة الغضب، لم يعرف كيف يصب تانباي غضبه وسخطه على الحصان الرهوان، الذي حمل هذا الرجل الوقح عنوة، وقام تانباي بضرب الحصان بالشاعوب على رأسه أربع ضربات متتالية، وبعد كل ضربة، لم يعرف لماذا كان غولساري يهز رأسه هزات غريبة، ولم يدرك لماذا الخيال من فوقه يهز ويشد اللجام بقوة، علماً أنه واقف في المكان، واللجام يستخدم لردعه عندما يركض بسرعة، ولم يفهم أيضاً، لماذا أخذت عينا غولساري تلمعان بحدة نادرة في وجهه، وكان الرهوان لا يرغب بالنظر إلى صاحبه القديم وهو يضربه، فأزاح بعينيه عنه كلياً.

- ابتعد، يا غولساري، أغرب برأسك عن وجهي! أعطني

الإمكانية حتى أصل إلى وجه هذا الوقح! وهجم تانباي هجمة شرسة، وأخذ يوجه الضربة بعد الأخرى إلى سيغيزبايف، الذي كان يحرك رأس الحصان الرهوان البريء، حتى يتلقى الضربة، وهنا أسرعت الشابة المعاونة، وتمكنت أن تمسك بيد تانباي، وحاولت أن تنزع الشاعوب منها، ولكنه قذف بها بعيداً على الأرض، وفي هذه اللحظة، تمكن تشور أن يمتطي سرج حصانه، وهو ينادي رفيق دربه في هذه المهمة:

- تعال يا سيغيزبايف نهرب من بطش هذا المجنون! إنه سيقتلنا!
وأخذ يدافع عنه، حتى وضع نفسه بين تانباي والنائب العام.

هوى تانباي على تشورا بالشاعوب، ولكنه لم يضربه لمرضه، وهنا غادر الخيالان بعيداً عن الساحة، فطاردهما الكلب الوفي، وهو يعض حذاء تشورا، ثم يعود إلى جزمة سيغيزبايف حتى ابتعدا عن المكان.

أما تانباي، فقد ركض خلفهما، وهو يتعثر ويقذفهما بالحجارة وكتل الوحل عن مسافة، وهو يقول بلا توقف، والكلام يتبعثر من بين أسنانه:

- ألا تقول أن مكاني في السجن؟ اغربا عني! اغربا من هنا! في السجن مكاني في السجن! حقاً أن مكاني في السجن! ولا عمل لكما عندي هنا. ثم عاد وهو يكرر ويلتقط أنفاسه بصعوبة: في السجن مكاني في السجن! وإلى جانبه كان يتبختر الكلب الوفي، ثم يلتفت إليهما ويزمجر، وهو يؤدي دور الوفاء لصاحبه على خير وجه، وكان ينتظر كلمة ملاطفة تعبر عن رضا صاحبه عنه، ولكن تانباي لم يكن في وضع يلحظ الكلب فيه، ومن هناك بدت زوجته جايدار، وهي تتكئ على العصا شاحبة الوجه قلقة مما حدث:

- ماذا فعلت؟ ماذا فعلت يا تانباي؟

- عبثاً ما فعلت!

- ماذا تقصد؟ حقاً من العبث ما فعلت - أجابت جايدار.

- من العبث أنك ضربت الرهوان.

- هل أنت في عقلك؟ وهل تعرف الخطأ الذي ارتكبته؟

- أعرف ما فعلت، أنا مجرم مخرب، أنا عدو الشعب،- أخذ يكرر تانباي - وهو يقاوم السعلة التي ملأت حنجرته، ولم يعرف كيف يلتقط أنفاسه، وأخيراً صمت، وأمسك وجهه بكفيه من الجانبين حتى تطاول بين يديه، وأحنى رأسه، ثم أخذ بالبكاء القاسي المر، وبصوت عالٍ.

- اهدأ، اهدأ،- أخذت زوجته تهدئ من روعه، وهي تبكي معه، ولكنه استمر بالبكاء طويلاً وهو يترنح من جهة لأخرى، أما جايدار، لم تر - خلال حياتهما المشتركة - زوجها تانباي باكياً، حتى في أسوأ الأحوال...

19

انعقد اجتماع مكتب اللجنة المنطقية للحزب في اليوم الثالث، بعد هذا الحدث الطارئ الذي حصل لأول مرة في الكولخوز.

جلس تانباي باكاسوف في بهو الانتظار ينتظر صاغياً عندما سينادونه للتحقيق معه، وهناك في الداخل، كان يجري النقاش عنه، أما هو فلقد فكر مطولاً خلال هذه الأيام التي عقبت الحادث، ولم يتمكن من الوصول إلى قرار، هل أخطأ هو فعلاً، أو لاً. رغم أنه كان يدرك أنه قام بتصرف عنيف، وخاصة أنه ضرب ممثل السلطة، ولو كان الأمر ينحصر في هذا وحده، لكان الأمر سهلاً للغاية، وكان جاهزاً أن يتلقى العقوبة التي يحكم بها، ولكنه قد انطلق

بغضبه بعيداً، فصرح بكل ما في قلبه من وجع وألم بخصوص الكولخوز. لقد خرّب كل شيء كان يفكر به، ويقلق من أجله، فمن بعد الآن يثق به؟ ومن سيتفهم وضعه بعد كل هذا؟ إلا أنه كان يعلل نفسه بالأمل متمنياً أنهم سيتفهمون وضعه، ولاسيما أن الناس يعرفونه جيداً عندما يتكلم ويقول الحقيقة: عن الشتاء والصعوبات، والمآسي البيئية فيه، وعن الزرائب التي لا تصلح للاستعمال، واليورتات البالية، وغياب العلف، وعن الليالي الطويلة التي لم أنم فيها، وعن بيكتاي الذي أخطأ في حقي، ولكنه على حق بكل الأمور الأخرى التي جعلته يخرج عن طوره، ساعتئذ دعهم يقررون، وهل من الممكن لهم أن يديروا الكولخوز بهذه الطريقة، وهو لم يأسف، ولم يندم على ما حصل، فدعهم يتخذون أي حكم ضدي. أخذ يفكر تانباي، عسى أن يكون تصرفه مفيداً للآخرين، ويتم تفادي الأخطاء، ويجري عمل جاد لتسهيل طبيعة العمل لمربي المواشي، والاهتمام بحياتهم ومصائبهم، وبعد دقيقة من تذكر هذا كله، عاد إلى موقفه المبدئي الشجاع من دون أي خوف، وضغط على أصابع يده في قبضة فولاذية بين ركبتيه، وأكد لنفسه بكل ثقة: كلا، لم أخطئ في أي تصرف، كلا! ولكنه، وبعد التفكير والانتظار، عاد للتشكيك في أسئلة عدة تخص الموضوع...

هناك في بهو الانتظار، كان يجلس لسبب ما إبراهيم، فتساءل تانباي مع نفسه: لماذا يجلس هذا الشخص هناك، وما كان ينقصنا إلا هذا، ويبدو أنه طار من بعيد كالغراب، الذي يتطفل ويحط على جيفة ما، ليأخذ نصيبه منها - غضب تانباي - وأدار له ظهره، أما إبراهيم فقد دمدم وتأفف، وهو ينظر إلى رأس الراعي الأشعث.

جلس تانباي على الكرسي، وأخذ يفكر، ماذا بهم قد أطالوا

الحديث، فتململ وقال: «ماذا يلزمهم بعد، يريدون أن يوجهوا ضربة قاضية، فليضربوا»، ويبدو في القاعة أن الجميع قد حضروا، وكان تشورا هو الأخير الذي جاء قبل دقائق، ولقد عرفه تانباي من خلال الوحل الذي لطخ الجزمتين الصوفيتين، وجاء يمتطي حصاناً أشقر يمشي الرهونة، يبدو أنه أسرع العدو في الطريق حتى لا يتأخر على الاجتماع، إذ بدل غولساري عرقه مرات عدة، وظهرت رغوة العرق كالصابون على شعره الأشقر، هكذا فكر تانباي، ولكنه أحنى رأسه، ولم يرفعه مطولاً، ولقد وقف تشورا قليلاً إلى جانب تانباي مرتبكاً، ثم اختفى خلف الباب حيث يدور الاجتماع.

- لقد امتد الوقت طويلاً، حتى ظهر أخيراً من باب الغرفة رأس السكرتيرة، وطلبت من تانباي:

- ادخل أيها الرفيق باكاسوف.

ارتعد تانباي، وطرق قلبه بضربات سريعة تصم الآذان، ودخل إلى القاعة تحت وقع هذه النقرات الإيقاعية في أذنيه. بينما ظهرت ضبابية رمادية أمام عينيه، وحتى لم يعرف وجوه الناس الجالسين هنا.

- اجلسوا: قال السكرتير الأول للجنة المنطقية كاشكاتايف، وأشار بيده مشيراً للكرسي الذي سيجلس عليه تانباي، وهو في نهاية الطاولة الطويلة.

جلس تانباي واضعاً يديه الثقيلتين على ركبتيه، وانتظر حتى ينقشع الضباب عن عينيه، ثم نظر في طول الطاولة، فشاهد على يمينه السكرتير الأول، وعلى يساره يجلس سيغيزبايف، وعلى وجهه مسحة معاناة وتفكير، فتوتر تانباي كنابض بأقصى مراحل ضغطه، من شدة كرهه لهذا الإنسان، حتى إن الضباب الذي كان يشعر به مغطياً عينيه فقد انقشع مباشرة. أما الأشخاص الآخرون الجالسون

خلف الطاولة، فقاموا، وألقوا كلمات حادة وبصيغة التشاؤم، وأكثر واحد كان أسود الوجه بين الحاضرين سيغيزبايف، بينما كان تشورا أكثرهم شحوباً واصفراراً، وكأن وجهه خالياً من الدم نهائياً وهو يجلس آخر واحد من جهة الباب، وكان أقرب واحد إلى تانباي. أما يداه النحيفتان فقد كانتا ترتجفان، وهو يضعهما فوق شرشف الطاولة الأخضر، أما مدير الكولخوز ألدانوف الذي كان يجلس مقابل تشورا، ويبدو عليه العصاب واضحاً، إذ كان مقطب الجبين، ينظر من حوله باستفزاز، وهو لا يخفي علاقته بهذا الأمر الذي يناقش أمامه اليوم، وكان هناك من ينتظرون الكلام بعد، وأخيراً ترك السكرتير الأول الأوراق في الإضبارة، ثم قال:

- نأتي الآن لمناقشة الأمر الخاص بالشيوعي باكاسوف - وشدد السكرتير على بعض الكلمات بقوة.

- نعم، مع الأسف القول، شيوعي، - قال واحد بصورة ساخرة قاصداً الإهانة لباكاسوف.

لم يعلق تناباي، ولكنه فكر بنفسه: «ليقل الأشرار الحاقدون ما يريدون! فعلي أن لا أنتظر منهم الرحمة».

- لماذا عليّ أن أنتظر العفو والرحمة؟ فهل أنا مجرم؟

إنه لم يعلم أن الأمر لحل مسألته قرار فريقين متناقضين، وكان هناك تعارض في الرأي بين الجانبين، وهما على جاهزية كاملة لاستخدام هذه الحادثة، كل جهة في مصلحتها، وكما نرى، فواحدة منهم يتزعمها سيغيزبايف وأنصاره، وأرادوا أن يجربوا قدرة السكرتير الجديد على حسم الموضوع، ويتأكدون من محاولتهم في بداية الأمر لضمه إلى جانبهم، أما الجهة الثانية في شخص كاشكاتايف الذي عرف أن سيغيزبايف يطمع بالحصول على منصب

السكرتير الأول، وهنا قررت هذه المجموعة أنه من الضروري العمل بتكتيك أخر، حتى لا يلحق بهم أذى فيما بعد، ورأوا أيضاً أنه ليس من الضروري تأزيم الوضع مع الجهة الأولى بمن فيها من عناصر خطيرة.

قرأ السكرتير الأول ورقة التقرير التي تقدم بها سيغيزبايف، وفيها يصف التصرفات الإجرامية لتانباي، وكيف قام بتوجيه التوبيخ بالكلام، وكذلك بالتصرفات التخويفية لرئيس الكولخوز، (الحجارة البيضاء)، وفي هذا الاتهام لم يكن أي شيء يدين تانباي حتى يرفضه، وحتى اللهجة والصياغة بجمل الإهانة، قد سببت له عقدة تشاؤم، وهنا غطس في حالة من التعرق الشديد عندما أحس بضعفه أمام هذه الورقة التي قرأها السكرتير، وتبين أن تقرير اتهام سيغيزبايف أخطر بكثير من شخصيته بالذات، وللأشياء التي جاء بها سيغيزبايف في هذه الورق من الصعب أن تحمل شاعوباً وتقضي عليها. وهنا بدا كل شيء أراد أن يبرزه أمام اللجنة لتبرئة نفسه ضعيفاً وواهناً، وفي لحظة واحدة فقدت كل مبرراته أهميتها في عينيه بالذات، وتحولت كل مقولاته إلى شكوى راع ضد القضايا التي يعاني منها في العمل ويكرهها، وهنا أحس بالغباء لضعف حججه، وأية قيمة تساوي أمام هذه الورقة الوسخة، التي تقدم بها سيغيزبايف؟! وهنا أخذ يفكر مع من سيتعارك؟ فسأله كاشكاتايف بعد أن أنهى قراءة الورقة:

- هل تعترف يا رفيق باكاسوف بصحة هذه الادعاءات الواردة في ورقة عضو المكتب، الرفيق سيغيزبايف؟

- نعم،- أجاب تانباي هامساً.

صمت الجميع، وبدا الأمر كأنهم كانوا خائفين من هذه

الورقة، فنظر ألدانوف برضاء إلى الجالسين خلف الطاولة بنظرة تحدي، وكأنه يقول لهم، أترون ماذا يجري أمامكم.

- أيها الرفاق أعضاء المكتب، إذا سمحتم لي أن أقوم بمداخلة لتوضيح جوهر القضية،- هكذا تكلم سيغيزبايف بثقة - وأريد أن أحذر هنا بعض الرفاق من محاولتهم النظر إلى هذه القضية للشيوعي باكاسوف كمشاجرة عابرة، ولو كان الأمر كذلك، لما قمت بعرض هذه القضية على مكتب اللجنة المنطقية، فلدينا طرق أخرى للعمل ضد المشاكسين الذين يقومون بافتعال المشاجرات، والمسألة ليست في إهانة تانباي لمشاعري وكرامتي، ولكنني كنت في مهمة وأمثل اللجنة المنطقية للحزب، وكما تعرفون، أن الحزب كله يقف خلفي في هذا، وأنا لا أسمح بالتهجم على الحزب وسمعته وهيبته، والمهم أكثر من أي شيء آخر أن كل هذا يعكس حالة الانحلال التي يعاني منها عملنا في مجال التربية السياسية بين الشيوعيين، وغير الحزبيين، والسلبيات الكثيرة والجادة في العمل الايديولوجي للجنة المنطقية، وعلينا أن نجيب في المستقبل عن الأخطاء في تفكير البعض من أمثال هذا الشيوعي البسيط باكاسوف، وعلينا أن نجيب ونوضح، هل هو وحده يعمل ويتصرف هكذا أو خلفه أناس يدفعونه لهذا، وماذا يعني في كلمته ومعروضه: «الحاكم الجديد في معطف جلدي!»، فلنترك المعطف جانباً، ولكن وحسب رأي باكاسوف، إنني الإنسان السوفييتي المسؤول الحزبي، حاكم جديد، شاب، خانق الشعب! انظروا كيف! هل تدركون معنى هذا، وماذا يريد القول من هذه الكلمات؟ إنني أعتقد! لا يحتاج كلامه إلى شرح... والآن يجري الكلام عن الوجه الآخر للأمر، لقد أصيب تانباي بالغم والكرب للوضع السيئ لتربية المواشي في الكولخوز، وفي الإجابة عن كلمات

الشـتائم السـيئة الـتي أطلقهـا باكاسـوف، وكأنـه نسـي تعهداتـه بخصوص الخطط الاشتراكية، وقد وصفته بالمخرب، وعدو الشعب، وقلت إن مكانه ليس في الحزب بل في السجن، أعترف أنني أسأت له بهذا، وكنت جاهزاً أن أعتذر منه، ولكن الآن تأكدت من أن كلامي الموجه له صحيح، ولن أسحب كلماتي، بل أبقي على ما قلت، بأن باكاسوف خطير، وعنصر معادي للنظام الاشتراكي...

لقد قطع تانباي طريقاً طويلاً في الحياة، وعاش سنوات الحرب وشارك فيها من البداية حتى النهاية، ولكنه لم يشك أبداً، بأن القلب يمكن أن يصرخ يوماً بصوت غريب كما صرخ هو الآن، ومع هذا الصراخ الذي تصاعد من دون انقطاع كقصف المدافع في الآذان، وهبط القلب، ثم صعد، وتأرجح متقلباً، هبط ثانية إلى الأسفل، ومن جديد حاول أن يرتفع، ولكن الرصاصات أصابته مباشرة، «آه، يا إلهي،- أخذت تدق في رأس تانباي، فإلى أين ذهب كل شيء، وما هو الشيء الذي كان يشكل معنى حياتي، ومعنى كل عملي؟ هذا هو الذي بلغته في حياتي، أصبحت عدواً للشعب، بينما كنت أتعذب وأعاني من أجل زبدة الأغنام، ومن أجل الخراف، هذه الكائنات الضعيفة، ومن أجل بيكتاي الذي لا يعرف طريقه في الحياة، فلمن يلزم هذا...». وتابع سيغيزبايف كلامه، وهو يضع الكلمات مشيراً لها بخط أحمر، قائلا:

- إنني أذكّر مرة أخرى، ما تم استخلاصه من تقريري القصير، فباكاسوف يكره نظامنا، ويكره الكولخوز، ويكره الخطط والمسابقات الاشتراكية، ويبصق على كل هذا، فهو يكره كل حياتنا، وأعلن هذا بكل صراحة بحضور المسؤول الحزبي في الكولخوز الرفيق ساياكوف، وفي نشاطه كله تتواجد عناصر

ارتكاب جرائم بشعة، وخير شاهد على ذلك، التآمر على حياة رئيس السلطة خلال قيامه بواجبه الوظيفي. أرجو أن يتم فهمي، وأطلب اتخاذ قرار لتحويل باكاسوف إلى المحكمة الخاصة لإساءته إلى العمل الوظيفي الذي يقوم به، ومن أجل أن يوضع منذ لحظة خروجه من الاجتماع، تحت الحراسة الأمنية، وطبيعة جريمته تنطبق تماماً مع القانون رقم 58، أما بخصوص مشاركة باكاسوف في عمل الحزب،- حسب رأيي - لا يوجد أي كلام بهذا الخصوص...!

- كان يعرف سيغيزبايف، أنه طلب الكثير من المكتب حتى يتخذ قرارات بحق تانباي، ولكنه قد ضخم الأمور حتى يحصل على الحد الأدنى من العقاب، وهو قرار من المكتب لفصل تانباي من الحزب، إذا لم يوافق المكتب على إحالته إلى المحاكمة بمحاولته ارتكاب الجريمة، وهذا يتناسب كلياً مع موقف كاشكاتايف، الذي لن يكون بإمكانه إلا أن يدعم هذا القرار الذي يتناسب مع دعم موقف سيغيزبايف نسبياً، فسأل كاشكاتايف مع شيء من الانفعال:

- ماذا تقول أيها الرفيق باكاسوف بخصوص تصرفكم؟

- لا شيء، كل شيء قد قيل - أجاب تانباي - وينجم عن اجتماعكم هذا، أنني كنت وما أزال مخرباً، وعدواً للشعب، فلماذا يجب عليّ أن أقول بما أفكر به؟ فأحكموا بأنفسكم، فأنتم تعرفون كل شيء...

- وهل تعتقد أنك شيوعي نقي؟

- الآن من الصعب البرهنة على هذا.

- وأنت تعترف بخطئك؟

- كلا.

- وهل تعتقد أنك أذكى من الجميع؟

- كلا، على العكس، فأنا أغبى واحد، وهنا قام شاب من مكانه يضع إشارة الكومسومول على صدره، وكان أصغر من كل الموجودين سناً، زد على ذلك أنه كان هزيلاً صغير الوجه، مع تطاول فيه إلى الأسفل، وبدا يشبه الولد أكثر مما يشبه شباب الكومسومول النشطاء.

- اسمحوا لي أن أقول رأيي.

أما تانباي، وعندما رأى هذا الشاب لأول وهلة، تفهم حماسته، وأنه سيقول الحقيقة، وقال في نفسه: «أعطهم أيها الشاب ما عندك، وأنا أيضاً كنت مثلك في يوم من الأيام، أتحمس لقول الحقيقة ولو على قطع رأسي، فلا تبخل أنت بقولها...».

وهكذا، انطلقت الشرارة على شفاه هذا الشاب، وقد شعت بضوئها كما يشع البرق بين الغيوم السود العالية. لقد شاهد هذا الشاب ذلك المكان في حقل القمح إلى جانب الطريق، حيث قام كولوباي بقلع وتهشيم سنابل القمح الخضر، ولقد ارتسمت هذه اللوحة أمامه الآن، وارتعد بكل أوصاله، وصرخ في نفسه حتى جلجلت روحه بكل أبعادها من دون ضجيج، أعاد صوت كاشكاتايف الشاب إلى ذاته، حيث قال:

- تكلم يا كريمبيكوف.

- إنني لم أتفق مع الطريقة التي حاول الرفيق تانباي باكاسوف حل الخلاف فيها، وأرى أنه كان من الضروري أن يجد طريقة حزبية سليمة لمعالجة الأمر، ولكنني غير موافق مع الرفيق سيغيزبايف،- بدا كريمبيكوف قلقاً - وظهر صوته متقطعاً من الانفعال، وإنني أرى، أنه من الضروري محاكمة الرفيق سيغيزبايف أيضاً...

- هذا كله مرة واحدة - قاطعه شخص ما - فهذا الكلام يتم عندكم في الكومسومول كما أعتقد، وهل تسيرون جميعكم حسب هذه الأنظمة؟

- الأنظمة عند الجميع واحدة،- أجاب كريمبيكوف، وهو يحتد أكثر ويبدو الخجل عليه، ولقد ارتبك في اختيار الكلمات المناسبة، وهنا حاول التخلص من خجله، وفجأة، وكأنه تخلص وانتصر على اليأس، وأخذ يتكلم بحدة وطلاقة:

- أخبرني يا رفيق سيغيزبايف، أي حق تملك حتى تهين المواطن تانباي العضو في الكولخوز وراعٍ ذا خبرة، وشيوعي قديم؟ وحاول أن تقول لي بأنني عدو الشعب أيضاً... وتبررون موقفكم هذا، بأنك كنت مغموماً جداً لوضع تربية الحيوانات في الكولخوز، ولكنك لم تأخذ بعين الاعتبار أن الراعي تانباي كان مغموماً أيضاً، وربما أكثر منك لوضع تربية الحيوانات؟ وأنتم عندما وصلتم إلى عنده، هل سألتموه كيف يعيش، وكيف يسير العمل؟ ولماذا تموت الخراف الوليدة؟ كلا! ومن خلال كلامكم الوارد في عرض الشكوى، أنكم وعلى الفور بدأتم بمهاجمته بالكلام، وليس سراً بالنسبة للجميع، أن عملية الاعتناء بالماشية كانت عملية صعبة وقاسية، وخاصة في مرحلة الإنجاب والتكاثر في قطعان الكولخوزات، فأنا غالباً ما أذهب إلى الرعاة في الجبال، وأقف أمامهم خجلاً ومحتاراً ماذا أقول لرفاقي الرعاة من الكومسوموليين حتى أعتذر منهم، فنحن نطلب ونطلب منهم تحسين العمل والإنتاج، بينما لا يقدم لهم ما هو مطلوب لتحسين العمل. فانظروا إلى الحظائر في الكولخوزات، وكم هي سيئة، وهل العلف يقدم كما يجب؟ فأنا كنت ابناً لراع، وأعرف جيداً دقائق الأمور، وخاصة لماذا تموت الخراف الصغيرة، ففي

المعاهد قاموا بتعليمنا نظرياً، أما في الواقع، فالأمر يختلف، وما زالت الأمور تسير حسب القديم، فالروح تئن وتبكي عندما تشاهد كل هذا!...

- أيها الرفيق كريمبيكوف، قاطعه سيغيزبايف، لا تحاول أن تثير عواطفنا، فمسألة المشاعر والعواطف مفاهيم واسعة، نريد أن نسمع الحقائق، تلزمنا حقائق، وليس مشاعر.

- اعذرني، هذه ليست محاكمة لمجرم، وإنما مساءلة لرفيق لنا إثر مشكلة - تابع كريمبيكوف - وهنا يقرر مصير إنسان شيوعي، ولهذا تعالوا نتعامل مع الامر بموضوعية، لماذا تصرف الرفيق باكاسوف على تلك الشاكلة، بالطبع من الضروري إدانة هذا الأسلوب الذي استخدمه، ولكن علينا أن نعرف كيف حصل هذا، حتى خرج واحد من أحسن مربي الحيوانات في الكولخوز عن طوره، وكيف وصل إلى هذه الحالة، عندما حضر الرفيق سيغيزبايف إليه، وهو لم يعرفه سابقاً، وكذلك لم يسلم في بداية اللقاء حسب العادات، بل باشره بالهجوم؟!

- اجلس - قال كاشكاتايف بدون رضاء - أنت تأخذنا بعيداً عن جوهر الموضوع يا رفيق كريمبيكوف. لقد أصبح واضحاً للجميع هنا - حسب رأيي - أن الشيوعي باكاسوف، قد ارتكب خطأ كبيراً، فهل هذا يجوز؟ وأين هذا من المعقول؟ فنحن لا نسمح لأحد أن يهاجم عضواً في لجنة مسؤولة بالشاعوب، وأن يساء إلى شخصيات وهيبة المسؤولين عندنا، ومن الأفضل لكم يا رفيق كريمبيكوف، أن تنظموا الأمور لديكم في الكوموسول، وذلك سيكون أفضل من أن تخوضوا نقاشاً غير مبرر عن عالم الروح والمشاعر، فالمشاعر تبقى مشاعراً، والأعمال أعمالاً، وإن ما قام به باكاسوف يجب أن يحفزنا

ويثير استغرابنا ، وبالطبع ليس لمثل هذه التصرفات مكان في الحزب ، وهنا توجه إلى تشورا سائلاً : فكيف تنظر أنت يا رفيق ساياكوف كمسؤول حزبي في الكولخوز إلى هذه المسألة؟ فأجاب تشورا ، وبدا بوجهه الشاحب المريض تعباً ومنهكاً ، وخاصة في هذا الاجتماع الطويل المضني ، وهو يقف في مكانه بهدوء :

- نعم ، إنني أؤكد على ما جاء ، ولكنني أريد أن أشرح الأمر قليلاً... فقاطعه كاشكاتايف : - ماذا تريد أن تشرح؟

- في أول الأمر ، من الضروري أن أطلب منكم أن نقوم بمساءلة الرفيق تانباي عن هذه المشكلة في المنظمة الحزبية ، فقاطعة كاشكاتايف مرة أخرى :

- هذا ليس من الضروري ، سوف تبلغون فيما بعد قرار مكتب اللجنة المنطقية ، وماذا تريدون أن تقولوا غير ذلك؟ فتابع تشورا :

- أريد أن أشرح... وهنا عاد لمقاطعته مرة ثالثة :

- ماذا ستشرح يا رفيق سايا كوف؟ فموقف باكاسوف معاد للحزب كلياً ، ولا يحتاج إلى شرح ، وأنت أيضاً تتحمل مسؤولية عما حدث ، وسوف نعاقبكم على ضعف العمل لتربية الشيوعيين ، ولماذا حاولتم إقناع الرفيق سيغيزبايف بعدم عرض المشكلة على مكتب اللجنة المنطقية؟ فهل أردت أن تخفي الأمر عنا؟ هذه تصرفات غير مسؤولة! اجلس!

بدأت النقاشات بين مدير قسم الأخبار ، وسكرتير تحرير الصحيفة المنطقية المؤيدين لكريمبيكوف ، وفي لحظة ما ، اقتنع كريمبيكوف بأنه سوف يتمكن من إنقاذ باكاسوف ، ولكنه كان مقهوراً ومحتاراً ومرتبكاً ، ولم يعد بإمكان الحاضرين الاستماع أكثر ، أما تانباي ، فكان يغوص في تاريخه ، ويتألم لهذا

الوضع الذي آل إليه: «إلى أين ذهبت كل أعمالي خلال حياتي؟ فهنا ليس من أحد يهمه ما يجري لدينا هناك في القطعان، وكم كنت مجنوناً! لقد هدمت حياتي من أجل الكولخوز، من أجل الأغنام والخراف، وأصبح كل هذا الآن بلا ثمن ولا قيمة له، فأنا الآن خطير للغاية، ولهذا لتأخذكم الشياطين بعيداً! فافعلوا معي ما تشاؤون ... إذا كان ذلك سيحل كل مشاكلكم، ويصبح الأمر أفضل، فأنا لن آسف على أي قرار تأخذونه ضدي، فخذوا قراراً بطردي من الحزب، فأمامي الآن نهاية واحدة، أدينوني، وحاكموني، ولا تأسفوا عليّ...».

قام رئيس الكولخوز ألدانوف، بإجراء مداخلة، وحسب تعابير وجهه وحركاته، رأى تانباي أن هذا الرئيس الجديد للكولخوز يعتقد أن الأمور هنا تسير ضد شخص واحد، ولكن من بالذات، فلم يصل إلى نتيجة، حتى سمع كلمات: «القيد... الرهوان، غولساري...».

- ... وماذا تفكر أنت؟ - قال ألدانوف مندهشاً، - إنه هدد تهديداً مباشراً، بأنه سوف يضرب رأسي بالحائط، مجرد أننا قمنا مضطرين بوضع قيد على أرجل الحصان غولساري، فيا أيها الرفيق كاشكاتايف، ويا أيها الرفاق أعضاء المكتب، فأنا كرئيس للكولخوز، أرجوكم أن تخلصونا من باكاسوف، ومكانه الطبيعي، حقاً في السجن، إنه يكره كل القياديين الحزبيين والإداريين، فيا أيها الرفيق كاشكاتايف، هناك خلف الباب يوجد شهود حال، وبإمكانهم أن يؤكدوا على ما قام به باكاسوف من تهديد لي، فبإمكانكم دعوتهم، وسماع شهادتهم؟

فأجاب كاشكاتايف بتقزز:

- كلا! لا حاجة الآن لهذا، يكفي ما قلته، اجلس. ثم وصلوا للتصويت.

- يوجد اقتراح واحد للتصويت عليه: فصل الرفيق باكاسوف من صفوف الحزب، فمن مع؟ فطلب كريمبيكوف الكلام لدقيقة واحدة، إذ قال:

- أيها الرفيق كاشكاتايف! أيها الرفاق أعضاء المكتب، ألسنا بعملنا هذا نرتكب خطأ كبيراً؟ إنه يوجد اقتراح آخر، أن يوجه إنذار شديد اللهجة يدخل إلى إضبارة الرفيق تانباي الخاصة، هذا بالنسبة إليه، وكما يوجه إنذار لعضو المكتب سيغيزبايف، لقيامه بتوجيه الإهانة الحزبية والإنسانية لشيوعي محترم وقديم، للرفيق باكاسوف، ولخرق سيغيزبايف القانون المتعارف عليه في التعامل الوظيفي كموظف له صلاحية في اللجنة المنطقية.

- ديماغوجيا! - قال سيغيزبايف بصوت عال.

- اهدأ، أيها الرفيق - أجاب كاشكاتايف - أنت في اجتماع مكتب اللجنة المنطقية، وليس في بيتك الخاص. أرجو المحافظة على النظام في التعامل، فالآن كل شيء مرتبط به كسكرتير أول للجنة المنطقية، وعندما جهز القضية ليس كما أراد سيغيزبايف، أن لا يُقدم باكاسوف إلى محكمة جنائية مسؤولة، ولم يقر بضرورة هذا، قال هو، ولكن في الحزب، بالطبع لن يبق تانباي، كما قال الرفيق سيغيزبايف، وهو على حق، وسوف نصوت الآن، من مع فصل باكاسوف من الحزب؟

كان عدد أعضاء المكتب في اللجنة المنطقية سبعة أفراد، فصوت ثلاثة مع فصله، وثلاثة أعضاء ضد فصله، وبقي صوت كاشكاتايف، فانتظر قليلاً، ثم رفع يده مع الفصل، ولكن تانباي لم ينظر إلى كل هذه المسرحية، فهو يعرف قرار المسؤول الحزبي مسبقاً، عندما سمع ما قاله كاشكاتايف للسكرتيرة:

- اكتبي في البروتوكول: إن قرار المكتب في اللجنة المنطقية للحزب هو: فصل الرفيق تانباي باكاسوف من صفوف الحزب. «هكذا، انتهى كل شيء! - قال تانباي في نفسه،- إنه توفي معنوياً».

- أما أنا، فأؤكد على توجيه إنذار للرفيق سيغيزبايف،- لم يستسلم كريمبيكوف - وكان بالإمكان أن لا يتم التصويت على هذا القرار، وكان من الممكن أن يؤجل، ولكن كاشكاتايف، قرر أن يكون الأمر هكذا، ويتم التصويت بهذا الشكل بالضبط، وفي هذا كان يهدف إلى أمر في نفسه، كان قد أعد له مسبقاً.

- من موافق على اقتراح الرفيق كريمبيكوف؟ أرجو رفع الأيادي!

مرة أخرى ثلاثة مقابل ثلاثة، ومرة أخرى كاشكاتايف رفع يده وعدل القرار إلى صالح سيغيزبايف، وأنقذه من المعارضين له. «ولكن، هل سيقدر هذه الخدمة ويقوم بالمطلوب؟ فمن يعرف... إنه إنسان مخادع وخبيث».

أخذ الناس يتحركون، ويتململون فوق الكراسي، إشارة منهم عن الاستعداد للمغادرة. لقد شعر تانباي أن كل شيء قد انتهى. وقف في مكانه صامتاً من دون أن ينظر إلى أحد، وتوجه نحو الباب للخروج.

- إلى أين يا باكاسوف؟ أوقفه كاشكاتايف، أترك بطاقتك الحزبية هنا.

- عليّ أن أترك بطاقتي؟ - وفقط الآن أدرك تانباي كل ما حدث اليوم.

- نعم عليك أن تتركها على الطاولة، فأنت الآن لم تعد عضواً في الحزب، ولا تملك الحق في أن تحمل بطاقة الانتساب إليه...

أخذ تانباي باستخراج البطاقة من جيبه، حيث أدخل يده تحت الفروة، وتحت الجاكيت، بينما كان الهدوء يسيطر على هذا الموقف المؤلم، أما هو، فقد كان يخفيها تحت القميص الداخلي في كيس من الجلد، أخاطته له زوجته جايدار بيديها، وكان تانباي يحمل هذه المحفظة على حزام جلد من فوق كتفه، وأخيراً تمكن من إخراج المحفظة، ففتحها وأخرج منها البطاقة الحزبية التي كانت دافئة من الحرارة عند صدره، ووضعها ساخنة مشبعة برائحة جسمه وعرقه، وبعض آثار الدم التي علقت عليها من أيام الحرب، وهكذا وضعها وبمرارة حارقة، كمن يدفن نفسه بنفسه فوق طاولة باردة وتلمع من الطلاء أمام كاشكاتايف.

لقد انكمش على نفسه كأنه قد تعرى من ثيابه، وأحس بقشعريرة البرد تجتاحه، فأخذ يعيد المحفظة إلى تحت الجاكيت، كأنها لم يعد لها قيمة وأخذ يستعد للخروج، وفجأة سمع صوتاً يناديه من خلف الطاولة، لقد كان هذا صوت كريمبيكوف المتعاطف معه، إذ قال:

- الرفيق باكاسوف، أنك لم تقل رأيك بهذا، فماذا أنت قائل؟ ربما كان هذا الأمر صعباً بالنسبة إليك؟ ونحن على ثقة أن الأبواب مفتوحة أمامك للعودة إلى الحزب، ولا يملك أحد القدرة على إغلاقها إلى الأبد، وبإمكانك عاجلاً أو آجلاً أن تعود إلى حزبك، فأرجو أن تقول، بماذا تفكر الآن؟

التفت تانباي كمن طعن في ظهره طعنة مميتة، وشعر بحرج أمام هذا الشاب الذي لا يعرفه والذي اجتهد وما زال يحاول أن يخفف من هذه المصيبة المرة التي هبطت على كتفيه.

فقال بصوت خافت وحزين:

- مـاذا علـيّ أن أقـول؟ لم أعـان في حيـاتي مـن موقـف صـعب كهذا، وعلى كـل حـال، مـن الصـعب أن تقنـع الجميـع، وأقـول شـيئاً واحداً، إنني لسـت مخطئاً في أي شـيء حتـى لـو أنـني رفعـت يـدي كـي أضربه آنذاك، وشتمته بكلمات سيئة، فلم يكن باسـتطاعتي في هـذا الاجتماع أن أشرح لكم كل شيء، فهذا ما عندي، وسنرى فيما بعد.

حلت فترة من الصمت المميت.

- إحم، هذا يعني أنك غاضب من الحزب؟ - قـال كاشـكاتايف بصوت متقطع، - فهل تعرف أيها الرفيـق، أن الحـزب يحـاول أن يهـديك إلى طريق الرشد، وها هو ينقـذك مـن المحكمـة، وهـا أنـت غـير راضٍ، ولكنك ما زلت غاضباً من الحزب! هذا يعني أنك حقـاً لا تسـتحق لقـب عضو الحـزب، ومـن الصـعب أن تُفـتح لـك الأبـواب مـرة ثانيـة حتـى تعـود إليه!

خـرج تانبـاي مـن بنـاء اللجنـة المنطقيـة هادئـاً مـن حيـث منظـره الخـارجي، بل هادئ جداً وهذا كـان سيئاً. كـان النهـار جميـلاً دافئـاً، وهـا هو المسـاء يقترب تـدريجياً والشـمس مـا زالـت تسـطع بقـوة، وكـان الناس يسيرون ويسافرون راكبين شتى الوسائل لقضـاء حـوائجهم، أمـا الأولاد فكانوا يركضون ويلعبون في السـاحات القريبة مـن النـادي. أمـا تانباي، فقد نظر إلى كل شيء من حوله بتقزز. نعم كـان يكـره كـل شيء، حتى أخذ يكـره نفسـه، وكـان يفكـر بقـرارة نفسـه: حبـذا لـو غـادرت مـن هنـا بسـرعة إلى الجبـال، إلى أسـرتي قبـل أن يحصـل معهـم شيء سيئ أيضـاً، وفي مـربط الخيـل، فـوجئ بـأن الحصـان المربـوط إلى جانـب فرسـه، كـان غولسـاري، واسـتغرب كيـف أصـبح هـائلاً في جسـمه، طـويلاً وقـوي العضـلات النـافرة، وأخـذ حسـب عادتـه عنـدما يرانـي، ينقـل رجـلاً، ويهـبط علـى الأخـرى، وكـأنـه يـرقص فرحـاً

برؤيتي، وعندما اقترب تانباي، نظر إليه بهدوء وثقة بعينيه السوداوين. لقد نسي الرهوان كيف أخذ يضربه تانباي بالشاعوب على رأسه، ولهذا إنه حصان أصيل حقاً، وربما كان يفهم السبب! فقال له هامساً:

- انس يا غولساري! لا تغضب مني، وغصت حنجرته بمرارة، فأنا عندي مصيبة مُرة، إنها مصيبة كبيرة حقاً، وشهق بحرقة وغمر رقبة حصانه الحبيب بكلتا يديه، وكان يحب أن يبكي بلوعة، لولا أنه أحجم عن ذلك خجلاً من المارة.

امتطى صهوة فرسه وغادر إلى البيت.

لحق به تشورا عند مرتفع ألكسندروفسك، ومجرد أن سمع وقع خطى حصان يمشي خلفه، أدرك من دون أن يلتفت أن الحصان هو غولساري، إذ عرف إيقاع صوت حوافر الرهوان. عظ تانباي على شفتيه بغضب واكتئاب من دون أن ينظر خلفه. لقد خيم عليه الحزن من الغبن، وأقفل على الروح، وانبسطت الظلمة فوق العينين. أما تشورا الحالي، لم يعد يشبه من قريب ولا من بعيد تشورا المبدئي القديم قوي الشخصية، وها هو اليوم - كفى أن يرفع كاشكاتايف صوته قليلاً، حتى جلس تشورا بخشوع في مكانه كتلميذ مهذب في المدرسة، وماذا بعد هذا؟ الناس يثقون به، بينما يخاف هو قول الحقيقة، ليحافظ على نفسه، وكذلك يختار الكلمات المناسبة حتى لا يزعج القيادات، فمن علمه على هذا؟ لنفرض أن تانباي مجرد إنسان متخلف كادح بسيط، ولكن تشورا، فهو إنسان متنور، ويعرف الكثير، وطيلة حياته كان عضواً قيادياً في المنطقة، فهل يا ترى لا يذكر تشورا هذا؟ أن كل شيء ليس كما يجب أن يكون، وخاصة ما يقوله سيغيزبايف وكاشكاتايف! ويغلفون كلماتهم من الخارج بكساء حسن، أما في الداخل، فهي كاذبة وفارغة، فمن يخدعون،

ومن أجل ماذا؟ إنهم عقارب حقاً. لم يلتفت تانباي برأسه إلى الخلف عندما لحق به تشورا آنذاك، وسار إلى جانبه وهو يشد على لجام الرهوان الجامح، وقال ملتقطاً أنفاسه:

- لقد فكرت يا تانباي، أننا سنخرج معاً، ونظرت من حولي، فلم أجدك... فقال تانباي بامتعاض دون أن ينظر إلى تشورا، ثم أضاف طالباً منه:

- ماذا تريد؟ اذهب في طريقك، فأجاب تشورا:

- تعال نتحدث، ولا تبتعد بنظرك عني يا تانباي، فلنتحدث كصديقين ورفيقين شيوعيين قديمين، ولكن تشورا تذكر قرار الفصل، فتوقف عند نصف الكلمة.

- أنا لست صديقاً لك، زد على ذلك فأنا لست شيوعياً الآن، وأنت أيضاً منذ زمن بعيد لست بشيوعي. أنت تحاول أن تظهر بهذه العباءة، وبتلك الشخصية...

- هل أنت جاد فيما تقول؟ - سأل تشورا، وقد اختفى صوته تقريباً.

- بالطبع، أنا جاد في هذا، ولم أتعلم بعد أن أقول كلاماً منمقاً، ولم أتعلم أيضاً، متى وكيف، وماذا أقول في حالات مختلفة، فأنا لا أجيد التمثيل، فوداعاً يا تشورا: طريقك مباشرة، وطريقي من هنا، واستدار تانباي بحصانه إلى طريق فرعي من دون أن يلتفت مودعاً بالكلام ولا بالنظر. زد على ذلك، أنه لم ينظر إلى وجه تشورا ولا مرة وهو يسير في الحقل، قبل أن يصعد في طريق الجبل.

- لم يلاحظ تانباي، كيف بدا تشورا شاحب الوجه، وكأنه قد خرج من عالم الأموات، وكم كان يرغب تشورا بأن يستوقف صديقه القديم، ويسحبه من يده، وعندما ابتعد تانباي عنه، أحس

بالمصيبة، وأخذ العرق يتصبب منه، وأمسك بصدره من جهة القلب، وهوى يلتقط الهواء متقطعاً بفمه المفتوح، وكأنه قد نجح في البحث عن المصيبة المرة، فتمسك بعرف الرهوان حتى لا يقع على الأرض.

- آه، إنني أشعر بسوء، - همس تشورا، وأخذ يتلوى فوق صهوة حصانه، والآلام تزداد في قلبه، - أوي! إن وضعي قد ساء! شخر بقوة، وأخذ لون وجهه يميل للزرقة وهو يختنق. - أسرع يا غولساري إلى البيت، يا غولساري بسرعة.

حمله الرهوان على طرف من السرعة إلى القرية، عبر طريق في سهوب صحراوية غير مطروق. لقد خاف الحصان من شخير الخيال الذي يتمسك بعرفه، وهو يسمع أصواتاً لم يألفها سابقاً، وتنم عن ألم هائل لا يطاق. ضم غولساري أذنيه خائفاً، وأخذ يشخر مسرعاً، أما الإنسان فوق السرج، فقد كان يتعذب ويتلوى ألماً، ويرتعد وهو يتمسك بيديه وأسنانه بعرف الحصان، وأخيراً، وقع المقود من يده، وكاد يسقط من فوق رقبة الحصان المسرع في عدوه.

20

في تلك الساعة المتأخرة، عندما كان تانباي في طريقه عبر الجبال، كان ينطلق الحصان غولساري مسرعاً وفوقه خيال مما أثار حنق الكلاب، فانطلقت تعوي.

- إيه، - أخذ ينادي أصحاب البيت. - اخرجوا! - صاح تشورا منادياً إلى الاجتماع الحزبي: - أسرعوا إلى الإدارة.

هب الناس الذين كانوا في البيت:

- ماذا وراء هذا؟ لماذا هذه السرعة؟

- لا أعلم،- أجاب الرسول،- لقد أمرني تشورا أن أدعو سكان القرية إلى الاجتماع، وهكذا اجتمع أغلب سكان القرية.

أما تشورا، فقد جلس في هذا الوقت في الإدارة، وهو يتلوى من جنب لآخر، وقد استند إلى الطاولة منحنياً إلى الأسفل، وهو يختنق من السعلة، ويدلك صدره تحت قميصه، وأحياناً يصرخ من الألم، ويعظ شفتيه، وهنا ظهر العرق البارد على وجهه المائل للزرقة، وغرقت عيناه في محجريهما بفجوات مظلمة، وأحياناً كان يغيب عن الوعي، ويتخيل أنه على ظهر الحصان الرهوان يحمله مسرعاً في الطريق السهبي المظلم. كان يريد أن يصرخ بأعلى صوته: تانباي، أما ذاك فقد ابتعد وهو ينطق بكلمات حارة كالفحم الملتهب، ولا يلتفت، وتحرق كلمات تانباي قلب تشورا وتكوي روحه من كل الجهات...

لقد حضر المسؤول الحزبي بعد أن التقوا به مصادفة في الإسطبل لدقائق، وقد عانى هناك قليلاً فوق الثلج. أراد الخيالة، الذين يحضرون إلى المقر الحزبي، أن يحملوه إلى البيت، ولكنه لم يوافق، فأرسل شخصاً يدعو كافة الشيوعيين للحضور، وهو سوف ينتظرهم دقيقة بعد أخرى.

أشعلت السكرتيرة المصباح، وتركت تشورا وحيداً، وأخذت تشعل الموقد في الغرفة الأمامية، وتنظر أحياناً عبر الباب المفتوح، وتتنهد متأوهة وتهز برأسها.

كان تشورا ينتظر الناس، والوقت كان يمضي ثانية بعد أخرى، ومرة هذه الثواني ببطء قاتل، فقد عوضت عن كل الثواني والدقائق والساعات التي تم هدرها بلا فائدة، والذي أدرك تشورا قيمتها الآن، بعد أن عاش حياة طويلة، إذ لم يعر اهتماماً لقيمة الزمن الذي كان يمر بسرعة، حتى مضت سنوات العمر، وتبين له في آخر حياته، أنه لم ينجز شيئاً ما أراد انجازه، ومضت السنوات في العمل والمشاكل الحياتية، ولم يحصل أي تغيير مهم، رغم اجتهاده قدر

الإمكان، وعارك كما استطاع، ولكنه كان يتراجع أحياناً، حتى يتجاوز الزوايا الحادة التي يصعب السير فيها، ولكنه، ومع الزمن، قد ألف هذه الزوايا والانعطافات والانكسارات، ولم يحاول أن يدور من حولها، وكانت تشده دائماً إلى الجدار تحت تأثير تلك القوة التي اضطر أن يصطدم معها، والآن أصبح الابتعاد عنها غير ممكن، فلقد انتهى الطريق. آه، كم كان رائعاً لو انتبه إلى كل هذا قبل هذه النهاية البائسة التي اضطر فيها أن يجبر نفسه على النظر للحياة بعينين يقظتين واقعيتين!

انتظر تشورا، بينما مرت الثواني صعبة ومرة، وقد تأخر الناس كثيراً، فكم من الوقت يمكن انتظارهم، عسى أن أجد الوقت الكافي! - هكذا كان يفكر تشورا، وكان يرتعد خائفاً أن يموت، ويفوت الأوان قبل أن يقول كل شيء، وبصورة صامتة، وبصرخة يائسة كان يتمسك بالحياة، التي تفارقه. لقد ثبت رجليه بقوة على الأرض، وجهز نفسه للمعركة الأخيرة في حياته، إذ قال: سأتحدث لكم عن كل شيء، كيف كان الأمر، وكيف تم اجتماع المكتب، وكيف فصلوا تانباي من الحزب، وليعلم الجميع: إنني غير موافق على هذا القرار للجنة المنطقية، سأقول كل شيء عن ألدانوف، وليستمع الناس ماذا سيقول هذا الشخص بعدي، وليتخذ الشيوعيون القرار الصحيح، وسوف أحدثكم عن نفسي بكل شيء، ومن أنا في واقع الأمر، وعن الكولخوز الذي نعيش فيه، وسأتحدث عن الناس... ولكن عسى أن لا يفوتني الوقت، فحبذا لو جاء الناس بأسرع ما يمكن...

أول إنسان وصل إلى المكان، كانت زوجتي مع الدواء. لقد هلعت، وبكت بمرارة:

- هل أنت في كامل عقلك؟ هل يا ترى لم تشبع بعد من هذه الاجتماعات؟ لنذهب إلى البيت، انظر لنفسك، انظر في أي حال أنت، آه يا إلهي، عليك أن تفكر بنفسك قليلاً!

لم يرغب تشورا بالاستماع والإصغاء إليها، وعندما أخذ حبة الدواء، أخذت أسنانه تطرق ببعضها فوق حرف كوب الماء، بينما سال الماء على صدره من جانبي فمه.

- لا بأس، لقد أصبح وضعي أفضل - همس هو بهدوء، وحاول أن يتنفس باتزان بلا إجهاد وارتباك. - أنت انتظري هناك، سوف نغادر معاً بعد الاجتماع، لا تخافي فإن كل شيء سيكون تماماً.

وعندما سمع من جهة الشارع أصوات الناس وقرقعة أحذيتهم، استقام تشورا خلف الطاولة، وكتم الألم في نفسه، وجمع كل قواه حتى ينفذ ما كان يريد أن يفعله كدين عليه.

- سأله الناس: ماذا حدث؟ ما الذي جرى معك يا تشورا؟ فأجاب:

- لا شيء، الآن سأقول لكم. انتظروا قليلاً حتى يحضر الجميع. أما الزمن، فقد أضاف مجموعة نقاط مُرة وأليمة.

عندما اجتمع الشيوعيون، قام المسؤول الحزبي تشورا ساياكوف من خلف الطاولة، وخلع القبعة عن رأسه احتراماً، وأعلن عن بدء عمل اجتماع الشيوعيين في الكولخوز.

21

عاد تانباي إلى بيته في الليل متأخراً، فخرجت جايدار إلى الساحة مع المصباح، إذ كانت تنتظره وعيناها شاخصتان نحو الطريق.

أدركت كل شيء من النظرة الأولى، وأية مصيبة حلت بزوجها. خلع لجام الحصان، ثم خلع السرج عن ظهره، أما هي فقد كانت

ترفع المصباح كي يرى ما يفعل، أما هو فلم يقل لها شيئاً. «حبذا لو أنه كان قد شرب الكحول في المنطقة، لكان الأمر قد أصبح سهلاً عليه، ونسي قليلاً من مصيبته» - أخذت جايدار تفكر في أمره. أما هو فقد تابع صمته، وقد أصبح الوضع بالنسبة إليها مخيفاً للغاية، ولا يطاق، وخاصة أنه استمر بهذا الصمت القاتل، أما هي فقد جهزت نفسها لتقول له شيئاً يطمئنه ويرتاح إليه، إذ أتوا اليوم بالأعلاف، حقاً أنها كمية قليلة، ولكن لا بأس، أحسن من لا شيء وأتوا بالتبن والطحين والشعير وأصبح الجو دافئاً، وقمنا بسوق الخراف إلى المرعى في أول مرة، وتنعمت الخراف برعي الأعشاب الخضراء. فقالت له باختصار في بداية الأمر:

- أخبرك أنه أتى راع جديد، واستلم قطيع بيكتاي.

- ليذهب هو وبيكتاي إلى الشيطان، ومع قطيع أغنامه.. فسألته:

- لقد تعبت جداً؟

- عن أي تعب تتكلمين؟ لقد فصلوني من الحزب! فذهلت جايدار، وقالت:

- أخفض صوتك، حتى لا تسمع المعاونة هذا النبأ؟

- لماذا عليَّ أن أخفض صوتي، فماذا عليّ أن أخفي؟ لقد طردوني كآخر كلب وانتهى الأمر، وكأنني أستحق هذا، وهذا ما تستحقينه أنتِ أيضاً، وهو قليل بحقنا، فماذا بك تقفين؟ وماذا تنتظرين؟

- اذهب واسترح.

- أنا أعرف ما عليَّ أن أفعل.

ذهب تانباي إلى الزريبة يتفحص الأغنام، ثم عرج إلى الحضيرة واستطلع وضع الخراف، ومن جديد عاد إلى الزريبة، وأخذ يدور حول الأغنام، ثم عاد إلى البيت، ولكنه لم يجد لنفسه مكاناً، ورفض أن

يأكل شيئاً، كما رفض أن يتحدث، وارتمى على القش المجمع في زاوية اليورتا محطم الجناح، واستلقى بلا حراك. وبهذا فقدت الحياة والأعمال والأفكار وكل شيء من حوله أهميتها ومعناها، ولم يعد تانباي يرغب بأي شيء، حتى لم يعد يحب الحياة، ولم يرغب بالتفكير، ولم يرغب برؤية أي شيء من حوله.

تقلب في مكانه، وكان يرغب بالنوم ونسيان كل شيء، ولكنه لم يغف، فكيف له أن يهرب من ذاته؟ فظهر في مخيلته بيكتاي، وتذكر كيف شاهد الآثار السود لجزمته فوق الثلج الأبيض، وكيف عجز عن الإجابة، وتذكر ثانية كيف أخذ سيغيزبايف يصرخ من فوق الحصان الرهوان، وكيف شتمه بأسوأ الكلمات، وهدده بأنه سوف يسجنه، وتذكر الكلام عنه في اجتماع اللجنة المنطقية كمخرب وعدو الشعب. وبهذا انتهت حياته، وانتهى كل شيء، ومن جديد أراد أن يمسك الشاعوب، ويهجم على سيغيزبايف بأعلى صوته، وأن يركض طوال الليل، وأن يصرخ بأعلى صوته وعلى الملأ لكل الكون، حتى يسقط في هوة ويكسر رقبته وينتهي.

أخذ يفكر، وهو يحاول الهروب إلى النوم، من الأفضل أن يموت، من أن يتابع هذه الحياة، نعم، نعم من الأفضل الموت!...

استيقظ تانباي، وهو يشعر بآلام حادة في رأسه، ولعدة دقائق لم يكن قادراً على إدراك أين هو، ومع من، وماذا جرى بالنسبة إليه، وما عليه أن يفعل الآن، وإلى جانبه كانت بعض الأغنام تثغو منادية خرافها، مما جعله يدرك أنه في الزريبة، وعم بهيق الفجر في الساحة، وأخذ يفكر، لماذا استيقظ هو؟ ومن أجل ماذا؟ كان من الأفضل أن لا يستيقظ مطلقاً، ولم يبق إلا الموت، عليّ أن أنتحر..

☆☆☆

... ثم نهض وشرب الماء براحتي كفيه من النهير، أما الماء، فكان بارداً جداً مع بعض القطع الجليدية الناعمة، وقد سال من بين أصابع يديه المرتجفتين، أما هو فقد غرف الماء بكفي يديه، وأخذ يشرب ثانية، وثالثة، والماء يبلل صدره وثيابه. تنفس الصعداء وعاد إلى نفسه، وفقط في تلك اللحظة، أدرك كم هي غبية وتافهة وسخيفة تلك الفكرة التي راودته بخصوص الانتحار، وتصور كم هو عظم الغباء عندما يفكر الإنسان بقتل نفسه، ويحرمها من الحياة التي تعطى له مرة واحدة؟! وهل آل سيغيزبايف جميعهم يستحقون هذا؟ كلا، تانباي سوف يعيش، وسوف يقلب الجبال رأساً على عقب، رغم أنوف الحاقدين.

عندما عاد إلى اليورتا، أخفى سلاحه بسرية، وعمل طوال النهار بنشاط وتركيز، وحاول أن يكون لطيفاً مع زوجته، ومع ابنتيه، ومع المرأتين المعاونتين، ولكنه كان يضغط على نفسه، ويضبط أعصابه، حتى لا تشك النسوة في أمره، أما بالنسبة إليهن، فقد عملن وكأنه لم يحصل أي شيء، وحقاً لم يحصل شيء على وجه الخصوص، كل شيء على ما يرام، ولقد كان تانباي شاكراً لهن على صمتهن، ومتابعة أعمالهن بهدوء، فذهب إلى المرعى وساعدهن على إعادة القطيع إلى الزريبة وتنظيم بعض الأمور.

في المساء ساء وضع الطقس. سينزل المطر أو سيتساقط الثلج، فسيكون شيء ما، وخيم الظلام على الجبال من كل صوب، وتثاقلت السماء بكميات كبيرة من الغيوم، وكان عليه أن يفكر ثانية كيف من الممكن أن ينقذ الولادات الجديدة من البرد، وكان من الضروري تنظيف الحظائر، وأن يتم فرش القش، حتى لا يعود الوباء من جديد. قطب تانباي حاجبيه، ولكنه حاول أن ينسى ما كان، وحتى لا يعود إلى حالة الاكتئاب ثانية.

انتشـرت الظلمـة في كـل مكـان، وعلـى حـين غـرة ظهـر خيـال قـادم بسـرعة، فاسـتقبلته جايـدار، وتحـدث عـن شـيء مـا معهـا، أمـا تانباي، فلقد كان يعمل في هذه الأثناء في الحظيرة، فنادته زوجته:

إيـه تانبـاي! أخـرج لدقيقـة، يوجـد شـخص يسـأل عنـك، وحسـب طريقة النداء ونبرة مخاطبتها له، أحس تانباي بشـيء لا يسر الخاطر.

خرج تانباي وسلم على القادم، فعرّفه الراعي على نفسـه أنـه مـن الرعاة المجاورين، فعرفه تانباي، إذ قال:

- هذا أنت، أيتباي؟ انزل عن الحصان. من أين أنت قادم؟

- من القرية. لقـد كنـت هنـاك في العمـل، وطلبـوا مـني أن أبلغـك أن تشورا مريض جداً، وقـالوا إنـه يطلبـك للضـرورة، وعليـك أن تحضـر إليه.

«مرة أخـرى يظهـر في عـالمي تشـورا!». فاشـتعلت نـار الغضـب الـتي كانت على وشك الانطفاء. لم يرغب أن يراه ثانية بعد كل مـا حصـل، وقال تانباي:

- ومـاذا يريـد مـني، فهـل أنـا طبيـب؟ إنـه مـريض بصـورة دائمـة، والمشاغل كثيرة عندي من دونـه، لقـد وصلت الأمـور إلى حنجرتـي، زد علـى ذلـك، فـانظر إلى الطقس، فهـو يسـوء دقيقـة بعـد دقيقـة، فـأجـاب الرسول:

- الأمـر يعـود لـك يـا عـم، تسـافر أو لا تسـافر، أنـت تعـرف مصلحتك. فأنا بلغتك ما طلبوه مني، وإلى اللقاء، حان الوقت، ولم يبـق إلا أن تعم الظلمة.

ركب أيتباي حصانه، ولكنه توقف ليقول:

- عليـك أن تفكـر جـدياً بـالأمر يـا عـم، فهـو في وضـع سـيئ، وطلبـوا مـن ابنـه أن يقطـع الدراسـة ويعـود إلى البيـت، وتـركتهم يعـدون

أنفسهم لمحطة القطار لاستقباله. وبعد أن أنهى الشاب كلامه، قال تانباي:

- شكراً لك يا أيتباي، أنك أوصلت الرسالة، ولكنني لن أسافر، وهنا قاطعته جايدار محاولة أن تخجله أمام الضيف، إذ قالت:

- سيسافر، فلا تقلقوا، سيذهب. فصمت تانباي، وعندما غادر أيتباي من الساحة، قال لزوجته حانقاً:

- أنتِ، اتركي هذه العادة، بأن تجيبي عني، فأنا أعرف ما أقول. قلت، لن أسافر، هذا يعني أنني لن أذهب، فحاولت جايدار ثانية أن تقنعه قائلة:

- فكر جدياً بما تقول يا تانباي، هذا صديقك ورفيقك، فماذا سيقول الناس عنك! فأجابها مؤكداً:

- ليس أنا الذي سيعيد تفكيره بأي شيء، يكفيني، لقد فكرت مطولاً حتى قاموا بطردي من الحزب، لا يوجد عندي شيء أفكر به بعد الآن، وفي حال مرضت، لن أدعو أحداً للقدوم إليّ، وسأموت وحيداً! ولوح بيده على كل القلوب والمشاعر وعاد إلى الحظيرة.

أما روحه، فقد كانت تقلقه للغاية. قام بمساعدة النعاج في الولادات، وكان يفرش القش، ويضع الخراف الوليدة عليها، ويرضعها اللبأ لأول مرة، ويشتم النعاج التي تثغو بأصوات عالية، وأخذ تانباي يحدث نفسه:

- لو ارتحلت منذ زمن لكان الأمر أسهل عليّ، ولما كنت عانيت هكذا، فأمضيت حياتك بالمرض والأنين، وتمسك قلبك بيدك، ولكنك وفي الوقت نفسه كنت لا تنزل عن ظهر الحصان، يا لك من مدير فريد من نوعه فلا أرغب برؤيتك بعد كل ما حصل.

تزعل أو تغضب، فالأمر يعود إليك، أما أنا، فقد انزعجت من تصرفاتك، وهذا يخصنا نحن الاثنين، وليس لأحد شأن في علاقتنا...

عمت الظلمة القاتمة حول البيت، وبدأ الثلج بالتساقط شيئاً فشيئاً، وعم الهدوء الشفاف في كل مكان حتى إنه كان يسمع صوت الثلج المتساقط على الأرض.

لم يذهب تانباي إلى اليورتا، وتهرب من الحديث مع زوجته، وهي لم تأت إليه، إذ فكر هو في نفسه «لا تريدي أن تأتي إليّ، هذا شأنك، ولكن ليس بإمكانك أن تجبريني على السفر، فالأمر بالنسبة إليّ سيان، وأنا وتشورا رجلان غريبان، فله طريقه، ولي طريقي، كنا أصدقاء، أما الآن، فلم نعد هكذا. وإذا كنت صديقاً له، أين كان قبل الآن؟ كلا، فالأمر بالنسبة إليّ ليس بذي أهمية...».

أما جايدار فلم تصبر طويلاً، فجاءت إليه وهي تحمل المعطف والجزمة الجديدة والحزام، والقفازات والقبعة الشتوية، التي كان يرتديها عندما يذهب إلى جهة ما، وقالت له:

- ارتدي ثيابك. - فقال لها:

- من العبث أنك تجتهدين، فأنا لن أذهب إلى أي مكان، فقالت له جايدار بهدوء ورزانة:

- اسمعني يا تانباي، إنك لن تغفر لنفسك هذا الذنب إذ حصل ما لا نتمناه لتشورا، وستبقى نادماً على نفسك طوال حياتك، ولكنه ركب رأسه، وتابع عناده قائلاً:

- لا، لن أندم على شيء، ولا تخافي، فلن يحصل معه أي شيء سيئ - فسيرتاح وينهض، وهذه ليست المرة الأولى التي يمرض فيها، وهنا احتدت جايدار وقطبت حاجبيها قائلة:

- اسمع يا تانباي، لم أطلب منك في حياتي طلباً ما بإلحاح، أما

الآن فإنني أطلب منك هذا بإصرار، ولا أعرف ما السبب. أعطني غضبك وحنقك، وضع على كتفي مصيبتك وانطلق وسافر، وكن إنساناً. فأجاب تانباي وهو يعاند بشدة، ويهز برأسه رافضاً:

- كلا، لن أسافر، فلم يعد الأمر يهمني بعد الآن. أنتِ تفكرين عن العادات والتقاليد والواجبات، وتخافين مما يقوله الناس، أليس كذلك؟ أما أنا الآن فلا أريد أن أعرف شيئاً عن هذه الأمور. أما جايدار، ورغم هذا العناد، فقد تابعت تحثه قائلة:

- فكر جيداً يا تانباي، فأنا سأذهب الآن، وأطلع على وضع الخراف، وعسى أن لا يقع النار فوق اللباد.

ذهبت جايدار تاركة له ثيابه، ولكنه لم يتحرك من مكانه، وبقي جالساً في الزاوية، فهو لم يقدر أن يغير موقفه من هذا الأمر، ولم يتمكن من نسيان تلك الكلمات التي قالها له تشورا. أما الآن، فكيف سأسافر هذه المسافة الطويلة، لأمثل في بيتهم، وأقول: «السلام عليكم، لقد جئت لرؤيتك، فكيف صحتك، فهل تريد أية مساعدة مني؟». كلا، ليس بإمكان تانباي أن يفعل هذا، فهو لم يتعود عليه سابقاً، ولن يفعله لاحقاً.

عادت جايدار وسألته:

- ما زلت جالساً؟ ولم ترتد ثيابك بعد؟

فقال لها بامتعاض:

- لا تضجريني، إنني قلت لك: لن أسافر... فصرخت جايدار بحدة:

- قف، وهنا استغرب ذاته، حيث هب واقفاً ملبياً طلبها كالمجند المطيع لسيده. خطت خطوات عدة نحوه، ونظرت من خلال نور الصباح الخافت إلى عينيه المندهشتين المعذبتين، ثم قالت: - إذا لم تكن رجلاً، ولست بإنسان، وعجوز لا قيمة له، فأنا سأذهب

مكانك، وأنت ابق هنا، وقم بمساعدة الأغنام على الولادة! فسأذهب الآن على الفور، اذهب وضع السرج على الحصان، اذهب بسرعة!

ذهب حسب طلبها، وأخذ يضع السرج على الحصان، وفي ساحة البيت تساقط ثلج، وبدت الظلمة كأنها تدور من حولنا صامتة، كما تدور المياه في بئر عميق، ولم يكن بالإمكان تمييز الجبال عن بعضها، فما زالت الظلمة تعم الكون. فكر تانباي في نفسه: «يا له من عقاب أليم!- فإلى أين ستتجه في هذه الظلمة؟ - وهو يربط أحزمة السرج - ومن الصعب أن تقنعها لعنادها، كلا، لن تغير موقفها، حتى لو قتلتها، لن تتراجع، وكيف سيكون الأمر لو تاهت في هذه الليلة الثلجية؟ دعها وشأنها، فلتتحمل هي المسؤولية...».

أسرج تانباي الحصان، وتراكم الخجل ثقيلاً في عالمه المتناقض: فهل أنا أقرب إلى الوحش منه إلى الإنسان؟

- نعم وحش، وليس بغيره. لقد جننت من الحنق. فأتصور كل ما يدور حولي، كم أنا إنسان بائس، وكم أعاني من مصائب، ولقد غضبت زوجتي مني أيضاً، وما ذنبها في كل هذا؟ ولماذا أعذبها هكذا؟ فلن أحصل على خير في حياتي، فأنا إنسان فاشل، ووحش مغرور.

تردد تانباي، ولم يكن من السهل عليه أن يتراجع في كلامه. عاد مع الحصان وهو حانق مطأطئ الرأس، وينظر إلى الأرض، فسألته جايدار:

- هل وضعت السرج على الحصان؟ فأجابها بهدوء:

- نعم، فقدمت جايدار له المعطف، وهي تقول: هل اقتنعت بالسفر؟.

أخذ تانباي المعطف، ثم وضعه على كتفيه وبصمت أخذ

يرتديه مع شيء من الابتسام، وفرح أن زوجته الأولى قد أمضت حياتها معه مسالمة. على كل حال، ومن باب التظاهر، أخذ يعالج قليلاً:

- أليس من الأفضل أن أذهب عندما يحل الصباح؟

فأجابته جايدار:

- كلا، الآن ستذهب. في الصباح سيكون الوقت متأخراً.

انتشرت حالة من الهدوء مع تساقط الثلج الناعم، وتراكمت على الأرض كمية من الثلج الأخير في هذا الربيع. وها هو تانباي يسرع على حصانه بين الالتواءات والممرات الجبلية المظلمة، ويحث حصانه القوي الذي كان يلبي أياً كان من طلبات صديقه عند الضرورة. تجمع الثلج على قبعته الشتوية، وكذلك على كتفيه ولحيته ويديه، بينما كان يجلس تانباي فوق سرج الحصان من دون حراك، ومن دون أن يتدخل في تحديد طريقه ومسيره. وهكذا كان من الأفضل له أن يفكر بصديقه تشورا، وبأشياء أخرى كانت فيما بينهما، وعن كل شيء كان يوحد مواقفهما خلال سنوات طويلة، بدءاً من تلك الأيام، التي بدأ فيها تشورا بتعلم محو الأمية، وعندما دخلا إلى منظمة الكومسومول معاً في آن واحد، وفيما بعد، دخلا إلى الحزب معاً. كما تذكر كيف عملا معاً في شق القناة، وكيف حمل تشورا له أول جريدة حيث نشرت ربورتاجاً عنه، كما نشروا له صورة كأحد النشطاء في العمل، وكان تشورا أول من شد على يده مهنئاً.

أخذ تانباي يتناسى السيئات، ويركز على الإيجابيات، حيث رق روحياً، وهو يتذكر تاريخ علاقتهما الطويلة، ولقد أحس بقلق خاص، وعواطف جياشة مضطربة: «كيف وضعه هناك؟ وربما أنه في هذه المرة أصيب بنكسة شديدة وخطيرة، ويعاني معاناة أليمة؟ ولو لم يكن الأمر كذلك، لما طلبوا قدوم ابنه، وقطعوه عن دراسته؟ وقدوم

الأصدقاء القدامى ليقول لهم شيئاً ما؟ أو أن يتشاور معهم في بعض المسائل؟...».

عم بريق الثلج، حتى باتت الجبال والهضاب بثوب واحد، بينما كان الثلج متابعاً التساقط من دون توقف.

حث تانباي الحصان، ولسعه بسوط حتى أخذ ينهب الأرض نهباً، وقريباً سيتجاوز المرتفعات والمنحدرات، ثم تظهر القرية، وكيف حال تشورا هناك فيها؟ حبذا لو أصل بسرعة.

وفجأة وفي هدوء الصباح، جاء صوت بعيد، وغير مفهوم من جهة القرية، وبدا هناك صراخ لثانية واختفى كلياً. استوقف تانباي الحصان، وأصغى حتى يلتقط أي صوت، ولكنه لم يوفق في ذلك. يبدو أنه هكذا قد خيل إليه.

حمل الحصان خياله تانباي إلى المرتفع، ثم هبط نحو الحدائق والبساتين، وبين البيوت في القرية كانت تمتد الطرقات في الكولخوز خالية، وفقط أمام بيت واحد في القرية، كان عدد غفير من الناس يشكلون كتلة سوداء، وتحت الأشجار كانت تقف خيول بسروجها، وكما يبدو أنه بيت تشورا، فلماذا اجتمعت كل هذه الخيول مع هذا العدد من الناس؟ فماذا حدث؟ وهل حصل...

وقف تانباي على الركابين، حتى يستطلع ما في الأمر، وفجأة فتح فاهه مرتعداً، إذ ابتلع كمية من الهواء الشوكي البارد، وجمد على وضعه. ثم ساق الحصان بقوة عبر الطريق إلى الأسفل، وأخذ يحاكي نفسه: «لا، من غير الممكن! كيف حصل هذا؟ من غير الممكن!» أخذ تاناباي يعاني من أزمة روحية خانقة كأنه هو الذي كان السبب في كل ما حصل، إذا صدقت توقعاتي، فتشورا هو الصديق الوحيد له، ولقد طلب حضوري إلى الوداع الأخير، والفراق

الأبدي، وهو يصارع الموت، وكنت أرفض القدوم، وشحذت غضبي وحنقي على صديقي، فمن كنت أنا بعد كل هذا؟ ولماذا لم تبصق جايدار في عيني؟ ومن المعروف أنه لا يوجد أي شيء في الكون أكثر قدسيه من تلبية الطلب الأخير للإنسان الذي يرتحل وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة؟

ها هو تانباي يقترب الآن من المكان الذي شهد الحوار بينه وبين تشورا، عندما لحق به تشورا فوق الحصان الرهوان، وماذا أجابه آنذاك؟ وهل من الممكن أن يغفر لنفسه هذا الموقف؟

مشى تانباي في الشارع المكسو بالثلج، وكأنه في حالة من الهذيان منحنياً تحت وقع خطاه الثقيلة وخجله القاتل، وفجأة شاهد أمامه عند ساحة بيت تشورا، مجموعة كبيرة من الخيول والناس يركضون صامتين في كتلة بشرية متحدة مع الخيول، وهم يصرخون في صوت واحد، ويهتزون فوق سروج خيولهم:

- أوبياي، باوريماي، أوبياياي!، باوريم!(*).

إن هؤلاء كانوا مجموعة من الكازاخيين جيران القرغيز منذ أمد بعيد، فحزر تانباي، وأدرك كلياً أنه قد فقد الأمل الأخير في رؤية صديقه تشورا حياً، فجيراننا الكازاخ جاءوا من خلف النهر، وهم يبكون صديقهم ورفيقهم تشورا، وكأخ وجار وكإنسان قريب ومعروف بالنسبة إليهم، ولكل المنطقة، - «فشكراً لكم أيها الأخوة الكازاخ - فكر تانباي في نفسه في تلك اللحظة - من أيام أجدادنا وآبائنا، كنا نحن وإياهم معاً في المصائب والأفراح، والمسابقات على الخيول، فابكوا، ابكوا معنا تشورا!».

(*) في اللغة الكازاخية تقال هذه الجملة في وضع الحزن والألم عند البكاء على الميت.

بينما مشى هو على أثرهم، وكان ينتشر عويل وداع القرية لابنها البار بصراخ حزين واحد:

- تشورا - و، و! تشورا - و، و! تشورا - و، و!

أخذ تانباي يعدو على حصانه، وهو يميل فوق السرج يمنة ويسرة، ويبكي بكاءً مراً صديقه الوحيد الذي غادر الحياة، وهذا هو بيته، وهذا غولساري يقف إلى جانب البيت حزيناً تحت ستار حداد أسود، ويتساقط الثلج فوقه ويذوب. بقي الرهوان بلا صاحب، وعليه أن يقف والسرج من فوقه بلا خيال.

انحنى تانباي إلى عرف الحصان أول مرة، ثم رفع رأسه كأنه ينظر إلى وجه صديقه من فوق الرهوان، وعاد لينحني ثانية ويرفع رأسه من جديد، ومرة ثالثة - حسب العادات تقديساً لذكرى صديقه - ومن حوله الناس والأصوات والعويل كأنه لا يدرك شيئاً، كما لو كان في ضباب قاتل، حتى سمع أحد الرجال يقول:

- أنزلوا تانباي عن سرج الحصان. خذوه إلى جانب ابن تشورا!

امتدت نحو تانباي أزواج عدة من الأيادي، وساعدوه على النزول عن الحصان، وأخذ اثنان بيديه من الجانبين، وساروا بين الناس نحو المكان الذي يتقبل ابن تشورا فيه التعازي، أما تانباي فكان يبكي بمرارة في الساحة، وهو سائر باتجاه سامنصور بن تشورا، ويردد:

- سامحني، سامحني، يا صديقي يا رفيقي! بينما كان نظر تانباي متجهاً نحو جدران البيت الذي عاش فيه تشورا مع أسرته. التفت سامنصور ابن صديقه إليه، إذ كانت الدموع تنهمر بغزارة على وجنتيه، فعانقا بعضهما، وأخذا يبكيان معاً، بينما كان يردد تانباي من بين الدموع والحسرات:

- لم يعد والدك حياً! فقدته كما فقدته أنت، وبكى تانباي

مطولاً إلى جانب ابن صديقه، وهو يقول: آه للقدر، لم يعد تشورا بيننا! سامحني يا تشورا! سامحني يا تشورا، سامحني يا صديقي الوفي!

وبعد دقائق، قام الناس بتفريقهما، بينما استمرا واقفين إلى جانب بعضهما، وفجأة شاهد تانباي بالقرب منه وبين النسوة، زوجة صديقة الراحل بيوبيوجان، فنظرت إليه وأخذت تذرف الدموع بصمت، بينما صعّد تانباي من درجة الحزن والبكاء...

كان تانباي يبكي على كل شيء فقده، فبكى صديقه تشورا الراحل، وبكى نادماً على نفسه، وعلى الخطأ الذي ارتكبه بحقه، وبكى لأنه لم يقدر أن يعيد إلى الخلف تلك الكلمات التي طلبها منه في الطريق، وبكى على مصير تلك المرأة، الزوجة الوفية التي تقف الآن وحيدة بين النسوة قريبة منه كأنها غريبة عنه كلياً، وبكى على حبها لصديقه تشورا، وبكى متذكراً تلك الليلة الرعدية القاسية، وبكى مصيرها بعد أن بقيت وحيدة، وكبرت في السن، ولم ينس أن يبكي حصانه الرهوان غولساري الذي يقف في مكانه أمام ساحة المنزل تحت ستار الحداد الأسود، بكى الذكريات والحلو والمر في حياتهما، بكى على كل شيء لم يتحقق من أهدافهما خلال تاريخ حياتهما، بما فيها من ود وصداقة ورفقة مبدئية، وتابع تانباي يكرر:

- «سامحني، يا تشورا، سامحني». - كان يكرر ذلك كأنه بهذا كان يقصد طلب السماح منها.

أراد أن تقترب بيوبيوجان منه، وأن تأخذ بيده، وتمسح الدموع المتدحرجة على وجهه، ولكنها لم تقترب، وبقيت واقفة في مكانها مستمرة في البكاء المر.

أخذ آخرون بيد تانباي، وهدأوا من روعه، وهم يقولون له:

- يكفي يا تانباي، اهدأ وتحلى بالصبر، فالدموع لا تعيد شيئاً.
وهذا كله جعل المصيبة تزداد حزناً وألماً مراً.

22

قاموا بدفن تشورا بعد الظهر، وكان قرص الشمس ضبابياً، فأتى النور شاحباً يميل للاصفرار، وهو يشق طريقه عبر طبقات متباعدة نسبياً لغيوم جامدة كأنها صلبت في أبعاد السماء، وكانت بين الحين والآخر تتطاير في الفضاء بعض ذرات الثلج الناعم المشبع بالرطوبة، فيتبعثر فوق الأرض البيضاء. امتد شريط نهر أسود صامت من البشر تكون من الذين جاؤوا من القرى المجاورة، بالإضافة لأهالي القرية مودعين تشورا، وهذا النهر ظهر فجأة بصورة عفوية كأنه شق لنفسه أخدوداً عميق الأثر، ولأول مرة في نفوس البشر في تلك المنطقة، وفي المقدمة، كانت سيارة مفتوحة من الأعلى، تنقل جثمان المناضل المستقيم تشورا، ولقد كفنه أهالي القرية بلباد أبيض، وبإحكام كامل، وإلى جانبه كانت تجلس زوجته بيوبيوجان وأولادها والأقارب، أما الآخرون فقد أتوا من القرى المجاورة وشاركوا في الدفن، وهم يمتطون خيولهم، وثمة اثنان سارا خلف السيارة مشياً على أقدامهما - ابنه سامنصور، وصديقه تانباي الذي قاد حصان صديقه الراحل الرهوان غولساري وسرجه مجلل بعباءة الحداد الأسود من دون خيال.

كان الطريق خلف سياج القرية ناعماً بعد أن تغطى بالثلوج الكثيفة الناصعة، وبعد مرور المودعين من البشر أصبح شارعاً قاتماً تخدش بحوافر الخيول، واستمر هكذا، وعلى جانبيه كان الغطاء الأبيض الناصع، وكأن هذه السيارة والخيول والبشر، كانت ترسم طريق تشورا الأخير إلى ذلك المرتفع حيث هي المقبرة، وهناك انتهت مسيرة حياة تشورا من دون رجعة.

قاد تانباي الرهوان، وكان يتحدث معه في نفسه: «هكذا يا غولساري حرمت أنا وإياك من الصديق الودود تشورا. لم يعد معنا، لقد فقدناه... لماذا لم تصهل كما كنت تناديني أحياناً حتى توقفني عن متابعة الطريق راكباً رأسي آنذاك؟ فالإله لم يأمر لسانك بهذا، وعلى الرغم من أنني إنسان، فلقد اتضح الأمر أنني أغبى منك أيها الحصان، لقد تركت صديقي على الطريق، ولم أعد أنظر إليه، ورفضت الاستماع لما يقول، لقد قتلت بهذا تشورا، لقد قتلته بكلمتي الأخيرة...».

وحتى المدفن، وطوال الطريق كان يطلب تانباي السماح من صديقه، وعند المدفن، نزل مع سامنصور، وتلقيا جثمان الراحل. كان تانباي يودع صديقه تشورا، وهو يضعه مع ابنه في اللحد الأرضي الأبدي كان تانباي يكرر:

- سامحني يا تشورا، وداعاً. أتسمعني. سامحني!...

انهالت على المدفن حفنات التراب، ثم قام الرجال بقذف التراب بالرفوش من كل الجهات حتى امتلأت الحفرة، وبرزت فوق الأرض تلة صغيرة فوق ذلك المدفن.

سامحني، يا تشورا!...

☆☆☆

بعد تناول طعام العزاء عن روح الراحل وحفل الوداع، نادى سامنصور تانباي جانباً وقال له:

- توجد لديّ يا عم وصية من الوالد أريد أن أنقلها إليك، ولذلك يجب علينا أن نجلس ونتحدث على حدة، وهكذا خرج الاثنان معاً من ساحة البيت، وقد أبقيا البشر حول السماوارات التي تنفث الدخان عالياً، والبخار يصعد من فناجين الشاي، ومواقد الحطب. خرج الاثنان

إلى خلفية الحديقة، وسارا إلى جانب القناة، وتوقفا هناك عند شجرة كانت قد هوت على الأرض، فجلسا فوق جذعها الثخين. صمتا لدقيقة - حسب العادة - وكلّ منهما أخذ يفكر على طريقته، ولفظ الكلمات التي يريد أن يرسلها في نفسه، إلى روح الإنسان الراحل، فأخذ تانباي يفكر، هذه هي الحياة، تمر كحلم سريع، لقد عرفت سامنصور منذ طفولته الأولى، وها هو الآن شاب ناضج، ولقد أعطته المصيبة هيبة الرجال ونظرتهم إلى الحياة، وأصبح الآن سامنصور خلَف تشورا، وأنا وإياه في مقام واحد، وهكذا يجب أن تكون العلاقة، فالأولاد يأخذون أماكن آبائهم، وهم يتابعون نسل السلالة والعائلة، والعمل، فعسى أن يكون سامنصور كأبيه، حتى يكون أفضل وأوعى منا نحن الاثنين أنا وأبيه، وحتى يوفر السعادة لنفسه، وللناس، ولهذا نحن الآباء نلد الأبناء حتى يكونوا أفضل منا وفي هذا ينحصر جوهر الحياة.

- أنت يا سامنصور، الابن الأكبر في الأسرة، قال له تانباي، وأخذ يمسح على لحيته كالكهول المسنين؛ فأنت الآن ستأخذ مكان أبيك تشورا، وأنا جاهز لأستمع لك، كما كنت أستمع لتشورا، وهنا قال سامنصور:

- عليّ أن أنقل لك يا عمي وصية أبي.

ارتعد تانباي في مكانه، وقد أحس للوهلة الأولى بلهجة الأب تشورا، في كلمات الابن بكل دقائقها، ولأول مرة أحس تانباي كيف يشبه سامنصور والده، ولدرجة كبيرة، ولا سيما عندما كان تشورا في عمر سامنصور الآن، ولم يكن الابن يعرفه آنذاك، ولكن تانباي كان رفيق دربه ويعرف كل شيء عنه، ولهذا توجد حكمة شعبية مفادها أن الإنسان لا يموت ما دام يوجد أناس كانوا يعرفونه، ويذكرون أعماله. فتوجه إلى سامنصور، وقال له بهدوء:

- إنني أستمع يا بني لما تريد قوله. فشرع سامنصور قائلاً:

- لقد وصلت إلى البيت، وكان أبي لا يزال على قيد الحياة. نعم أيها العم، والبارحة في الليل وصلت قبل ساعة من وفاته، وكان ما زال في وعيه الكامل حتى آخر نفس لفظه، وكان ينتظرك أيها العم جداً، وكان يسأل ويكرر السؤال: -«أين تانباي؟ ألم يحضر؟» كنا نقول له ونطمئنه، إنك في الطريق، وإنك ستصل بعد قليل، قليل جداً، وكما يبدو كان يريد أن يقول لك شيئاً، ولكنه لم ينتظر، فتنهد تانباي متحسراً، ومسح دمعة تدحرجت على خده، ثم قال:

- نعم يا سامنصور، نعم، كان من الضروري لنا أن نجلس ونتحدث، كان من الضروري جداً. لن أغفر لنفسي لقرن من الزمن في هذا، لقد أخطأت في هذا، فأنا الذي تأخرت. وهنا قال سامنصور:

- لقد طلب مني يا عم أن أبلغك، إذ قال لي: اسمع يا بني، قل لعمك تانباي، أنني أطلب السماح منه، وقل له هذا، حتى لا يبقى الغضب في قلبه وروحه، وأوصي أن يأخذ هو بالذات بطاقتي الحزبية الخاصة بي إلى اللجنة المنطقية، ودعه يسلمها باليد - لا تنس أن تقول له هذا - كأنه ينتظر شخصاً ما، وبكى، فالكلمات التي أراد أن يقولها ويكمل وصيته لم يعد بإمكانه أن يقولها، ولم تخرج واضحة من فمه.

لم يجب تانباي بشيء، وأخذ يشهق باكياً وهو يمسح لحيته. لقد غادر تشورا وأخذ معه نصف تانباي. حقاً لقد انطفأ سراج نصف حياته.

- شكراً، يا سامنصور على كلماتك القيمة، وشكراً لأبيك المرحوم الراحل. - قال تانباي هامساً، بعد أن تمالك أعصابه، وقدم التعازي لابن صديقه. - ثمة شيء يثير في نفسي الحيرة والقلق: هل تعرف أنهم فصلوني من الحزب؟ فأجاب سامنصور:

- نعم أعرف يا عم.

- إذن، فكيف لي كشخص مفصول من الحزب، أن أحمل بطاقة تشورا الحزبية إلى اللجنة المنطقية؟ فأنا لا أملك الحق في هذا، وهنا صمت سامنصور قليلاً، وقال باتزان:

- لا أعلم يا عماه، قرر بنفسك، فعليّ أن أنفذ إرادة أبي المسبقة، وأطلب منك أن تنفذ هذه الوصية التي طلب مني أن أنقلها إليك في اللحظات الأخيرة وهو يغادرنا.

- أنا سأكون سعيداً أن أنفذ مثل هذا الطلب، ولكن هذه المصيبة حلت بي حيث فصلت من الحزب. أليس من الأفضل أن تأخذها أنت بنفسك يا سامنصور؟

- كلا، ليس من الأفضل، إن أبي قد عرف ما يطلب، ولماذا، فطالما هو كان يثق بك، فلماذا عليّ أن لا أثق بك أكثر؟ فقل في اللجنة المنطقية، إن هذا كان بناء على وصية أبي بالذات، تشورا ساياكوف.

في الصباح الباكر، وقبل أن تنقشع الظلمة، غادر تانباي القرية، أما غولساري الرهوان الرائع فكان يركض تحت السرج خبباً كأنه يكسر بحوافره كل الكتل المتجمدة من ليالي الصقيع السابقة، وفي هذه المرة، يحمل تانباي بمهمة خاصة من الصديق الراحل الشيوعي تشورا سياكوف.

في الأمام، وخلف المناطق غير المرئية للأرض، أخذ شفق الفجر يتضح شيئاً فشيئاً، وفي أحضانه بزغ فجر رائع جديد، فقد ودعت هناك ظلمة دامسة من الجانب الآخر للعالم، وكانت قد نمت هناك في ظلمة رحم الغيوم الداكنة...

كان الرهوان يعدو إلى هناك نحو الفجر، وكأنه يقصد نجمة الصبح التي لم تنطفئ بعد في الأفق. كان وحيداً يضع طبعات حوافره

على الثلج الذي تجمد وجهه قليلاً، وكان الطريق خالياً إلا منه، فهو الذي ملأ الكون بسمعته وشهرته، وكان يحطم جلاميد الثلج غير مبال، ولم ينعم تانباي منذ فترة طويلة، بركوب الرهوان الشهير، وقد اشتاق إليه، فعدوه يمتاز عن كل الخيول، فهو يبعث الراحة في النفس البشرية، وكان ركضه ما زال قوياً كالسابق، طموح في اجتياز المسافات، ويبعث الثقة في نفس الخيال، بينما كان يداعب الريح عرفه الأشقر الطويل، ويقذف به أحياناً في وجه الخيال من باب المداعبة، فرائعاً كان غولساري، وفي قمة قوته...

- طوال الطريق، كان تانباي مشتتاً في أفكاره وفاقداً للقدرة في أن يحزر: لماذا أراد تشورا أن يوصي له بالذات، حصراً لصديقه المفصول من الحزب قبل موته بقليل، وأن ينقل هو - تانباي - البطاقة الحزبية إلى اللجنة المنطقية، فماذا أراد تشورا من وراء هذا؟ أأراد أن يختبرني؟ أو ربما أراد بهذا أن يقول، إنه غير موافق على فصلي من الحزب، الآن، من الصعب معرفة ما قصده، ولن تعرفه في يوم من الأيام، فهو لم يعد يقول كلمة واحدة بعد الآن، نعم يوجد بعض الكلمات المخيفة التي علينا أن لا نقر بها: «ولا في أي وقت!» وبعد الآن، لم تعد تسمع أي كلمات...

ومن جديد عاد ليفكر بشتى الخواطر والأفكار التي ازدحمت في رأسه وأيقظت كل ما يثير القلق في عالم ذلك الإنسان، الذي أراد أن ينسى كل شيء، واتضح أنه ليس كل شيء قد انتهى الآن، ويتسلح بسلاح كان فعالاً طيلة حياته، إنه إرادة وعزيمة تشورا، وما هي أهم مزاياه بالنسبة للناس من حوله، وبالنسبة إليه أيضاً، وسيتحدث عن نفسه، لأن تانباي وتشورا، يمثلان أصابع اليد الواحدة.

فدعهم يعرفون كيف كانا معاً آنذاك في الشباب، وأية حياة

عاشـها الاثنـان، وربما سيفهمون سـاعتئذ، مـا يسـتحقه تانبـاي ومـا لا يستحقه، وحتى إنهم لا يميزون بينه وبين تشورا، ليس في حياتهما، ولـيس بعـد ممـات أحـدهما أو الاثـنين معـاً، فحبـذا لـو يعطونـه فرصـة للتحدث حتى الأخير، وحبذا لو سمعوا منه ما في روحه.

تخيل تانباي كيف سيدخل إلى مكتب أمين اللجنـة المنطقيـة، وكيف سيضع على الطاولة أمامـه البطاقـة الحزبيـة لرفيقـه تشـورا، وكيف سيتحدث عن كل شـيء، وسيعترف بخطئه ويعتذر، وكان حلمه الوحيد أن يعود إلى الحـزب الذي لا يقدر على الحياة من دونـه، والذي يعتقد أنه لا معنى لوجوده من دون الحزب.

وماذا لو يقولون: «من أين يملك الحق الإنسـان المفصـول من الحـزب أن يحمل وثيقة حزبية ويقدمها للجنـة المنطقيـة؟ وعليك أن لا تمس البطاقة الحزبيـة، أو أيـة وثيقـة حزبيـة أخـرى خاصـة بعضـوية الحـزب الشـيوعي، وكان عليك أن لا تمس بطاقة تشورا، ومن دونك كان من الممكن أن نجد طريقـاً للحصول على بطاقة رفيقنـا» ولكـن هـذه المسـألة كانـت وصية قبل الوفاة لصاحب البطاقة تشورا بالذات! وهكذا أوصى أمام الجميع، وهذا ما يؤكده ابنه سامنصور بالذات. «وماذا يعني هذا، وهل كان على درجة من الأهمية، ولاسيما أن الإنسان قبل الموت يصاب بالهذيان وفقدان الذاكرة؟ فماذا عليه أن يجيب ساعتئذٍ؟».

أما غولساري فقد كان يسرع العدو فوق الثلج الذي تجمد نسبياً عند الصباح، وأخذت حوافر الرهوان تعزف ميلوديا صاخبة فوق الجليد، وها هو يخرج الآن إلى منحدر ألكسندروفسك، وهكذا، وعلى جناح من السرعة حمل الرهوان صاحبه الأول إلى المكان المطلوب دون تعب أو ملل، ولم يتوقع تانباي أنه وخلال هذا الوقت القصير سيجتاز المسافة.

بدأ يوم العمل في الدوائر الحكومية مع وصول تانباي إلى مقر المنطقة، وعلى الفور من دون أن يضيع الوقت في أي مكان كان وجه الحصان الذي تبلل بالعرق مباشرة إلى مقر اللجنة المنطقية، فربط مقود الحصان في المكان المخصص لربط الخيول، ونفض عن ثيابه بعض الغبار، وسار إلى مقر أمين المنطقية، وقلبه يخفق قلقاً، ماذا سيقولون له؟ وكيف سيستقبلونه في ممرات المنطقية الداخلية. كان لا يوجد أي ازدحام. لم يصل الموظفون من القرى بعد. توجه تانباي إلى غرفة استقبال كاشكاتايف.

- السلام عليكم،- قال هو للسكرتيرة.

- وعليكم السلام.

- الرفيق كاشكاتايف في مكتبه؟

- نعم.

- أريد رؤيته، فأنا قادم إليه، وأنا راع من كولخوز «الحجارة البيضاء» وكنيتي باكاسوف.

- وكيف لا، فإنني أعرفكم جيداً. - ضحكت هي.

- أرجو أن تبلغيه، بأن المسؤول الحزبي تشورا ساياكوف قد توفي، وقبل موته أوصى أن أنقل بطاقته الحزبية إلى اللجنة المنطقية، وها أنا أنفذ وصيته.

- حسناً، انتظر دقيقة.

لم تمض السكرتيرة إلا دقائق في الداخل، ولكنه لم يجد لنفسه مكاناً خلالها، وهو ينتظرها، فخرجت من مكتب كاشكاتايف، وقالت:

- إن الرفيق كاشكاتايف مشغول، وأغلقت الباب بإحكام في مدخل مكتبه، وقد طلب أن تسلم البطاقة الحزبية الخاصة بالرفيق

الراحل ساياكوف في قسم الذاتية. هذا في الممر مباشرة، ثم إلى اليمين في الممر الفرعي.

- «قسم الذاتية... إلى اليمين عبر الممر» ماذا يعني هذا؟ - لم يفهم تانباي، ثم أدرك كل شيء دفعة واحدة، وأحبط كلياً بدفعة واحدة أيضاً، وكيف الحال هكذا؟ وهل الأمور يا ترى بهذه البساطة؟ أما هو فقد عظّم التفكير كثيراً بالأمر...

- يوجد عندي حديث خاص معه، أرجوك أن تقولي له هذا. يوجد حديث مهم معه. ذهبت السكرتيرة مترددة إلى غرفة كاشكاتايف مرة أخرى وعادت، ثم قالت على الفور:

- إنه مشغول جداً - ثم أضافت من عندها، من باب التعاطف: الحديث كما فهمت قد انتهى معكم، ثم قالت بهدوء هامسة: - إنه لن يستقبلكم، فمن الأفضل أن تذهبوا لأعمالكم.

سار تانباي في الممر، واستدار إلى اليمين، وهناك يافطة: "قسم الذاتية" وفي النصف العلوي من الباب، توجد نافذة صغيرة، وعندما طرقها، فتحت الموظفة النافذة، وجاء صوت:

- ماذا يلزمكم؟

- حملت لكم بطاقة حزبية لتسليمها، حيث توفي المسؤول الحزبي في كولخوزنا «الحجارة البيضاء» - تشورا ساياكوف.

- انتظرت مديرة القسم بصبر، حتى أخرج تانباي من تحت جاكيته المحفظة الجلدية، والمعلقة بحزام جلدي على كتفه والتي كان يخفي فيها بطاقته الحزبية قبل أيام، ولقد احتفظ ببطاقة رفيقه فيها أيضاً من باب الاحترام، وأخيراً قدم البطاقة من خلال النافذة: «وداعاً، يا تشورا!».

شاهد، كيف كتبت في الاستمارة رقم البطاقة الحزبية،

والكنية، والاسم، واسم الأب لتشورا، وعام دخوله إلى الحزب - ثم أخر معلومة - تاريخ الوفاة، ثم أعطته الاستمارة للتوقيع تحت المعلومات.

- انتهى كل شيء؟ - سأل تانباي.

- انتهى.

- إلى اللقاء.

- إلى اللقاء، - أغلقت النافذة على الفور.

خرج تانباي إلى الشارع، وأخذ يفك مقود الحصان الرهوان، وهو يقول له:

- انتهى يا غولساري، هذا كل شيء.

وهكذا قام غولساري بلا كلل ولا ملل، بنقل تانباي إلى الكولخوز في القرية، وعندما أصبح عند السهوب الصحراوية، استقبله هواء صحراوي، لم ينسجم مع الربيع القادم، ومع إيقاع وقع حوافر الرهوان الرتيبة، ولم تضمحل الآلام في رأس تانباي إلا عندما أطلق عنان الرهوان بكل حريته حتى تمكن أن يكون في مساء هذا اليوم عند أسرته في الجبل.

استقبلت زوجته جايدار قدومه بصمت، وأخذت الحصان من مقوده، وساعدت زوجها بالترجل عن سرج الحصان وأمسكت بيده حتى يستند وينزل الهوينا.

التفت تانباي نحوها وضمها إلى صدره، واستند بكل ثقله على كتفها، فضمته أيضاً وهي تبكي، بينما قال لها:

- لقد دفنا تشورا! لم يعد موجوداً بيننا على هذه الأرض، يا جايدار. لقد غادر صديقي! وهنا عاد تانباي للبكاء مرة أخرى.

بكى، وبكى بمرارة. جلس على حجر بالقرب من اليورتا. أراد أن يبقى وحده ينتظر طلوع القمر الذي أخذ يبرز تدريجياً من خلف سلسلة الجبال المتفاوتة من حيث ارتفاعاتها، والثلوج تغطي معظمها، أما الزوجة فذهبت إلى اليورتا، وهيأت الفرشة للبنتين حيث حل الليل بثقله، وقد راح يسمع صوت اشتعال الحطب في الموقد. ثم أخذت جايدار تغني الأغاني الحزينة التي تقبض الروح بكل معاني الكلمة، ولا سيما وهي تعزف على وتر التيمير- كاموز، وكأن الرياح قد أخذت تردد خلجات نفسه، وشعر تانباي أنه يركض عبر الحقول، كما كان يركض في شبابه مع تشورا، والآن تصرخ روحه، وتبكي مع الأغاني التي امتلأت من الشكاوى والحزن، وشعر بالتوحد الأليم، والكآبة المقيتة، وكم كان صعب عليه أن يسمع صوت بكائه بأذنيه، وبدا صوته وحيداً مليئاً بالألم والحزن والكآبة للروح الإنسانية، كان يسرع الركض كأنه يطير إلى جهة مجهولة في هذا العالم الفسيح، من دون أن يعلم إلى أين، حتى اصطدم مع المصيبة التي ألمت به، فكيف له أن يهدأ بين حطام الصمت وغياب بني البشر! فلم يتجاوب أو ينتبه إنسان له، فبكى، وبكى، وهو يسمع بكاءه وحيداً، وانتبه تانباي في لحظة ما أن زوجته تعزف له أغنية «الصياد الكهل»...

... في الأزمنة الغابرة، كان عند كهل ولد شاب وصياد شجاع. علّم الكهل ابنه على الصيد المضني، بعد بلوغ الشاب سن النضوج، وقد فاق والده. لم يعرف الشاب الخطأ مطلقاً عندما كان يطلق النار، حتى قيل عنه، إنه ليس من حيوان حي صغير أو كبير، ينجو من رصاصة يطلقها الشاب، وهو يعرف أنها قاتلة لا محالة. فقتل في الجبال

والوديان والهضاب مختلف الطيور والكائنات، ولم يشفق أو يعطف على الأمهات الحبالى، ولم يلن قلبه على الكائنات الصغيرة التي ولدت منذ فترة قصيرة، ولم تر من الحياة أي شيء، وذات مرة قضى على قطيع من الماعز الأبرش بأكمله تقريباً، ولم يبق منه إلا الأم الأولى من سلالة الماعز. بقي من القطيع عنزة برشاء، وزوجها التيس الأبرش الكهل! فأخذت ترجو العنزة العجوز الصياد الشاب، وتتضرع للسموات أمامه، حتى يترك لها التيس الكهل، وهي تقول له، أرجوك لا تقتل الكهل حتى يبقى الأمل في الحفاظ على أصل السلالة ونلد مرة أخيرة لتبقى سلالتنا، ولكن الشاب لم يسمع كلامها ورفض طلبها، وصوب سلاحه نحو التيس الكهل الضخم، وقتله برصاصة واحدة، فهوى التيس عن الصخرة العالية ومات، وعند ذلك ودعته العنزة البرشاء وقرأت صلواتها وقامت بدعواتها على الصياد، ثم التفتت نحوه وقالت: «أطلق رصاصتك إلى قلبي، واستدارت نحوه إلى جانبها الأيسر، ها أنا أقف وقلبي أمامك، ولن أتحرك من مكاني، ولكنك لن تصيبني - وستكون هذه الطلقة، التي ستحاول بها أن تقتلني، آخر طلقة تطلقها في حياتك الملعونة!». ضحك الصياد من كلام هذه العنزة البرشاء العجوز، وفعلاً لم تقع العنزة على الأرض، فالرصاصة أصابتها في قائمتها الأمامية، فخاف الصياد الشاب من هذا، إذ لم يحدث مثل هذا في حياته ولا مرة. فقالت له العنزة: «هكذا إذن، حاول الآن أن تلحق بي، رغم أن قائمتي معطوبة، وأصبحت عرجاء على ثلاث قوائم، وعلى الرغم من ذلك، فلن تلحق بي مهما ركضت!». ضحك الصياد الشاب ساخراً، وقال لها: «انطلقي أمامي، وأنا سألحق بك، ولا تنتظري الرحمة مني أبداً، فسوف أذبحك بالسكين، يا لك من عجوز شمطاء سأقتلك كأخر كهلة تافهة!».

أخـذت العنـزة العرجـاء بـالركض علـى ثـلاث قـوائم، وانطلـق الصياد الشـاب خلفهـا، وهكـذا اسـتمر يطاردهـا أيامـاً عـدة بلياليهـا، عــبر السـهول والصــخور والجبـال والشـعاب فـوق الـثلج والحجــارة، واسـتمرت المطـاردة مـن دون أن تستسـلم العنـزة الكهلـة، وأخـيراً كـان على الصياد أن يقذف بسلاحه، وثيابه، حيث تشابكت الأشـواك علـى أطرافه، ولم يلحظ كيف قادته العنزة الكهلة إلى لسـان بـارز لصـخرة عالية في قمة الجبل، مـن الصعب الصعود إليهـا، ومـن هنـاك لم تكـن أية إمكانيـة لتغيير الطريق، لا إلى الأعلـى ولا إلى الأسـفل، ولـيس مـن مكـان حتـى ينزلـق عنهـا أو يقفـز في الهـواء لجهـة مـا، وهكـذا بقـي الصياد الشـاب هنـاك معلقـاً، وعنـدها تركتـه العنـزة الكهلـة، ولعنتـه قائلة: «لن تعود مـن هـذا المكـان إلى الأبـد، وسـتبقى هنـا واللعنـة قائمـة عليـك، ولا يمكــن لأحـد أن ينقـذك، ودع والـدك يبكـي حتـى تجـف دموعه عليك، كما أبكي أنا على أولادي، وأحفادي، الـذين قتلـتهم، وعلى سلالتي وزوجي، وأقاربي الذين قضيت عليهم، ودع والـدك يعـوي عليـك عـواء الـذئاب والثعالـب بـين الصـخور الحجريـة وحيـداً في الجبـال البــاردة كمــا أثغــو أنــا، العنــزة الكهلــة، والأم الأولى لسـلالة المــاعز البرشـاء. إنـني ألعنـك، يـا كـاراغول، ألعنـك لعنـة أبديـة...». وهكـذا غادرت العنزة الكهلة مـن حجـر إلى حجـر، ومـن جبـل إلى جبـل مشـردة في الطبيعة.

بقي الصياد الشاب على قمة جبل عال، وعلى لسـان صـخور بـارز مـن الجبـل، ومـن الصعب الوصـول إليـه وإنقـاذه، وهـو خـائف حتـى مـن النظـر إلى الأمـام، وإلى الأعلـى أو الأسـفل، وإلى الـيمين أو اليســار، وليـس لـه مـن طريـق للعـودة، ولا منفـذ، ولا يمكنــه مشـاهدة السـماء ولا الأرض.

أما والده، فقد بحث عنه في كل مكان، وصعد إلى الجبال، وعندما وجد سلاحه سائباً على الأرض، أدرك جيداً أنها حصلت الكارثة الساحقة الماحقة مع ابنه، فركض عبر الشعاب الصخرية، وفي الكهوف الضيقة المريعة، وهو يصرخ، وينادي: كاراغول، أين أنت؟ كاراغووول، أجبني! وفي الإجابة كانت تقرقع الحجارة الجبلية، وتضحك ضحكة ساخرة، وهي تجيبه من خلال الصدى: «...أين أنت، يا كاراغووول؟ أجبني!...». فجاء صوت كالصدى من بعيد، ومن جهة مجهولة غير محددة من الأعلى، أو الأسفل:

- «ها أنا هنا يا أبي!» نظر الكهل إلى الأعلى، فشاهد ابنه كغراب أسود على لسان الانكسار الجبلي العالي، على صخرة بارزة من ذروة الجبل، كلسان طير أسطوري، والتي من غير الممكن الصعود إليها، فكان يقف هناك، وظهره إلى الجبل، ولا يمكن له أن يلتفت إلى الوراء، أو يسير بالعكس، فارتعد الأب خائفاً وهو يسأل:

- كيف وصلت إلى هناك يا بني البائس والتعيس؟

أما هو، فأجاب مرتعداً:

- لا تسأل يا أبي.

يصل إلى الأب ذلك الصوت الوهمي: «أنا هنا معاقب يا أبي على ما فعلت. لقد قادتني إلى هنا العنزة البرشاء الكهلة، ولعنتني باللعنة الأبدية الماحقة الساحقة، فأنا أقف هنا منذ أيام عدة، لا أرى الشمس، ولا السماء ولا الأرض، وحتى لا أرى وجهك يا أبي، فاطلق عليّ رصاصة الخلاص والرحمة. اقتلني وخلصني من هذه المعاناة الأبدية. أجهز عليّ. أرجوك أطلق النار فوراً!».

ماذا كان بإمكان الأب أن يفعل، فيبكي تارة، ويركض في كافة الاتجاهات، أما الابن فيرجوه: «اقتلني يا أبي بسرعة، أطلق

النار، صوب بشكل جيد، أطلق النار!» ولم يبق للظلمة إلا أن تحل، أما الأب، فلم يجرأ على اتخاذ القرار للإجهاز على ابنه، وأخيراً، وعند الغروب، صوب الأب وأطلق النار، ثم كسر السلاح على صخرة كانت إلى جانبه، وأخذ يندب أغنية الوداع الأخير فوق جثة ابنه:

قتلتك، يا بني كاراغول.
بقيت وحيداً في الدنيا، يا بني كاراغول،
لقد قهرني المصير، يا بني كاراغول.
لقد عاقبني القدر، يا بني كاراغول.
لماذا علمتك، يا بني كاراغول،
لماذا علمتك حرفة الصيد، يا بني كاراغول،
لماذا قتلت كل ما صادفت، يا بني كاراغول،
لماذا أفنيت أنت، يا بني كاراغول؟
كل الطيور، والكائنات الحية، يا بني كاراغول،
كل ما خلق للحياة، والتكاثر، يا بني كاراغول؟
بقيت أنا وحيداً في الدنيا، يا بني كاراغول،
لم يلتفت أحد لي، ويساعدني، يا بني كاراغول،
فلنبكي لبكائي، يا بني كاراغول،
قتلتك يا بني بيديَّ، يا بني كاراغول.
بيديَّ قتلتك، يا بني كاراغول...

... جلس تانباي إلى جانب اليورتا. سمع كيف غنت جايدار، المبكيات القرغيزية القديمة، وهو ينظر كيف أخذ القمر يسبح في السماء فوق الجبال الصامتة والقاتمة، وكيف تعلق فوق الذرى الجبلية المكدسة بالثلوج فوق الصخور البيض الهائلة. ثم أخذ تانباي يطلب من صديقه الراحل السماح والمغفرة.

أمـا جايـدار في اليورتـا ، فقـد كانـت تعـزف علـى آلـة التـيمير-كاموز، المبكيات عن الصياد العظيم كاراغول:

قتلتك، يا بني كاراغول.

بقيت وحيداً في الدنيا ، يا بني كاراغول.

23

اقـترب الفجـر، ومـا زال تانبـاي يجلـس عنـد رأس الرهـوان الـذي يحتضر تدريجياً، وتذكـر الكهل تانباي ماذا حصل فيما بعد.

لم يعـرف أحـد أنـه ذهـب في تلـك الأيـام إلى المدينـة المنطقيـة ، وكانـت هـذه الرحلـة هـي محاولتـه الأخـيرة. لقـد أراد أن يقابـل أمـين اللجنـة المنطقيـة ، وأراد أن يحدثـه عـن الكلمـة الـتي ألقاهـا في اجتمـاع المنطقـة ، وأن يتحـدث لـه عـن كـل آلامـه ومصـائبه ، ولقـد كـان يثـق تانبـاي، بـأن الأمـين سـوف يتفهم وبكـل موضـوعية مـا كـان في حيـاة تانباي، وكان مـن الممكـن أن يسـاعده علـى حل مشـكلاته. علماً أن تشورا قد تكلم كلاماً إيجابياً عنه،وأثنى الآخرون على مسيرة حياتـه. أمـا بالنسـبة لـذلك السـكرتير للحـزب، فقـد نقلـوه إلى منطقـة أخـرى، ولقد عرف تانباي عن هذا، عندما وصل إلى اللجنة المنطقية، فسألته:

- وهل أنتم لم تسمعوا بما حدث؟ فأجاب تانباي:

- كلا. وعند ذلك، اقترحت المرأة في قسم الاستقبال:

- إذا كـان لديكم أمـر مهـم جـداً، فبإمكـاني أن أسـاعدكم، بـأن أقـدم تقريـراً للسـكرتير الأول في المنطقيـة ، فربمـا سيسـتقبلكم وتحدثونه بذلك. فأجاب تانباي قائلاً:

- كـلا ، شـكراً ، إنـني هكـذا أردت أن أتحـدث بقضـيتي الخاصـة ، فأنـا كنـت أعرفـه ، وهـو يعـرفني أيضـاً ، ورغـم كـل ذلـك ، فـإنني لم أرغـب بإزعاجـه ، فسـامحوني ، وإلى اللقـاء. خـرج مـن قاعـة

الاستقبال، وهو واثق بنفسه، أنه طالما يعرف السكرتير، والأخير يعرفه على وجه الخصوص - الراعي تانباي باكاسوف - ولماذا لا؟ كان بإمكانهما أن يعرفا بعضهما بصورة أفضل، وأن يحترم أحدهما الآخر، ولم يشك هو في هذا مطلقاً، ولهذا قال هكذا.

مضى تانباي في الشارع متوجهاً إلى محطة الباصات، وبالقرب من خزان البيرة، كان هناك عاملان ينقلان البراميل الفارغة إلى سيارة الشحن، وأحد هذين الشابين كان يقف في صندوق الشاحنة، والآخر كان يدحرج البرميل تلو الآخر، ليرصفها في الشاحنة، ومن باب المصادفة نظر العامل إلى المارة من جانب السيارة فشاهد تانباي، فجمد في مكانه وتغير لون وجهه كلياً. كان العامل هو بيكتاي بذاته، فأمسك البرميل وتوقف عن دحرجته، وأخذ ينظر محدقاً، وباهتمام كبير إلى تانباي، وهو يُضيق عينيه لتركيز النظر وينتظر ما سيقوله الآخر، وهنا جاء صوت العامل الذي يقف في الشاحنة، ويستقبل البراميل:

- ماذا حدث لك يا بيكتاي، هل غفوت يا ترى؟

تدحرج البرميل إلى الأسفل، أما بيكتاي، فأمسك به حتى انحنى تحت ثقله، وهو ينظر من دون انقطاع إلى تانباي، ولكن الأخير لم يلق التحية عليه، وتابع يفكر في نفسه، من دون أن يسلم عليه: «هكذا إذن، هنا حط بك الترحال، حسناً أنك اخترت مكاناً مناسباً من دون تعليق على الأمر، فالعمل مع البيرة أحسن بكثير من الرعي بالمواشي!» وتابع تانباي بتفكيره: - «من المؤسف أن يُضيع هذا الشاب مستقبله، أليس كذلك؟» وقد خفف من سرعة خطواته ناظراً ومتفحصاً له بدقة، وكان من الممكن أن يصبح بيكتاي إنساناً جيداً، لو أن الظروف قد توفرت له، وعاد ليراود نفسه:

- أليس من الأفضل، لو تحدثت معه؟ وأراد أن يعود، ويسلم عليه وهو يأسف للعمل الصعب الذي يقوم به مع هذه البراميل المليئة بالبيرة، وكان تانباي جاهزاً لأن يسامح بيكتاي على ما فعله مقابل أن يعود للرشد، ولكنه لم يفعل هذا، وقال في نفسه، إذا كان بيكتاي قد علم بفصلي من الحزب، فإن الحديث لم يتم بين الاثنين، ولم يرغب تانباي أن يعطي لهذا الشاب المتهور فرصة حتى يسخر منه، ويهزأ من وضعه، وأن يضحك على مصيره الخاص، وأن يسخر من المبدأ الذي ناضل من أجله وبقي وفياً له حتى الوقت الحاضر، وهكذا غادر تانباي المدينة، مستقلاً سيارة عابرة، وتابع التفكير بمصير بيكتاي. لقد ارتسمت في مخيلته كيف انحنى بيكتاي عاجزاً أمام رفع برميل البيرة، وكيف نظر له بعينين حادتين محدقاً به كإنسان عرفه مدة طويلة في حياته.

- آه، يا إلهي، عندما حاكموا بيكتاي قال تانباي أمام المحكمة إن بيكتاي ترك القطيع وغادر، ولم يقل شيئاً آخر، وكتم السر عن كل الباقي. لقد رغب في أن يعود بيكتاي عن موقفه الخاطئ، وأن يفهم في نهاية المطاف أنه قد أخطأ وأن يندم على فعلته، ولكن الآخر كما يبدو لم يفكر مطلقاً بالاعتذار والعودة عن تصرفه السيئ، ولقد فكر تانباي أن يقول لبيكتاي:

- عندما تنتهي مدة الحكم بالسجن، عد إليّ، وسنتحدث ماذا سنفعل معاً لاحقاً، أما بيكتاي، فلم يفكر بقول كلمة واحدة لتانباي، حتى لم يرفع عينه قليلاً حتى يتفهم الآخر شيئاً ما، وعند ذلك ابتعد تانباي عنه. وبعد أن فصل تانباي من الحزب أصبح موقفه ضعيفاً، وأخذ يشعر كأنه قد أخطأ بحق الجميع، وقطع علاقاته مع كثير من الناس الذين كان يعرفهم سابقاً، ولم يفكر ذات يوم في

حياته أن الأمور ستتغير معه هكذا، ولم يتحمل أن يسخر أحد منه مباشرة، وعلى الرغم من كل هذا، وقدرته على التحمل، كان يتجنب الناس، ويتهرب من الحديث معهم، وغالباً ما يلتزم الصمت كلياً عندما يُسأل عن أمر ما.

24

تمدد الرهوان غولساري بلا حراك بالقرب من الشعلة وهو يُلقي برأسه فوق الأرض، فالحياة كانت تغادره تدريجياً، وثمة خرير وحشرجة مؤلمة، وشخير تتصارع كلها في حنجرة الرهوان، واتسعت عيناه السوداوان ثم انطفأت، وأخذ ينظر إلى الشعلة من دون أن ترمش له عين، وتجمدت قوائمه الممتدة كأخشاب مرمية على الأرض.

ودع تانباي الحصان الرهوان، وقال له الكلمات الأخيرة: «كنت حصاناً عظيماً يا غولساري، وكنت صديقي الوفي، يا أيها الرهوان في السفر، وأنت تأخذ معك أجمل سنوات عمري، فوداعاً يا غولساري. سأذكرك دائماً ما دمت حياً، وها أنا الآن، وبحضورك وقبل أن تلفظ الأنفاس الأخيرة، لأنك تموت أمامي، يا حصاني الحبيب غولساري، وعندما سنلتقي في عالم الأموات، يؤسفني جداً ساعتئذٍ، أنني لن أسمع ميلوديا وقع حوافرك الرهوانية فوق الأرض. فهناك لا توجد طرق، ولا توجد أرض، وليست هناك من أعشاب، ولا توجد هناك حياة، ولكنني ما دمت حياً، ستبقى أنت خالداً في ذاكرتي، لأنني سأذكرك دائماً يا غولساري، وسأذكر صوت عزف حوافرك حيثما كنت أسمعها فوق الثلج، أو الأرض، سأذكرها كأغنية غالية على قلبي...».

هكذا فكر الكهل تانباي، وحزن حزناً قاتلاً، حيث مضى الوقت بسرعة، كما كان يسرع الرهوان في قطع المسافات، وأسف

جداً أن العمر قد مضى ووصلا إلى الكهولة بسرعة، وربما كان من المبكر بالنسبة لتانباي، ليس حسب السنوات التي عاشها بل حسب المصائب والقضايا العسيرة التي أجبرته أن يفكر بالكهولة والعجز، ويخلص إلى نتيجة مفادها أن وقته قد قارب على الانتهاء، وبقي له أن يعيش بضع سنوات، كيفما كان...

والآن، في هذه الليلة، عندما أخذ يفارق الرهوان غولساري الحياة ويلفظ أنفاسه الأخيرة، كان تانباي يراجع تاريخ حياته من جديد بكل انتباه، ويمحص في كل دقائق الأمور السابقة التي عاشها سنة فسنة، وشهراً فشهر، ويوماً فيوم، ودقيقة فدقيقة، ويأسف أنه استسلم لمرحلة الكهولة مبكراً، ولم يقرر مباشرة أن يتبع نصيحة ذلك الإنسان الذي لن ينساه، وهو الشخص الذي وجده هو بالذات، وقدم إليه من تلقاء نفسه.

لقد حصل هذا قبل سبع سنوات بعد أن تم فصله من الحزب، أخذ يعمل تانباي آنذاك حسب ما تتطلب حاجات الكولخوزات من أعمال في منطقة مضيق ساريغوسك، وعاش هناك في بيت حراسة مع زوجته العجوز جايدار، أما الابنتان، فقد سافرتا للدراسة، وهناك تزوجتا، أما الابن فقد أخذ يعمل بعد أن أنهى المعهد المتوسط في المنطقة وأصبح أيضاً أباً لأسرة.

وذات يوم من أيام الصيف، أخذ تانباي يحصد الحشائش النامية على ضفاف النهر، وكان نهاراً حاراً، ومناسباً لحصاد الحشيش، فالحرارة مرتفعة حتى يجف الحشيش بسرعة، والضوء كان يعم المنطقة بجلاء، وكان المضيق هادئاً، والجنادب والصراصير تصفر كل على طريقتها، وفي قميص مفتوح عن صدره، وسروال واسع يرتدونه الكهلة عادة كان تانباي يمسك المنجل ذا العصا الطويلة

ويحش الحشيش بسرعة وبراعة حتى كان المنجل يرن بين يديه بمهنية عالية، وحُزم الحشيش بعد كل حركة سريعة من المنجل كانت تتمدد على الأرض في عرف سميك وبخط طويل، وكان يعمل تانباي بكل جد ونشاط وأريحية، ولم يلحظ كيف توقفت سيارة «غاز» خفيفة بالقرب منهم وخرج منها اثنان واتجها نحوه وألقيا التحية:

- السلام عليكم، يا عم، أعانكم الله! سمع تانباي شخصين يسلمان عليه، وهما قريبان منه، وعندما رفع عينيه إليهما، عرف على الفور إبراهيم نفسه، وما زال كما كان سميناً منتفخ الوجنتين مع كرش كبير، وتابع إبراهيم، هكذا وجدناك يا عم تانباي أخيراً - ولسبب ما كان يتحدث مبتسماً على عرض وجهه - ولقد جاء أمين اللجنة المنطقية شخصياً حتى يراك ويتعرف إلى حضرتك.

فصمت تانباي قليلاً، وقال في نفسه، مع شيء من الاستغراب غير الإرادي بشخصية إبراهيم:

- «آه، يا لك من ثعلب! ففي كل الأوقات كنت تجد لنفسك مكاناً، ويكفي أن تسمع كيف يتكلم بلطف حتى تعرف أنه يخادع ويتقمص شخصية الإنسان الخير التقي النقي، وكان موهوباً أن يعرف مزاج الشخص الذي يتبع إليه وهو على استعداد أن يخدمه بأفضل طريقة، طالما له مصلحة معه!». وهنا كان على تانباي أن يرد السلام، وهو يشد على أيدي الضيوف:

- السلام عليكم.

- ألم تعرفني، أيها الأب؟ - سأل الشخص القادم مع إبراهيم، من دون أن يسحب يده من يد تانباي.

تمهل تانباي في الإجابة، وهو يفكر «أين رأيت هذا الشاب؟» وأخذ يعصر ذاكرته، وأمامه كان يقف شخص معروف من قبله،

وكأنه في تلك الأيام التي رآه فيها سابقاً، ويبدو أنه قد تغير عن سماته السابقة قليلاً. كان شاباً في بداية رجولته، ذا صحة سليمة وقوية، أسمر اللون من الشمس، مع نظرة واضحة وواثقة في النفس، وها هو الآن يلبس بدلة مصنوعة من قماش الأشرعة وعلى رأسه قبعة قش، وأخذ يفكر تانباي، «يبدو أنه إنسان ابن مدينة».

... أراد إبراهيم أن يساعد تانباي في معرفة الضيف:

- ألا تعرفه، إنه الرفيق...

طلب تانباي من إبراهيم أن يتوقف عن المساعدة في التعريف، وأراد أن يختبر هو ذاكرته، وأخذ يتذكر في نفسه:

- توقف، توقف، لا تقل، فأنا سأحزر، وقال مبتسماً في نفسه: عرفتك، آه يا بني، وكيف لي أن لا أعرفك! مرحباً بك مرة أخرى. سعيد أن أراك.

إنه كريمبيكوف، إنه هو بالذات ذلك السكرتير في الكومسومول الذي دافع وبجرأة عن تانباي في اجتماع اللجنة المنطقية، عندما طردوه من الحزب.

عند ذلك اقترح كريمبيكوف على إبراهيم قائلاً، طالما عرفني خذ أنت من يده المنجل واحصد من الحشيش مكانه، فإننا سنتحدث قليلاً بالقرب منك، واقترح كريمبيكوف على تانباي أن يسيرا على ضفة النهر، وعلى الفور أخذ إبراهيم بالتنفيذ، وتردد قليلاً بخلع جاكيته، ولكنه فعل، وقذف به جانباً، وقال:

- بالطبع، بكل صدر رحب أيها الرفيق كريمبيكوف.

سار تانباي إلى جانب كريمبيكوف عبر الحشائش المحصودة، والملقاة على الأرض بانتظام، وجلس الاثنان على كومة من الحشيش على ضفة النهر، وباشر الحديث كريمبيكوف:

- ربما تحزر أيها العم المحترم، لماذا قدمت إليك، وبخصوص أية مسألة، إنني أنظر إليك، وأشعر بسعادة أنك ما زلت قوياً وتحصد الحشيش كالشباب، وطالما أنت بصحة جيدة هذا يعني أن كل شيء على ما يرام، ولهذا فإنني مطمئن عليك، وهنا أجاب تانباي:

- إنني أسمعك بانتباه يا بني، وأنا أيضاً سعيد لحضورك.

- إذن هكذا، وحتى يكون الأمر واضحاً لك يا عم، الآن أنت تعرف، لقد تغير الكثير، وكثير من الأمور قد سارت على الطريق الصحيح، فأجاب تانباي:

- أعرف، ما هو واضح، وسري، ويتغير شيء كثير وصحيح، وبإمكاني أن أحكم من خلال التطور في كولخوزنا، أن الأعمال قد سارت بشكل أفضل، وحتى يصعب التصديق. لقد كنت قبل فترة في منطقة الخمس قرى، وكنت هناك قد عملت راعياً وشاهدت التغيير عندهم. لقد حسدتهم على هذا التحسن، إذ تم بناء الكثير من الحظائر الجديدة، وبأسقف ممتازة، وتتسع كل حظيرة نصف ألف رأس، وقاموا ببناء مساكن للرعاة، وبهذا أصبح من الممكن العمل، وإلى جانب الحظيرة، إسطبل للخيل لا يشبه ما كان عليه الأمر سابقاً، وهذا ما يلاحظ في الكثير من الحضائر الشتوية للثروة الحيوانية، وحتى في القرية ذاتها يجري البناء بسرعة، وكلما ذهبت إلى القرية أرى بيوتاً جديدة قد ظهرت إلى جانب الشوارع، عسى أن يستمر الأمر هكذا. فعلق كريمبيكوف قائلاً:

- على هذا بالذات يتركز اهتمامنا يا عم، وليس كل شيء كما نرغب، وكما يجب أن يكون، ولكننا سنصحح كل شيء مع الوقت، وأنا قدمت إليك، وبرأسي سؤال قديم، أطلب منكم العودة إلى الحزب، وسنعيد النظر في قضيتكم، ولقد تم الحديث في

مكتب اللجنة المنطقية، وكما يقال، من الأفضل أن يأتي الأمر متأخراً، مما لا يأتي بالمرة.

التزم تانباي الصمت، واحتار ما يجيب، ولكنه كان سعيداً لهذا الأمر في داخله، وشعر بمرارة الذكرى، وعاد بفكره إلى كل ما عاناه، ولقد جرحته تلك المؤامرة جرحاً عميقاً ولم يرغب بنبش الماضي والتفكير بهذا الأمر. وهنا قال:

شكراً لك يا بني على هذه الكلمة الطيبة، شكراً لك، وخاصة أنك لم تنس الكهل، ثم وبعد أن فكر قليلاً، قال وبكل صراحة. لقد أصبحت كهلاً، فأية فائدة الآن مني للحزب؟ وماذا بإمكاني أن أقدم له؟ فأنا لم أعد أصلح لشيء. لقد مضى زماني، فلا تزعل يا بني. أعطني فرصة للتفكير.

مضى وقت ليس بالقصير، ولم يتخذ تانباي قراراً في الأمر، وكان يؤجل الموضوع - غداً سأذهب، بعد غد، والزمن يمضي. لقد أصيب بكسل وخمول وثقل كبار السن.

وفي يوم من الأيام، جهز تانباي نفسه، ووضع السرج على الحصان، ومشى باتجاه المدينة المنطقية، ولكنه عاد من نصف الطريق ولماذا؟ إنه أدرك، أنه عاد نتيجة غباء ذاتي فيه، فقد أقنع نفسه: «لقد أصابني الخرف، وأصبحت كالطفل» وأنني أفهم كل هذا، ولكنني لم أقدر أن أفعل شيئاً مع ذاتي.

شاهد في حقل ليس بعيد عنه غباراً متصاعداً على أثر حصان جامح فوقه خيال، وعرف أن الحصان كان هو الرهوان غولساري. فالآن، ومنذ فترة لم يعد يراه إلا نادراً، فالغبار الآن يظهر خلفه، كما كان الرهوان يمضي في السهول أيام الصيف. نظر تانباي إلى ذلك الحصان من بعيد، وحزن حزناً عميقاً، فسابقاً كان الغبار الذي يثيره

غولساري بحوافره يذهب بعيداً إلى الخلف، ولا يمكن له أن يلحق به، وكان ينطلق الرهوان إلى الأمام كطير أسود سريع الطيران وخلفه كان يمتد ذيل طويل من الغبار. أما الآن، فإنني أرى أن الغبار قد أصبح يلف الرهوان بكتلة كثيفة منه، فيجتهد قليلاً ليخرج من زوبعة الغبار إلى الأمام، وبعد دقيقة، يعود من جديد ليغرق فيها، وهو يلحق به. كلا، و يا للأسف، لم يعد بإمكانه أن يسبق غباره، وهذا يعني أنه قد كبر جداً، وضعفت قوته، واستسلم للعجز. - «فسيئة هي أمورك، يا غولساري» - أخذ تانباي يفكر بمرارة وكآبة.

لقد تصور نفسه، كيف كان يختنق الحصان الرهوان في غباره عند الكبر، وكم هو من الصعب عليه أن يركض كالسابق، وكم كان الخيال حانقاً من مشيته، إذ أخذ يضربه بالسوط حتى يسرع قليلاً، وشاهد أمامه عيني الرهوان غولساري الحائرتين. لقد شعر أنه يبذل أقصى ما عنده من الجهد حتى يخرج من كومة الغبار، ولكنه لم يتمكن من ذلك، وبغض النظر أن الخيال لم يتمكن من سماع صوت تانباي لبعد المسافة، فصرخ تانباي بأعلى صوته: «قف، لا تعذب الحصان! » وأخذ يعدو بسرعة نحوه، حتى يوقفه مباشرة.

ولكن تانباي لم يلحق به، فتوقف بعد قليل. حسناً إذا فهم ذلك الخيال مقصوده، وإذا لم يفهم، فما العمل؟ وما سيكون موقف تانباي، إذا أجابه الخيال بكلمات قاسية، كأن يقول: «ما علاقتك في الأمر؟ ومن أين أتيت أيها المفتش؟ فكما أرغب بالسير أسير، اغرب بعيداً أيها الكهل المجنون!».

أما الرهوان في هذا الوقت، فقد ابتعد إلى الأمام بركض غير منتظم ومتخبط، وكان يغوص في الغبار أحياناً، ويخرج منه أحياناً أخرى. نظر تانباي في أمر حصانه طويلاً، ثم استدار وعاد إلى الخلف،

وهو يقول: «لقد ركضت نصيبي في الدنيا معك، يا غولساري، والآن قد كبرنا، ولم تعد تلزم لأحد في هذه الدنيا، وأنا أيضاً، لم أعد خيالاً جيداً كما كنت، وكل ما بقي لنا، يا غولساري أن نكمل ما تبقى لنا من وقت...».

بعد سنة شاهد تانباي الرهوان وقد وضعوا خلفه عربة ثقيلة قديمة، فغضب وحنق على هذا القدر العاثر، وأكثر ما أحزنه عليه، أنه أصبح مسناً، وخرج من الخدمة كحصان سباق وركوب، ولم يعد يصلح إلا لجر العربات القديمة، وحتى العدة التي كانت مع العربة، كانت قديمة وبالية، ومخصصة لنقل الحمولات، التي لا قيمة لها، فأزاح تانباي النظر عنه حتى لا يراه على هذا الحال.

فيما بعد، ومرة أخرى، التقى تانباي الرهوان، ومما أثار إزعاجه عندما مر بمكان قريب من النهر إلى جانب القرية. شاهد الرهوان غولساري، يمتطيه ولد في السابعة من عمره تقريباً، وهو يرتدي شرطاً قصيراً وفانيلا ممزقة، وأخذ يحث الحصان على المشي، ضارباً على جانبيه بكعبي قدميه الحافيتين، أما الولد فقد كان يطير فرحاً أنه يجلس على ظهر الحصان الشهير الرهوان غولساري، وهو لأول مرة في حياته يركب على حصان. إذ كان يتعلم على هذه الرياضة، وقد كان يستخدم غولساري من أجل تعليم الأولاد على ركوب الخيل، وهكذا لعن تانباي هذه النهاية المأساوية لحصانه، وخاصة عندما صرخ الولد مخاطباً تانباي:

- انظر أيها الجد كيف أركب على الحصان، فأنا تشابايف![*] والآن سوف أقطع النهر سابحاً على الحصان، كما كان يفعل تشابايف، وهنا حاول تانباي أن يشجع الولد قائلاً:

(*) تشابايف - بطل أسطوري في تاريخ الحرب الوطنية الروسية. - (المترجم).

- أسرع! أسرع بالمسير، وأنا سأنظر إليك! - حرك الولد المقود بشجاعة، وسار عبر النهر، ولكن عندما أخذ الحصان يتجه نحو الضفة الأخرى، لم يتمكن الولد من الحفاظ على توازنه، فوقع في الماء.

- ماما، ماما! أخذ الولد يبكي من الخوف.

هرع تانباي على جناح من السرعة، وسحب الولد من الماء، وقاده إلى الحصان. أما غولساري فقد كان يقف مستعداً عند الضفة، وهو ينقل قوائمه التعبة من واحدة لأخرى، «وهذا يدل على أن وضع قوائم الحصان قد تعبت كلياً» أدرك تانباي ما يعاني منه الحصان، ثم قام بوضع الولد على سرجه، وهو يقول له:

- اذهب، ولا تقع ثانية ولا تحرك المقود بعنف، فهذا الحصان لا يحب ذلك.

سار غولساري بهدوء في هذا الطريق المعروف جيداً من قبله.

هكذا، وفي آخر مرة، عندما وقع الرهوان في أيدي تانباي، وبعد أن أصبح كهلاً، اهتم به اهتماماً خاصاً، وأوقفه على قوائمه، وتحسنت صحته. وآخر مرة نقله إلى ألكسندروفسك، ولكنه لم يكمل الطريق، ومات في الجبال، كما تموت النسور.

سافر تانباي إلى ابنه وكنته بمناسبة ولادة الحفيد الثاني في أسرته، وأخذ له هدية خروفاً مذبوحاً، وكيس بطاطا، وخبزاً، وبعض المأكولات التي حضّرتها الجدة جايدار، وأدرك فيما بعد لماذا لم ترغب جايدار بالسفر معه إلى ابنها وزوجته، فهي لم تحب الكنة، أما الابن فلم يكن شخصاً مستقلاً، ولم تكن له الشخصية والإرادة اللازمتين للأسرة، أما زوجته فقد كانت قاسية، متسلطة. تجلس في البيت، وتتصرف بزوجها كما تشاء، كما تفعل بعض النسوة،

اللواتي من دون سبب ينلن من كرامة أزواجهن، ويوجهن الإهانة تلو الأخرى، ويرغبن بالتسلط من الأعلى، وأن تكون إدارة الأسرة بأيديهن.

وهذا ما حدث في هذه المرة، لقد كان من المقرر أن يرفعوا من مرتبة الابن في العمل، ولكن، ولسبب ما، قاموا بترفيع شاب آخر مكانه، وهنا أخذت الكنة تهاجم الكهل تانباي الذي لا علاقة له بالأمر:

- لماذا كان عليه أن ينضم إلى الحزب طالما سيمضي حياته كلها راعياً للأغنام والخيول، وفي نهاية الأمر قاموا بطرده منه، ولهذا السبب، لم يعد للابن مستقبل في الخدمة، ولو عمل مئة عام سيبقى في المرتبة الدنيا التي يعمل فيها بلا ترفيع، وأنتم تعيشون في الجبال وماذا يلزمك أنت وجايدار في آخر حياتكما، وها نحن هنا نعاني بسببكما...

وهكذا فتحت فاهها بما فيه الكفاية حتى تفرغ ما عندها...

لم يكن تانباي راضياً أنه ذهب إليهم وحتى يجعل الكنة أكثر هدوءاً، قال لها:

- إذا كان الأمر كذلك، فعليّ أن أعيد اعتباري في الحزب كما يجب، فأجابته بلؤم قاصدة الإساءة، وحتى يغادر:

- وكأنك ضروري هناك، وكأنهم ينتظرونك في الحزب، ولا يستطيعون العمل بدون أمثال هذه الشخصيات البالية؟ وأخذت تقهقه بصوت عالٍ، ساخرة.

ولو لم تكن هذه المرأة كنة له وزوجة لابنه الوحيد، بل امرأة غريبة، لما كان تانباي قد سمح لها أن تتحدث معه بهذه الصيغة؟ ولكن الأقارب، سيئين كانوا أم جيدين، فهم أقارب، وليس للإنسان

مهرب منهم. صمت الكهل ولم يغضب وقطع الحديث معها، فهو من غير الصحيح تصورها هذا، وأن عدم ترفيع زوجها، ليس بسبب أخطاء من أبيه أو أمه، وإنما لأنه هو لا يستحق الترفيع، والزوجة عنده ذات لسان طويل، ولا تترك أحداً من شر فحيحها، وأي إنسان طيب سيهرب منها ومن لسانها، وليس من باب المصادفة، أن يقال في الأوساط الشعبية: «المرأة الجيدة تحول الرجل السيئ إلى الدرجة الوسطى، والرجل الوسط إلى الدرجة الجيدة، والجيد، تجعله معروفاً لكل العالم» وهنا لم يرغب الكهل تانباي أن يهين ابنه في الحياة، وليفكرا هما الاثنان أنه هو الذي أخطأ بحقهما.

ولهذا غادر تانباي على عجل، عائداً إلى زوجته، إذ لم يعد يتحمل البقاء عندهم.

«يا لك من مجنونة! - أخذ يشتم كنته، وهو يجلس بالقرب من الشعلة في الطريق - ومن أين يجد الإنسان من أمثالك؟ لا ضمير ولا احترام، ولا شعور خير باتجاه البشر الآخرين، وأنت فقط تفكرين بذاتك، وتحكمين على الجميع من خلال طبائعك الشريرة، ولم يبق لي في هذه الظلمة، وعسى أن لا يكون حسبما ترغبين، فأنا ما زلت ضرورياً، وسأكون ضرورياً في المستقبل...».

25

عم ضوء الصباح، وبدت الجبال كأنها تحرس الأرض، وهي تقف باستعداد، وبانت الأرض كأنها تتسع من حولنا، وعند نهاية انكسار المنحدر أخذت تهدأ أطراف الشعلة التي انطفأت قبل ساعات، فلم تعد الآن ضرورية ولازمة حتى تدفئ الرهوان. لقد غادر غولساري إلى العالم الآخر، إلى القطيع الإلهي... نظر تانباي إلى الحصان المتمدد على الأرض من دون حراك، والذي استسلم للموت

كلياً، فماذا حدث له! تمدد غولساري على جانبه، والتصق رأسه على الأرض في رعشات خفيفة، وعلى رأسه كانتا واضحتين الثغرتان الهابطتان من آثار اللجام. تمددت قوائمه بلا انطواء، بينما بدت حدواته العتيقة الرقيقة جداً والمهشمة عند التشققات في الحوافر. هذه الحوافر، التي فقدتها الطرقات، ولم تعد بعد الآن لتطأ على الأرض، ولم تعد تطبع الطرقات بآثارها. كان من الضروري أن يغادر تانباي، فانحنى للمرة الأخيرة ثاكلاً فوق حصانه، وأطبق جفنيه الباردين فوق عينيه السوداوين وأخذ اللجام وغادر من دون أن ينظر إلى الخلف.

سار تانباي عبر السهول إلى الجبال، وخلال مسيره، كان يتابع سلسلة حياته وذكرياته مع غولساري، وكم كانت كثيرة، وترتبط بفترة طويلة وهامة في حياته، وفكر بكل شيء، حتى بكبر سنه، وأن أيامه أصبحت على حافة الانتهاء، ولم يرغب بالموت نهائياً كطير وحيد قد قصر عن الطيور السريعة الأجنحة والقوية في السرب الذي طار فيه، وأراد أن يموت محلقاً حتى يعم صراخ الوداع الفضاء كله وحتى تجتمع كل الطيور من رفاقه وأترابه ومن عاش معه في عش واحد، وتطير سرباً واحداً وفي طريق واحد.

- سأكتب إلى سامنصور رسالة - قرر تانباي، - وسأقول فيها: هل تذكر الرهوان غولساري؟ أتصور أنك تذكره. لقد حملت معي فوق سرجه إلى اللجنة المنطقية، البطاقة الحزبية الخاصة بأبيك، وأنت نفسك أرسلتني إلى هناك. عدت من هناك في الليلة الماضية من ألكسندروفسك، وفي الطريق وقع رهواني، وطوال الليلة جلست عند رأسه المطروح على الأرض، ولقد تذكرت حياتي كلها، وليس ببعيدة تلك الساعة التي سأقع فيها في الطريق، كما وقع الرهوان غولساري، عليك أن تساعدني يا بني سامنصور للعودة إلى الحزب. لقد بقي لي

القليل من الحياة، أريد أن أكون كما كنت، وكما أفهم الآن، أن والدك تشورا ليس ببساطة قد طلب وأوصى أن أحمل بطاقته الحزبية إلى اللجنة المنطقية، وأنت ابنه، وتعرفني جيداً، الآن عندما أصبحت الكهل تانباي باكاسوف...

سار تانباي عبر السهول، وهو يضع اللجام على كتفه، والدموع تتدحرج على وجنتيه حتى بللت لحيته، ولكنه لم يمسحها، فتلك الدموع كانت حزناً على الرهوان غولساري. نظر الكهل تانباي من خلال الدموع إلى الصباح الجديد، وهو ينظر إلى طير الأوز الوحيد الرمادي الذي يسرع بخفقان جناحيه فوق الهضبة عند سفح المنحدر الجبلي، كان يسرع حتى يلحق بسربه، فهمس تانباي:

- حلق، حلق، وطر بسرعة! الحق بجماعتك، ما دامت أجنحتك لم تتعب - ثم تنهد وقال: - وداعاً، يا غولساري!

سار تانباي، وفي أذنيه تدوي مرثية الأغنية القديمة.

... ركضت الناقة أياماً عدة، تبحث وتفتش في كل منحدر وزاوية ومغارة عن ابنها، وهي تنادي: أين أنت يا أسود العينين، يا حواري الصغير؟ فالحليب يتصبب من الثدي المحتقن جداً، كخيطان بيض على قائمتي الخلفيتين! أين أنت، أجب، ولو بصوت واحد! فالحليب ينصب من الثدي الممتلئ أبيض كالثلج الدافئ!

✯✯✯

صدر للمؤلف والمترجم
الدكتور ماجد علاء الدين

1. ترجمة إلى اللغة الروسية عن العربية:

أ. «عائد إلى حيفا» رواية من تأليف غسان كنفاني، موسكو 1974. وأعيدت طباعتها مرتين وصدرت على حلقات في مجلة «آسيا وأفريقيا اليوم» بمئات آلاف النسخ.

ب. مجموعة دراسات ومقالات عن الأدب العربي منشورة في المجلات والصحف الروسية بين أعوام 1973-1980.

2. ترجمة إلى العربية عن الروسية في مجالات السياسة والاقتصاد وعلم الاجتماع:

أ. «أكتوبر وحركة التحرر الوطني»، مجموعة باحثين، دار ناؤوكا، موسكو 1975.

ب. «كمب ديفيد سياسة مصيرها الفشل»، تأليف أ. زاخاروف - أ. فومين، دمشق ط1 1984- ط2 1985.

ج. «البلدان النامية والعلاقات الاقتصادية الخارجية»، تأليف بورتيانيكوف، دمشق 1985.

د. «الأخوة كينيدي»، تأليف أ. غروميكو، دمشق 1986.

هـ. «مذكرات عن الانقلاب العسكري الأسباب والنتائج»، ميخائيل غورباتشوف، دمشق 1992.

و. «القتلة على الرمال البيضاء»، أناتولي آغارشيف، دمشق 2000.

ز. «ستالينغراد ملحمة العصر»، ف. تشويكوف، دمشق 1995.

3. روايات وقصص قصيرة:

أ. «النطع» رواية من تأليف جنكيز أيتماتوف، دمشق 1984.

ب. «الأقصوصة السوفييتية المعاصرة»، دراسة وقصص مختارة، دمشق ط1 1983، ط2 1984، ط3 1985.

ج. «محاكمة سقراط»، تأليف يوري فانكين، دمشق 2002.

د. «أحلام إيفان المأساوية»، رواية من تأليف الدكتور ماجد علاء الدين، دمشق 2002.

هـ. «بؤس الشيطان»، بريم ستوكر، ترجمة مشتركة مع نايف أبو كرم، دمشق 2002.

و. «الواقعية في الأدبين الروسي والعربي»، دراسة ادبية من تأليف الدكتور ماجد علاء الدين، دمشق ط1 1984، ط2 2015.

ز. «الأرض الأم» - تأليف جنكيز أيتماتوف - ترجمة إلى العربية - دمشق - ط1 2016.

ح. «السفينة البيضاء» - تأليف جنكيز أيتماتوف - ترجمة إلى العربية - دمشق - ط1 2016.

ط. «جميلة، عين الجمل ، وجه لوجه»، - تأليف جنكيز أيتماتوف - ترجمة إلى العربية - دمشق - ط1 2016.

ي. «حورتي في منديل أحمر» - تأليف جنكيز أيتماتوف - ترجمة إلى العربية - دمشق - ط1 2016.

ك. «المعلم الأول ، الجندي الصغير ، لقاء مع الابن» - تأليف جنكيز أيتماتوف - ترجمة إلى العربية - دمشق - ط1 2018.

ل. «وداعاً يا غولساري» - تأليف جنكيز أيتماتوف - ترجمة إلى العربية - دمشق - ط1 2018

4. شعر مترجم وقصص مختارة عن الروسية إلى العربية:

أ. «مختارات من الشعر الروسي» (دراسات وقصائد مختارة)، دمشق 1984.

ب. «المرآة والقرد» شعر قصصي للأطفال، أ. كريلوف، دمشق 1985.

ج. «الوقواق والديك» شعر قصص للأطفال، أ. كريلوف، دمشق 1985.

د. «الذئب والثعلب»، شعر قصص للأطفال، أ. كريلوف، دمشق 1985.

هـ. «تيمور وفريقة»، قصة للناشئة، أ. غايدار، دمشق 1986.

و. «ملحمة الزمن» ديوان شعري، أناتولي سافرونوف، دمشق 1986.

ح. «رموز مقدسة»، مجموعة شعرية، تأليف ن. ريريخ، دمشق 1993.

ط. «الضفدعة السائحة»، غارشين، دار التقدم، موسكو 1974.

ي. «مغامرات بوراتينو»، تأليف: ألكسي تولستوي، دمشق 1984.

5. ثقافة عامة:

أ. «صفحات مجهولة من حياة تولستوي»، ترجمة إلى العربية، دمشق 1986.

ب. «قصص من حياة دوستويفسكي»، ترجمة إلى العربية، دمشق 1985.

ج. «ذكراه في القلب والدة رائد الفضاء الأول تروي قصته»، آنا غاغارين، ترجمة إلى العربية، دمشق 1987.

د. «دليل السائح الروسي»، تأليف الدكتور ماجد علاء الدين، دمشق 1992.

هـ. «الأجسام الطائرة المجهولة»، أ. كوزوفكين، ترجمة إلى العربية، دمشق 1994.

و. «سويداء سورية (موسوعة شاملة عن جبل العرب)»، مشاركة مع مجموعة من المؤلفين، دمشق 1995.

6. قيد الطباعة:

أ. «بناة الأهرامات ما زالوا شباباً» - رواية.

ب. مئة مفكر عظيم.

ج. دراسات في النقد الأدبي وعلم اللغة الروسية وآدابها.

د. سيرة حياة عامة...